

اعلام العرب

# جزءی زیران

بقلم

محمد عبد الغنی حسن

الطبعة المشربة العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠



رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## بين يدي الكتاب

يدخل جرجى زيدان سلسلة «أعلام العرب» من أبواب فسيحة كثيرة . وكل باب فيها يفتح على مصراعه ليستقبل الرجل الذى كانت حياته كلها احتسابا لخدمة العرب وتاريخ الاسلام . فجرجي زيدان عربى بأصله مهما انقسمتعروبة الى أصولين كبارين من عدنان وقططان .

وجرجى زيدان عربى بوطنه مهما توزعتعروبة - بفعل عوامل كثيرة - بين أمصار وبلدان ، ومهما انقسم الوطن العربى الكبير الى عدة أوطنان . . . .

وجريدة زيدان عربي بلغته الشريفة ، لغة القرآن ، التي  
توحد بين العرب ، وترتبط بين قلوبهم جميعاً مهماً اختلفت بهم  
الأديان ٠٠٠

ولقد كتب جرجي زيدان عن العرب لأنهم أهله وقبيله ،  
وكتب عن العربية لأنها لغته ولسانه ، وكتب عن آداب العرب  
وأفكارهم ، وعن الإسلام وتمدنـه . وكان الرجل حسن النية .  
سليم القصد ، على الرغم مما وجه إليه من انتقاد .

ولجريدة زيدان مكان الرواد في تاريخ العرب ، وتاريخ  
الحضارة الإسلامية ، والروايات التاريخية ، وهي ميادين كلها أبكار ،  
وروضات كلها أنف ، لم يرتدها أحد قبله ، فارتادها الرجل ،  
وأخذ فيها عن مناهج الغربين ، وسلك طرائقهم ، ولكن توسيع فيها  
بما وقع له من مصادر لم تقع لهم ، وقدمها إلى قراء العربية في كل  
أرض تقرأ لغة القرآن ، ونشرها في شعبية واسعة محبوبة بما أتسج  
له من شعبية مجلة « الهلال » التي أنشأها سنة ١٨٩٢ ، والتي جعلها  
منبراً لهذه الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية المتخصصة ،  
فأزال عنها صفة التخصص التي قد تتحجج أمثال هذه المباحث عن  
طلابها والمتلقين بها . وجعلها قربة المثال من القراء العرب الذين  
كانت معداتهم الضعيفة لا تقوى يومئذ على هضم هذه الموضوعات .

وقد جعل الرجل هذه النزعة الشعبية هدف رسالته ، حتى

احتال على تاريخ العرب والاسلام ، فأراد أن يحييـه الى العرب وال المسلمين ، وأن يسهل عليهم تناولـه ، فكتـبه على طـريـقة قصصـية جذـابة ، لا تجـور على التـاريخ ولا تـطمس حقـائقـه من نـاحـية ، ولا تـسرـف في التـاريخ الى حد الجـفاف من نـاحـية أخـرى . وارتـضـى لـهـذا الفـرض الشـعـبـي أسلـوبـا فـريـدا ، سـهـلا ، واـضـحا ، مـأـلـوفـاـلـفـاظـ ، بـعيـدا عن زـخرـفـ اللـفـظـ ، وفـخـامـة العـبـارـةـ ، قـرـياـ منـالـبـانـ والأـبـلـاغـ الـذـىـ فـيـهـ لـلنـاسـ بـيـانـ ٠٠

ومنـ هـنـا راجـتـ كـتـبـ زـيدـانـ وـمـبـاحـثـهـ وـدـرـاسـاتـهـ التـخـصـصـةـ رـواـجـ روـاـيـاتـهـ التـارـيـخـيـةـ المـسـلـيـةـ المـفـيـدـةـ . وـوـجـدـ النـاسـ فـيـهاـ لـعـهـدـهـ شـيـئـاـ جـديـداـ لـمـ يـأـلـفـوهـ ٠٠٠ـ فـكـشـرـ الـطـلـبـ لـهـ ، وـالـاقـبـالـ عـلـيـهـ ، كـمـ دـارـتـ حـولـهـ المـنـاقـشـاتـ وـالـانتـقـادـاتـ ، فـلـمـ يـحـطـ هـذـاـ مـنـ قـدـرـهـ ، وـلـاـ ذـهـبـ بـفـضـلـ صـاحـبـهـ ، بلـ كـانـ دـلـيلـ الـحـيـوـيـةـ فـيـهـ وـالـتـقـدـيرـ لـهـ ، لأنـ اـغـفـالـ تـقـدـيـرـ الـكـتـبـ هوـ نـوـعـ مـنـ الـاـهـمـالـ ، بلـ الـاـهـانـةـ لـأـصـحـابـهـ

وـلـقـدـ شـغـلتـ نـفـسـ بـجـرجـيـ زـيدـانـ ، أوـ شـغـلـنـيـ هوـ - زـمنـاـ لـيـسـ بـالـقـلـيلـ . أـقـرـأـ لـهـ ، وـأـقـدـىـ منـ مـؤـلـفـاتـهـ وـآرـائـهـ فـيـ تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ وـالـتـدـنـ الـإـسـلـامـيـ ، وـأـجـعـلـ كـتـبـهـ مـنـ أـهـمـ مـصـادـرـيـ فـيـماـ أـعـانـهـ مـنـ بـحـثـ ، أوـ أـصـدـرـهـ مـنـ درـاسـةـ . ثـمـ زـادـ الشـغـفـ بـهـ إـلـىـ الشـغـفـ بـسـيـرـتـهـ ، وـالـاشـتـقـالـ بـتـارـيـخـ حـيـاتـهـ . فـفـيـ سـيـرـتـهـ نـمـوذـجـ رـائـعـ للـعـصـاميـةـ الـتـىـ تـقـفـزـ بـصـاحـبـهـ مـنـ الـفـقـرـ وـالـحـرـمانـ ، إـلـىـ النـاهـةـ وـرـفـعـةـ الشـائـنـ .

ومن ثم أخذت أجمع كل ما قيل عنه ، وما لا يزال يقال ،  
وأخذت أقيم هيكلًا لسيرته ، وأرسم مخططاً لترجمته وأخذت أجمع  
المادة الضرورية لذلك ، أملاً أن يعيتني الزمان ، وأن تسعفني  
الأيام ، بأن أسوى فيه كتاباً كاملاً ٠

وما كادت رغبة القائمين على الشر في « الهيئة العامة للتأليف  
والنشر » تلتقي مع رغبتي ، حتى أدركت أن يداً من الانصاف  
الالهي قد امتدت إلى هذا الرجل الذي يستحق الانصاف ، بعد أن  
ضن الزمان به عليه زماناً ٠٠٠

وأرجو أن يكون اختياري لهذه المهمة – على ما فيه من تقدير  
كريم مشكور – فيه تحقيق بعض الانصاف الذي كنت أرجوه لهذا  
العالم الرائد ٠

فإذا أصابني بعض التوفيق في هذه السيرة ، فهو فضل من الله  
يستحق الحمد ٠ وإن كانت الأخرى فهو قصور مني يستوجب  
العذر ٠٠٠

ويكفيني أنني مهدت السبيل ، وفقط مسائل للبحث في سيرة  
هذا العلم الجليل ٠ والله يهبيء لنا من أمرنا رشداً ٠

محمد عبد الغنى حسن

القاهرة

## الحياة في سطور

♦ يمثل جرجى زيدان العصامية بأجلى معانيها ، فهو من أسرة لبنانية رقيقة الحال كادحة كانت تعيش فى قرية « عين عنوب » اللبنانية ، ثم حدثت ظروف اضطرت جدته لأبيه الى الهجرة الى بيروت العاصمة مع بنتها وابنيها ، وأكبرهم حبيب زيدان ، والد جرجى زيدان .

وكان والد جرجى زيدان أميا ، لم يتسع له السعى في طلب العيش للذهاب الى المدرسة ، ففتح مطعما صغيرا كان يتردد عليه طائفة من رجال الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية التي كانت فى أول عهد إنشائها سنة ١٨٦٦ على يد جماعة من المرسلين الأمريكيين .

وفي ظل هذه الظروف المعيشية الصنف ولد جرجى زيدان في

١٤ ديسمبر « كانون الأول » سنة ١٨٦١ ، ولما بلغ الصبي من العمر  
خمس سنين أرسله أبوه الى مدرسة متواضعة كان يديرها قسيس  
يدعى المعلم ألياس شفيق ، ولم يكن هدف الوالد أن يمضى بابنه  
فى التعليم لغايته حبا للعلم ، ولكن الحاجة هي التي جعلته يدخله  
المدرسة ليتعلم الكتابة والقراءة والحساب حتى يستطيع أن يساعد  
والده بادارة المطعم وضبط حساباته . ثم انتقل الى مدرسة الشوام  
فتعلم فيها الفرنسية ، وتركها بعد ذلك الى مدرسة مسائية يديرها  
المعلم مسعود الطويل فتعلم فيها الانجليزية .

واضطر الى ترك التعلم بالمدارس ومساعدة والده في المطعم ،  
ولكن واندته كانت تكره له العمل في المطاعم لما فيه من رائحة  
الزفر والانحباس في الدكان ليتل نهار ، فاذعن الآب لأرادتها  
مكرها ، فاختاروا له تعلم صناعة الأحذية وكانت سنه يومئذ اثنى  
عشرين عاما فمارسها عامين حتى قارب من أتقانها ، ولكنه تركها لأن  
ملازمة الجلوس على الكرسي لم تلائم صحته .

وبعد تردادا بين العمل في المطعم والبيع في محل للأقمشة  
كان يقرأ ويطالع الكتب والمجلات ، ويأخذ المعرفة بنهم . فعرفه  
أكثر المتخريجين في الكلية الأمريكية وأكثر أدباء بيروت ، و الرجال  
الصحافة فيها مما سهل له الانظام في سلك « جمعية شمس  
البر » التي أنشئت بيروت سنة ١٨٦٩ ، وكانت فرعا لجمعية الشبان  
المسيحيين في إنجلترا . ورأى نفسه في هذه الجماعة رفيقا لجماعة

من أعلام سورية ولبنان ، منهم الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، وسليم البستانى ، وبطرس البستانى ، ويونس الأسير (١) وغيرهم ، وكان هؤلاء يدعونه إلى المشاركة بالحضور فى احتفالات الكلية الأمريكية - وخاصة حفلات التخرج - فكان يسمع الخطب ، ويخرج خزينا لأنه يتمنى أن يقف مثل هذه المواقف ، ويجد من الحضور اصغاء لما يقول .٠٠٠

• وفي سنة ١٨٨١ صمم نهايائى على أن يترك العمل ويلتحق بالكلية الأمريكية طالبا في مدرسة الطب بها ، وكان الدخول بمدرسة الطب يحتاج إلى امتحان في بعض المواد العلمية الأعدادية ، وأشار عليه بعض أصحابه بأن الطريق طويل ، والاستعداد لامتحان الدخول بالغ الصعوبة ، ولكن ذلك لم يكن عزمه ، ولم يفل من حد أرادته ، فتعلم مواد الامتحان على أحد أصدقائه فيما لا يبلغ ثلاثة أشهر ، ودخل الامتحان فأحرز قصب السبق ، ودخل المدرسة الطبية وقضى فيها عاماً كاملاً . وفي أوائل العام الثاني حدث اضطراب في مدرسة الطب بسبب تدريس المواد بالعربية بدلاً من الأنجليزية . وانجلى الحادث عن مفادة الطلبة جميعاً وتركهم المدرسة الطبية ، وفيهم المترجم له ، وانصرف إلى الامتحان في علوم

(١) الشيخ يوسف الأسير من أعلام اللغة والفقه في سورية ، تعلم في الأزهر ، وقام بالشريعة والافتاء في سورية ، وتوفي سنة ١٨٨٩ .

الصيدلة ، فامتحنته لجنة خاصة برئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر .

• وفي سنة ١٨٨٣ اعتزم الهجرة الى مصر نitem فيها دراسة الطب ، وكان عيسى باشا حمدى ناظراً لمدرسة الطب المصرية يومئذ ، ولم يكن مع المترجم له من المال ما يكفى نفقات السفر ، فأقرضه جار له بيروت ستة جنيهات ، على أن يردها اليه حينما يسر الله عليه .

وفي يوم من أكتوبر سنة ١٨٨٣ وصلت به الباخرة الى نهر الأسكندرية ، وكان مشهد المدينة محزناً كثيناً بما حدث فيها من آثار الحملة الأنجلزية عقب الثورة العرابية . ولم يمكن بالاسكندرية إلا أياماً غادرها الى القاهرة ميما شطر مدرسة الطب ، ولكن طول مدة الدراسة بها قد صرفه عن عزمه ، فظل يبحث عن عمل ، حتى اشتغل محرراً في صحيفة « الزمان » اليومية التي كان يملكها ويدبرها علكسان صرافيان (١) ، وكانت الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الأنجلزى صحافة ذلك العهد . ومكث صاحبنا في الزمان عاماً وبعض عام .

• وفي سنة ١٨٨٤ رافق الحملة الأنجلزية النيلية الى السودان مترجماً لها . وكانت هذه الحملة لأنقاذ غوردون عقب

---

(١) هو أرمى اشتغل بالصحافة في مصر ، ثم تركها بعد ذلك الى قبرص

فتنة المهدى ٠ وقد شارك فى انتساب التى لقيتها الحملة ، ووصف بعضها فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ٠ وكانت مدة رحلته الى السودان عشرة أشهر ٠

٠ وفي سنة ١٨٨٥ سافر الى بيروت ٠ وكان المجمع العلمى الشرقى فيها حديث عهد بالأنشاء ، فقد أنشأ سنة ١٨٨٢ للبحث فى العلوم والصناعات والأفادة منها بما يعود على البلاد بالخير والرخاء ٠ وكان من أول المفكرين فى أشئه الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والدكتور فانديك ، وموصلى باشا ، وانضم اليه بعد ذلك جماعة منهم الدكتور وربات ، والدكتور أسكندر بارودى ، وسليم البستانى ، والشيخ ابراهيم اليازجى وغيرهم ٠ فرأوا أن يكرموا جرجى زيدان بتقرير ضمه الى جماعتهم ٠ وفي خلال اقامته بيروت هذه المرة تعلم اللقين العربية والسريانية ٠ وكان من ثمرة هذا أنه ألف كتابه « الفلسفة اللغوية » أو « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » الذى ظهرت أولى طبعاته فى بيروت سنة ١٨٨٦ ٠ وكان من أثر ذلك أن عينه « المجمع الآسيوى الملكى » عضوا عاما فيه ٠ وكان هذا التعيين تكريما للرجل حينما بعث الى هذا المجمع نسخة من كتاب « الفلسفة اللغوية » الذى بعث بنسخ منه الى المجامع والجمعيات العلمية فى العالم كله ٠

٠ وفي سنة ١٨٨٦ زار المترجم له عاصمة بلاد الأنجلزى ،

وتردد على المتحف البريطاني وغيره من المكتبات ومعاجم العلم .  
ولما عاد في شتاء العام نفسه إلى مصر طلبت إليه إدارة المقططف أن  
يتولى إدارة أعمالها ، ففعل ، وقضى في المقططف عاماً ونصف عام لم  
يشترك في التحرير فيه إلا بمقالة صغيرة واحدة هي خاتمة السنة  
الحادية عشرة ، ومعنى هذا أن عمله في مجلة المقططف كان فاسراً  
على الأدارة لا التحرير . وقد صححتنا لهم القائلين بأنه اشتراك  
في التحرير ، بناء على ما ذكره الدكتور يعقوب صروف نفسه في  
خلال ترجمته لجريدة زيدان عقب وفاته في عدد سبتمبر سنة  
١٩١٤ من مجلة المقططف (١) .

واستقال من المقططف سنة ١٨٨٨ ليشغله الكتابة والتأليف ،  
وفي هذه الفترة أصدر كتابه « تاريخ مصر الحديث » .  
وفي سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العيدية الكبرى لتدريس  
اللغة العربية وأدابها فيها ، وكان مستوى العربية في هذه المدرسة  
عالياً ، ولا غرو فقد كان صاحبها روفائيل عبد السورى من المهتمين  
 باللغة العربية فوق اهتمامه بالطباعة ، وتولى زيدان التدريس في  
المدرسة العيدية لمدة عامين ألف خلالهما رواية « الملوك الشارد »  
 . وفي سنة ١٨٩١ أنشأ جرجى زيدان مطبعة التأليف  
مشتركاً مع تجىب مترى المؤسس الأول لدار المعارف . وبعد سنه

---

(١) انظر دراسة لنا عن كتاب « تاريخ أداب اللغة العربية » في « تراث  
الإنسانية » المجلد ٤ ، عدد ١٠ .

انضمت الشركة بينهما ، واحتفظ جرجى زيدان بالطبعه لنفسه وأسمها مطبعة الهلال ، على حين قام نجيب متري بأشاء مطبعة مستقلة باسمه أسمها مطبعة المعارف .

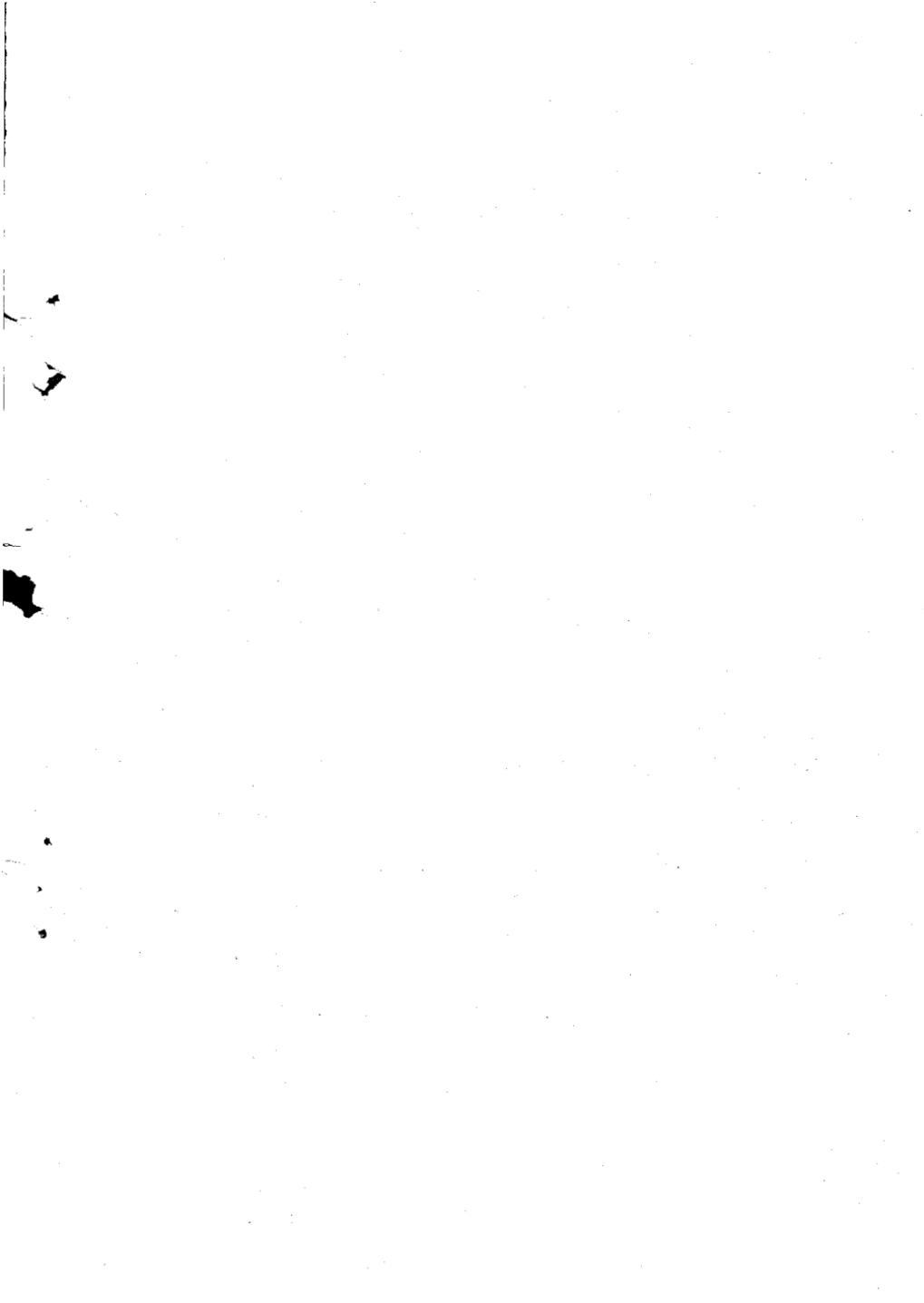
♦ وفي سنة ١٨٩٢ أصدر مجلة الهلال . وستتحدث عنها بأسهاب فى فصل قادم . وقد وصفها صاحب « مرآة العصر » بقوله: ( وفي شهرة هذه المجلة ما يغنى عن الوصف ، وقد دخلت الآن - يعني سنة ١٨٩٧ - في سنتها السادسة ) ، ونالت من الشهرة وسعة الانتشار ما لم يسبق له مثيل في العالم العربي ٠٠٠ وقد اشتهر مشربها بالاعتدال ، وانشاؤها بالسهولة والوضوح مع اجتناب الركاك ، واستمرت لهجتها بالصدق والاخلاص ، وعرف الهلال بحسن الاختيار في الموضع على اختلافها ) (١) . وكان زيدان يقوم بتحريرها بنفسه ، الى أن كبر ولده « أميل » وصار مساعدته في تحريرها .

ولم يشغل « الهلال » صاحبه عن التأليف المثير الضخم المقيد . فقد أصدر أكثر مؤلفاته وروياته التاريخية وهو قائم بتحرير الهلال ، لا تعارض بين الاثنين ، ولا تناقض بين العملين ، فكلاهما متم لصاحبه ، ومات بين أوراقه وكتبه في دار الهلال ميتة البطل في الميدان .

♦ وكانت وفاته في شهر يوليو سنة ١٩١٤ .

---

(١) مرآة مصر : ص ٤٦٤ .



## صور من الطفولة والمدرسة

تواكب طفولة جرجى زيدان العقد السابع وشطرها من العقد الثامن من القرن التاسع عشر . وهى طفولة قضاها المترجم له فى لبنان ، أو ان شئت الدقة فى بيروت . ولم يكن لبنان فى ذلك العهد بأسعد حظا من مصر أو بقية البلاد العربية ، فالظروف الاجتماعية هناك وهنا مشابهة . لقد كان والد الطفل جرجى صاحب دكان ، ولكنه كان أميا . فاضطر أن يتعلم كتابة الأعداد حتى يستطيع ضبط حساباته ! أما أسماء المدينين من عملائه فكان يتركها لقريره ، ثم استعان على ذلك ببعض عماله من يلمون بالقراءة والكتابة ، ثم اضطرته الحاجة الى أن يلحق ولده جرجى بمدرسة صغيرة وهو فى الخامسة من عمره ، على أمل أن يساعده ٠٠٠

ويصور لنا جرجي زيدان في مذكراته الصريحه (١) الصادقة صورا طريفة من معلميه الأول ، ومدرسته الأولى ، وأدلة العقاب التي كانت مستعملة في ذلك العهد ، وهي « الفلقة » التي كانت تتشابه في كل قطر عربي ، بل كان اسمها هناك كاسمها هنا ٠

وكان التعليم في عهد طفولة زيدان مقصورة على رجال الكنيسة وحدهم لأنما هو احتكار لا مفر منه ٠ وأكثر الكهنة في ذلك الزمان - بل كلهم - ان شئت الدقة - كانوا أشباه متعلمين ٠ وما أظرف جرجي زيدان وهو يصف معلميه الأول « الياس » - قسيس الأسرة - بأنه لا يكاد يحسن القراءة في الأنجليل :

ولم تكن المدرسة التي تلقى فيها جرجي زيدان دروس الهجاء الأولى شيئاً مثل مدارسنا اليوم أو قريباً منها ٠ لقد كانت أبعد مما تكون عن ذلك ٠ ولعل فيها كثيراً من ملامح « الكتاب » التي كانت في مدارس مصر وقربها إلى عهد غير بعيد ٠٠٠

وندع المترجم له يصف مدرسته الأولى ويصورها بقلمه قائلاً : ( وكانت مدرسته - يعني المعلم الياس - عبارة عن قبو واسع على بناءة لعقوب ثابت بجوار مدرسة اليسوعيين الآن ٠ ثم صار هذا القبو فرعاً بعد ذلك ، فكان أشبه بالزرية منه بالمدرسة : يجتمع فيه

(١) أشار إلى هذه المذكرات محرر مادة زيدان في دائرة المعارف الإسلامية ، والاستاذ المرحوم طاهر الطاحنى ، ونشر الهلال بعض فصول منها .

أبناء أهل الحي من سن الرابعة الى العاشرة، ذكوراً وإناثاً، يجلسون على حصير أو حصر بسطها في أرض القبو، ويجلس هو في صدر القاعة على طراحة، وبين يديه صندوق صغير « باشتخته »، يضع عليه كتابه، ودواته، وأقلامه، ويجمع إلى يمينه عدة قصبان تختلف طولاً ودقة، يستخدم كلها في محله حسب سن الولد وجنسه وبعدة منه أو قربه؟ )

ان هذه الصورة الطريفة المضحكة للمعلم ومدرسته في لبنان في القرن الماضي تذكرنا بصورة طريفة أخرى « سيدنا » وكتابه في مصر، صورها لنا الدكتور طه حسين في كتابه « الأيام » حيث رأى نفسه في ضحي يوم من أيام طفولته في الصعيد جالساً على الأرض بين يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال، كان يبعث ببعضها، وهو يذكر الرقع التي ألصقت بها من طول ما أبلها الاستعمال ! وكان « سيدنا » جالساً على دكة من الخشب صغيرة، ليست بالعالية ولا المنخفضة، قد وضعت على يمين الداخل، وقد خلع عباءته وطواها كالملخدة، ووضعتها عن يمينه، ثم خلع نعله كذلك متربعاً على دكة ٠٠٠

أما القراءة والتسميع فكانت تتشابه هناك في لبنان، وهنا في مصر، كما كانت تتشابه في كل بلد عربي . وفي كاتيب لبنان تقرأ المزامير، كما يقرأ القرآن في مصر، والقراءة بصوت عال لا محالة، وهو ما يسمى « بالتسميع »، وربما قرأ اثنان أو ثلاثة

من التلاميذ معا في وقت واحد ، فتختلط أصواتهم ، ويرتفع ضجيجهم ، وكلما اشتد الضجيج انحدر رأس المعلم على صدره من النوم ، وراح مستغرقا فيه . فإذا ما تعب رأسه من طول تدليه ، القى به على الحائط ورفع قدميه على الصندوق - أو التختة - التي بين يديه . فإذا ما هزته هزة عنيفة استيقظ وفتح عينيه وصاح في برود : اسكتوا يا أولاد ! فإذا لم يستجيبوا لأمره تحرك فوق طراحته ، وتناول واحدة من العصى أو القضبان التي بجانبه ، وضرب بها أقرب الأولاد اليه حتى ولو لم يكن مذنبًا ، كأنه ضربات المثايم تخطي خط عشواء ! فإذا ما صاح المضرب من الوجع ضمح بقية الأولاد ، فيقتاظ المعلم ويتناول عصا ثانية طويلة فيضرب بها تلميذا بعيدا منه . ( وقد يهم بالهوض عند مسيس الحاجة ) ، ويقبض على التمرد من الأولاد ويلقه على الأرض ، ويستعين بخادم أو غلام كبير على وضع الفلقة في قدمى التمرد ، أو وضع قدميه في الفلق ، ثم يضربه على أحصمييه عشر ضربات ، أو عشرين أو أكثر أو أقل ، على ما يتراوهي له ) ٠٠٠

ويصور لنا جرجى زيدان الفلقة ، ويرى أن فى ذلك تسجيلا لآلية للعقوبة المدرسية زالت من المدن المتقدمة . ولا يأس أن نسجل هنا وصف صاحبنا لها حتى يلم بها الذين لم يرواها ، أو لم يذوقوا أو جاعها من شبابنا الجديد ، فوفقا لهم الله بذلك من عذاب أليم ، يقول مؤرخنا : ( والفلق أداة للقصاص ٠٠٠ وهو عبارة عن عصا غليظة .

قد شد إليها جبل يتصل طرفاً بطرفها ، ويبقى وسطه مرخياً ،  
فيدخلون قدمي الغلام بين الجبل والعصا ، ويدبرون العصا ، فيلتف  
ما زاد من الجبل عليها ، وتحصر القدمان ، فيرفونهما والغلام  
مستلق على ظهره ، فيمسك أحد الحضور طرفى الفلق ، ويأخذ  
المعلم بالضرب به على الأخص ( ٠٠٠ )

وعجيب جداً أن يفلت جرجي زيدان من عذاب « الفلقة »  
فلا يقع ضحية لها ، ولا يعرف طعمها ، على كثرة ما شاهد من مأسى  
استعمالها في المدرسة الأولى . ويتواضع زيدان فيعرف بأن نجاته  
من شر الفلقة وتجنبه مذاقها لم يكن لفضيلة فيه ! ولكنه كان كثير  
التجول ، شديد الحنف من العقاب ، مجبًا للابتعاد عن أسباب  
الشحناه . وقد غلت عليه هذه الصفات منذ طفولته المبكرة ، فكان  
يبتعد جهد طاقته عن كل ما يثير غضب المعلم عليه أو يغضبه على  
اتهاره وضربه ( ٠٠٠ )

ان هذا الحياة والتجول ظل ملازمًا لصاحبنا طول حياته ، وقد  
حب إليه كل من اتصل به أو لاقاه من قريب .

وما نزال نذكر في كتابينا شهادة « سيدنا » للأهل والأقارب  
يائنا قد ختمنا القرآن ، أو حفظنا شطرًا منه كبيراً أو صغيراً ، وأن  
الواحد منا صار « يفك الخط » ، أي يقرأ في سهولة ويسر . لقد  
كانت الصورة مشابهة مع مدارس لبنان . فقد قال المعلم لوالد  
جرجي زيدان : « ان جرجي قد ختم درسه ، وصار يفك

الحرف » . وكان سرور الوالد بذلك فوق كل تقدير . ولا تفوت  
اللحمة الذكية جرجي زيدان فيعلق على الحادثة بقوله : ( ومعنى  
ختم القراءة أني صرت أقرأ بالزامير جيدا ، وهذا صحيح . كتبت  
أقرؤها جيدا ، لكنني لم أكن أفهم ما أقرأ !! )

والى هنا كان الصبي جرجي قد تعلم نصف القضية ، وفاته  
نصفها الآخر ! لقد تعلم القراءة ، ولكنه لم يتعلم الكتابة والحساب  
والعدد . انه قارئ معطل ؟ يقرأ ، وقد لا يفهم ما يقرؤه ، ثم  
لا يدرى بعد ذلك من أمور الكتابة والحساب شيئا ! فماذا يصنع به  
والده فى الدكان ؟ انه لا غناء فيه ، ولا فائدة منه ! انه لا يستطيع  
ولا يعرف أن يقييد أسماء العملاء ، ولا يعرف أن يقييد أمام أسمائهم  
ما على كل واحد منهم من ديون . فاضطر أبوه الى نقله بمدرسة  
كانت قد افتتحت حديثا بيروت تعرف « بمدرسة الشوام » .  
والشوام - كما هو العرف هناك - هم أهل دمشق . وكان مؤسسو  
هذه المدرسة الجديدة جماعة من أدباء دمشق ، نزحوا الى بيروت  
لينشروا فيها العلم ! ويعرف صاحبنا بأنه في هذه المدرسة تعلم  
مبادئ الحساب ، والتحو ، وبدأ يفهم ، وتنفتح عينه على الحياة .

وعلى حين كانت الفوضى والعقاب وسوء المكان تسود مدرسة  
المعلم الياس ، كان النظام والخزن وصرامة القوانين تسود « مدرسة  
الشوام » . ولم يكن هناك قانون كما يتبادر الى الذهن ، ولكنها  
ارادة الناظر أو كبير المعلمين الذي كان اسمه « ظاهر خير الله

الشويرى » ( وكان شديد اللهجة ، عظيم الهيبة ، وأصله بناء ، وفيه ذكاء فعلم وتفق على نفسه ، وصار معلما براتب حسن ، وكان التلامذة يهابونه ويخافون صوته ) . وظاهر خير الله هذا هو والد اللغوى الشاعر الناقد أمين ظاهر خير الله الذى كان يكتب فى القطف ، والعرفان ، والمسرة ، ودارت بينه وبين الأب أنسناس مارى الكرملى مجادلات لغوية شديدة نشرها فى كتابه « البرهان الجلى ، على علم الأب الكرملى » . على أن الأب نفسه الذى كان بناء ، فعملا ، اشتغل باللغة والنحو والصرف فبرع فيها ، وله كتاب « المباحث المحضفات ، في أحوال الصفات » وهو أوسع مؤلف في بحث أحوال الصفات في اللغة العربية .

ولما ترك المعلم ظاهر نظارة مدرسة الشوام وأنشأ لنفسه مدرسة خاصة ترك جرجى زيدان مدرسة الشوام ، والتحق بمدرسة معلمه الذى كان شديد العناية بالتعليم ، وكانت تعلم اللغة العربية والفرنسية - فوق الاهتمام بدورس الحساب - فقضى صاحبنا فيها ستين أخذ في نهايتها يلتذ بالعلم ويفهمه ، ولم يكن له هم غيره . ولقد جمع زيدان في طفولته وصباه بالمدارس الثلاث التي تقلل فيها ، إلى الحigel والحياء اللذين لازماء ، نفورا من اللعب ومشاركة التلاميذ في متابعتهم البدنية ، لأنه - كما يقول - لم يكن ميلا إلى اللهو مطلقا ، وكان يعد ذلك نقصا فيه ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب عليه . فلم يكن يصنع « الطيارة » من الورق بيديه

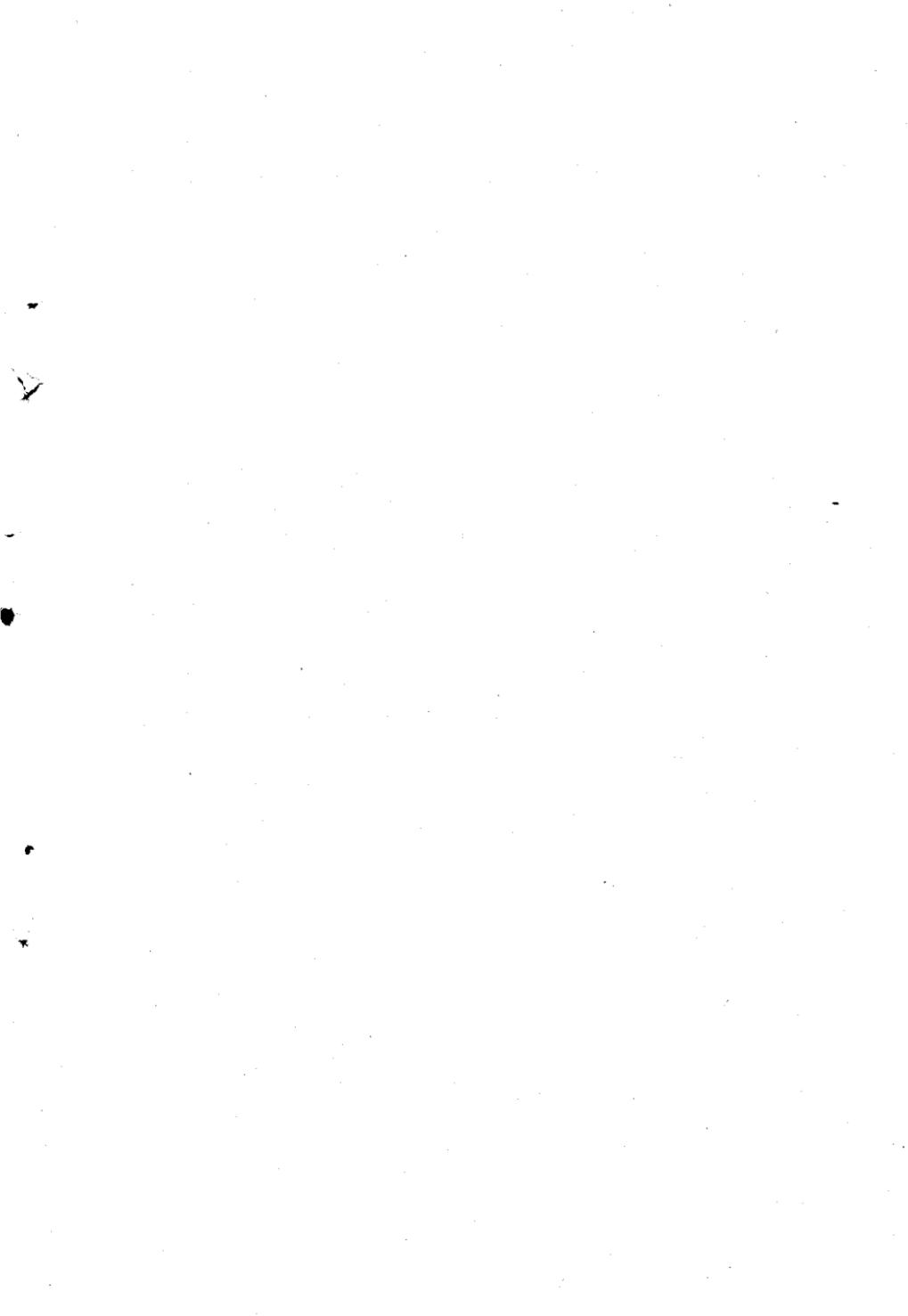
ويطيرها بالحيط المتن الى آفاق بعيدة في الجواء ، ولم يكن يلعب  
الكرة ، ولا « البلي » الا نادرا ، ويكتفى من المشاركة في اللعب  
بمراقبة التلاميذ اذا خرجنوا لتطير طيارة ورقية كبيرة ، فكان يجتمع  
عليها أبناء الحي ، فيتبعهم مشاهدا ، معجبا بشجاعتهم ، ومهاراتهم في  
صنع الطيارة وتطيرها ٠٠٠

كانت نهاية المطاف بالمدارس عند جرجي زيدان عندما أتم  
عامين من التعليم في مدرسة ظاهر خير الله ، وكانت سنة يومئذ أحد  
عشر عاما ، وفتحت له المدرسة آملاً للمستقبل ، ولكن والده كان  
يتنتظره بفارغ الصبر ليساعده في تقييد الحسابات بدكانه أو مطعمه  
وترك مستخدم المطعم عمله ، فاضطر الوالد الى أن يدعوه ولده ليحل  
 محله بضعة أيام حتى ينضر بمستخدم جديد ٠ وأطاع الابن  
المجول الطموح ، ولكن الأيام السبعة طالت حتى بلغت سبعة أعوام  
قضها الفتى في مطعم أبيه ٠ وكان في الأم فطنة وجزع على مستقبل  
ولدها ، فما برحت تطالب الأب بأن يخل بـ بين الابن والمطعم حتى  
يعود الى طلب العلم ثانية ، وظللت تلح على الوالد ، والوالد يسرف  
في الوعود ٠٠٠ نم صارحها بقوله : إن الفتى قد أتم تعليمه ،  
ولافائدة من كثرة الدروس الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كتابا أو  
معلما ٠٠٠ فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجا يأكل بالشوكه  
والسكسين ! وربما حدته نفسه فلبس الرزى الأوربي !

لقد كان الوالد شديد المحافظة على التقاليد والعادات الشرقية ،

فأقمع أم صاحبنا بوجهه نظره ، حتى رضيت بأن يدخل ابنها في صناعة أخرى غير صناعة المطاعم التي كانت تكرهها ! وأخيراً قرأتها على أن يتعلم ابنهما صناعة الأحذية ! فتعلمتها وملكت فيها ستين ، وهو صابر ؟ ولم لا يصبر حتى يجعل الله له مخرجا ؟ ألم يكن معلمه ظاهر خير الله بناء فصار بعد من أئمه المعلمين ؟

ترك صاحبنا صناعة الأحذية لأنها لم تتوافق صحته ، فاضطر والده إلى إعادته إلى المطعم إلى أن تتهيأ له صناعة أخرى تومن مستقبله ! وفي المطعم هذه المرة التقى الفتى بالمعلم مسعود الطويل ، و كان صاحب مدرسة تعلم الانجليزية للشبان ساعة الغروب . فتردد عليها مع أربعة عشر زميلاً ، وكان في الخامسة عشرة من عمره ؟ وكان أجر المدرسة وجبات من الطعام يتناولها المعلم في المطعم ! وقسّا صاحبنا على نفسه في تعلم الانجليزية ، حتى كان يقضى الليالي ساهرا في الحفظ والدرس ، إلى أن قويت فيه الملكة ، وتمكن من اللغة إلى حد أخذ معه يشتغل بوضع معجم انجليزى عربى ! وبلغ فيه حرف « E » - أي خامس حرف من حروف الهجاء الانجليزية ؟ ولكنه توقف عن العمل لقلة جدواء ، وضعف وسائله . واقتصر بالقراءة حتى يزيد من حصيلته ٠٠٠



## العصامية وسر النجاح

حين عهدت احدى مؤسسات النشر الأجنبية الى المرحوم محمد فريد أبو حديد أن يترجم كتابا يتناول سير جماعة من الفقراء الذين أصبحوا من المشهورين ، رأى - رحمة الله - أن يضم الى الكتاب كتابا يتناول سير جماعة من الشرقيين العرب الذين وصلوا الى الشهرة بعد كفاح طويل مع الأيام ، فكان من هؤلاء المكافحين على باشا مبارك ، وجرجى زيدان ، والدكتور على ابراهيم ، وعبدة الحامولى ، وسعد زغلول وغيرهم .

والحق أن وضع جرجى زيدان بين العصاميين هو وضع للثىء فى مكانه الصحيح ، فان العصامية تتجلى في هذا الرجل بأجلى بيانه انه لم يكن من أسرة غنية ، ولا من أسرة من تلك الأسر التي أعطتها المواقف الاجتماعية نوعا من التمييز والاستعلاء . فما عرف

عن أسرته الا أن والده « حبيب » كان صاحب مطعم صغير يديره في ساحة البرج بالعاصمة اللبنانية . ولقد ولد الطفل جرجي زيدان في بيروت وشهد بعينيه في طفولته هذا المطعم الصغير ، وشهد والده وهو يدير هذا المطعم في جو من الكفاح والتعب لا مثيل له . لقد كان الأب يخرج من بيته المتواضع الى دكانه المتواضع في ساعة الفجر ، وأكثر الناس هاتئون بالنم المذيد ، فيظل فيه بين عمل واشراف وتردد على المطبخ ، ومقابلة للعملاء ، حتى يتصرف الليل ، فينقق مطعمه ، ويروح الى بيته مكدود القوى ، منهك الجسم ، فيجد الزوجة تقابلها بعد عمل شاق في المنزل ، فيلتقي المكدودان ، بينما الصغار قد ذهبوا قبل ذلك ساعات الى عالم الأحلام .

ويصور لنا جرجي زيدان هذه الدورة القاسية من الحياة بقوله : ( ٠٠٠ وقد شبيت على ذلك وألقته ، فمرس في ذهني أن الإنسان خلق ليشتغل ، وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير ٠٠ بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء ، ولا يهمهم الا ماذا يأكلون ، وماذا يشربون . ) و اذا ما فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق او غيره ، ولا يقدمون على العمل الا مكرهين ، يحسبون العمل عيناً أو تعباً . ولو عولوا عليه لكتفهم مثونة الرض والضعف ) ٠٠٠ )

وكان والد صاحبنا محتاجا الى معاونته له في العمل ، وخاصة انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وما أدخله المدرسة حبا للعلم او

رغبة في تحصيله ، ولكنه رام من وراء ذلك أن يجد في الطفل معينا له على تقيد أسماء العملاء وتدوين حساباتهم ، حتى لا تبوء تجارة المطعم بالخسران ، وحتى لا يضطر إلى استخدام كاتب بالأجر ، وفي ابته غناء عن استخدام شخص غريب ٠٠٠

وكانما قدر على الطفل جرجي زيدان أن يذوق طعم الكدح في الحياة وهو في الخامسة من عمره ، فهو يذهب إلى المدرسة ويرجع إلى مطعم أبيه ليرى بيته صورة الكفاح المجنوس في والده الدعوب الكادح ٠٠٠

ولم يجد صاحبنا في الفقر عيما ولا عارا ، ولا معوقا عن الجهد في الحياة ، بل على الصد من ذلك وجد فيه محرضا على العمل ، ودافعا قويا إلى النضال . انه لم ييأس ، ولم يرض بأدنى ما ينال والده من الرزق ، ولم يكن راضيا عن العمل الذي يعمله والده . انه كان يتطلع إلى آماد أبعد ، وآفاق أوسع ، وغایيات أسمى . وكان ينظر إلى الشبان الذين أتيحت لهم فرص التعلم في مدارس المرسلين الأجانب وكلياتهم ، فيتمنى لو ساعنته الأقدار بأن يتساح له مثل ما أتيح لهم . وطالما تمنى على الله أن يسعده الحظ بالالتحاق فقط في واحدة من هذه المدارس ، وعليه بعد ذلك أن يمضي باجتهاده إلى نهاية الطريق . ولكن أني له أن يدخل هذا المدخل المشتمى وأبوه متثبت به ، مدخله في المطعم ، لا يسمح له من التعليم إلا بالقدر الذي يجعل منه مساعدا له في الدكان ؟

كان الفتى يجد في الفقر ألف حافز وحافز على بلوغ الآمال .  
وما وجد نافذة ينفتح منها ولو شاعر أمل ضئيل إلا فتحها وأطل منها  
على أمل جديد . ألم يستطع أن يوفق بين عمله في المطعم وبين  
تعلم اللغة الانجليزية في مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود  
الطوبل ؟ ألم يقضى في هذه المدرسة خمسة أشهر دائمة الدرس  
حتى استطاع أن يحصل من الأنجلizية ما لا يحصله غيره في سنين ؟  
ألم يقرأ « رحلة كوك في المحيط » ليختبر مقدرته في هذا اللسان  
الجديد فوجد نفسه دون ما كان يريد . فلم يزل يواصل الدرس  
والشهر حتى عزم على تأليف معجم انجليزى عربى ؟ إن مؤلف  
كتاب « مرآة مصر » يروى لنا قصة هذه الارادة ، وكأنه يضعها  
مثالاً للذين يريدون النجاح في الحياة .

وكان كفاحه له ومقابلته الأيام يتجلّى في كفاحه في سبيل  
العلم الذي علق عليه أكبر الآمال في تحطيم مستقبله الجديد . لقد  
كافح في سبيل لقمة العيش ، وكافح فوق ذلك في سبيل التعلم ،  
ولم يتافق الكفاحان أو يتلاقيا على أطراف التقى . بل تلاقيا  
كأحسن ما يكون اللقاء بين الأطراف .

وما كان كفاحه في سبيل تعلم الأنجلizية الا مقدمة وتمهيداً  
ل侃فاحه في سبيل عدد واوفر من اللغات . ففي سنة ١٨٨٥ حينما  
بدأت الدنيا تفتح أمام عينيه اتّدب عضواً في المجمع العلمي الشرقي  
الذى أنشأ في بيروت سنة ١٨٨٢ ، والذى كان ثمرة من ثمرات

تفكيك الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والمستشرق فانديك ، والذى كان من أعضائه الشيخ ابراهيم اليازجي ، وابراهيم الحوراني ، وسليم بطرس البستانى ، والدكتور وربات ، ومراد البارودى . فرأى أن يتزود لعضوية هذا المجمع بعض اللغات السامية ، فتعلم العبرانية والسريانية وأخواتهما ، وأتقنها كلها فى أقل من عام .

ولقد كان التصميم المسدد ، والأرادة القوية سيل المترجم له إلى تحقيق الغايات ، ففى سنة ١٨٨١ ، وكانت سنه اذ ذاك عشرين عاما ، صمم على الالتحاق بالمدرسة الكلية الأمريكية – التي عرفت فيما بعد باسم الجامعة الأمريكية بيروت – ليدرس الطب . وكانت مواد امتحان القبول في هذه الكلية تشتمل على الحساب والجبر والهندسة وعلوم الطبيعة واللغة العربية والإنجليزية . أما اللقمان فأمرهما ميسور ، واتفاقهما حاضر موفور . ولكن المشكلة فى المواد الأربع التى لم يكن يعلم بها الماما يهينى له النجاح فى امتحان القبول . وهنا يتجلب التصميم والأرادة من جديد ، فانتهز عطلة الصيف قبل أن يعقد الامتحان ، ووصل الليل بالنهار فى درس هذه المواد حتى دخل الامتحان وكان فى طليعة الناجحين ، وأصبح منذ ذلك اليوم طالب طب فى المدرسة الكلية الأمريكية . وان كان لم يتم التعليم فى مدرسة الطب فانما كان ذلك بسبب من الأسباب القاهرة التى ليست من كسب المرء ولا من صنع يديه .

والتصميم المسد والارادة القوية في النجاح كان يظاهرهما عند جرجي زيدان اهتمام دائم بمعرفة أسباب النجاح عند الناجحين في الحياة . فهو يعرف بالخبرة الملموسة القريبة أن معلمه « ظاهر خير الله » ، الفوى الناجح كان فى أول أمره بناء يشد الجدران ، ويقيم الحيطان ، ويحكم البنيان . فما زال يتوصل بالعلم حتى صار عالما ملحوظاً المكان .

وهو يعلم من قراءاته سير أناس نجحوا في الحياة بعد فقر ، وارتقاوا بعد خمول ، وصاروا من « المشاهير » بعد أن كانوا من المناكير .

ووقع في يد الطفل جرجي زيدان كتاب « سر النجاح » للمكاتب الانجليزى صموئيل سمایلز ، وقد ترجمه الدكتور يعقوب صروف إلى العربية باشارة من الدكتور فان ديك المستشرق الشهور . ورأى صاحبنا في الكتاب صوراً من الاعتماد على النفس ، والمثابرة والثبات ! وقرأ فيه سير جماعة من رجال الأعمال والمال والفنون صنعوا حظوظهم بأيديهم بعد معاكسات من الأقدار . وأضاف « صروف » إلى الكتاب سير جماعة من الشرقيين رأى أن يستكمل بهم صور النجاح ما بين شرق وغرب من أمثال العلامة بطرس البستاني ، والدكتور فان ديك ، ومحمد باشا الفلکي .

وخرج الفتى جرجي من قراءته الدائمة لهذا الكتاب بایمان قوى ، وأمل متفتح للحياة . وكانت تستهوي الفتى صور الناجحين ،

وطلت منطبعة في ذهنه إلى أن أتيح له يوماً ما أن يؤلف كتابه المشهور « ترجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٢ ، فجمع في كتابه طائفه من العصاميين الذين غالبو الظروف حتى تغلبوا عليها ، واستولوا على الأمد بما اجتمع فيهم من وسائل الكفاح للنجاح ٠

ووضع زيدان نصب عينيه في مؤلفه عن ترجم مشاهير الشرق أن يبرز بوضوح قساوة ظروفهم ، وأسباب نجاحهم ، حتى يكون القارئ منها دائماً على ذكر لا يصيغه أفال ٠

ففي ترجمته لسليم صيدناوي شقيق سمعان صيدناوي اللذين اشتهرَا بادارة أكبر محل تجاري في مصر ، خص جزءاً من الترجمة بكتابه فصل عن شروط النجاح ، جعل منها المعرفة ، وحسن الاختبار ، والثبات ، والاستقامة ، والاجتهاد ، ومراقبة الفرص ، وأسلوب المعاملة ٠ ولم يكتف بهذا الفصل بل أتبعه بفصل آخر عنوانه « أساس النجاح » عالج فيه أسباباً أخرى تتصل بالأمانة والاستقامة ومعرفة الأسواق ، وكأنه جعل هذا الفصل تطبيقاً عملياً من سليم صيدناوي للشروط التي وضعها للنجاح ٠

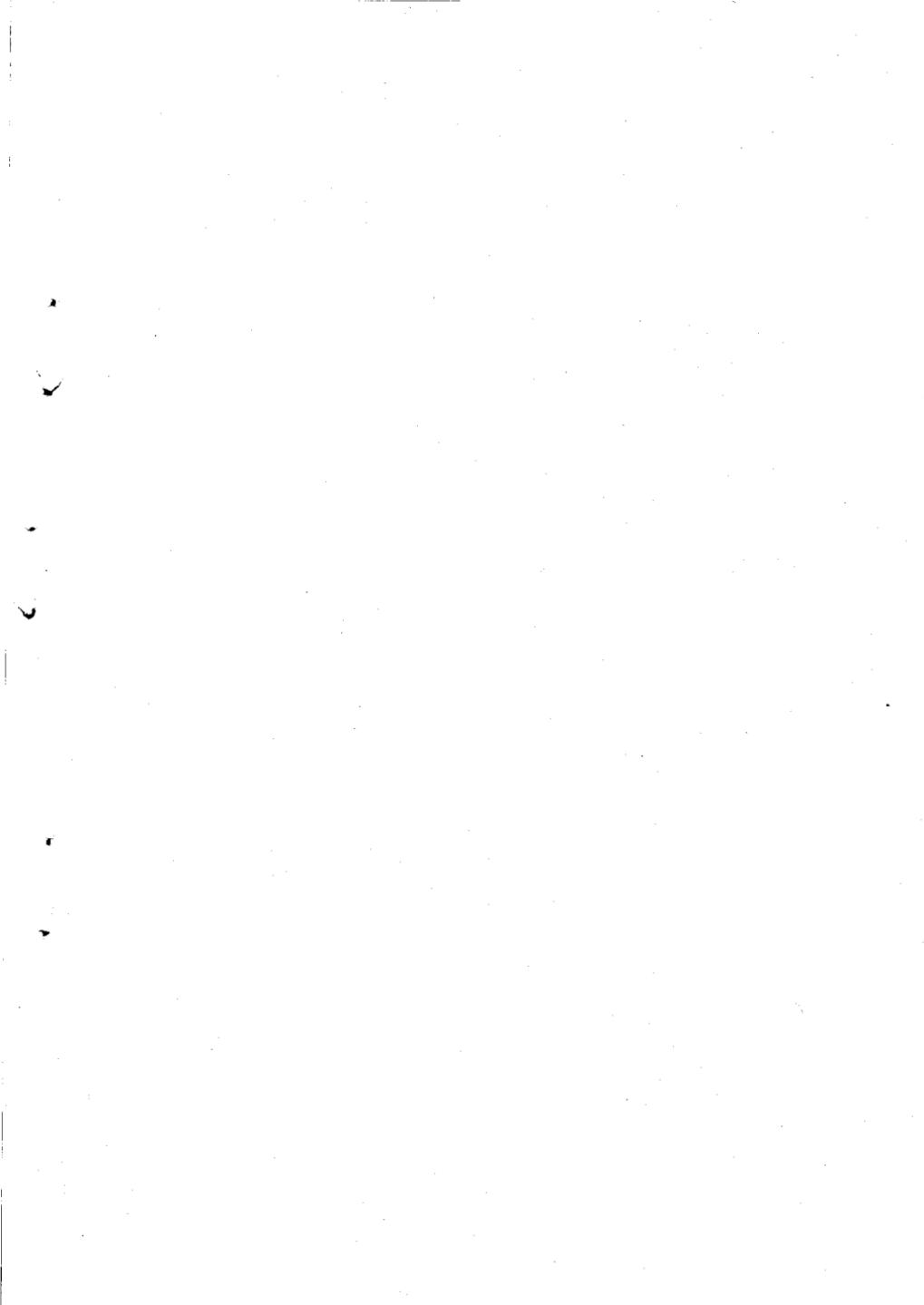
ومن الناس من يلقون ستاراً من النسيان على ماضيهم اذا كان مكللاً بضباب الفقر والحرمان ، فهم يفرون من هذا الماضي ولا يحاولون اظهاره أو الاشارة اليه بحال ٠٠٠ ولكن جرجي

زيدان لم يجد أن يحجب ماضيه بحجاج . بل رأى أن ينشر أشد  
ما فيه ، وأقسى ما فيه لعل في ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر . وكان  
ذلك منه إيماناً بأن الفقر ليس فيه ما يعاب ، ولكن العيب أن يتحاول  
المرء وبين يديه أسباب النجاح ، ولهذا نجد في مذكرات جرجي  
زيدان كثيراً من المصارحة التي يضن بالافضاء بها كثير من الناس .  
إنه يتحدث في مذكراته عن فقره ، وعن كدحه ، وعن المهن  
المتواضعة التي امتهنها ما بين صانع أحذية ، وبائع صغير في متجر  
يملكه تاجر للأقمشة ، ومساعد لوالده في مطعم صغير متواضع  
بيروت .

ولم تكن الأيام في أيام جرجي زيدان الأولى سخية عليه  
بالعطاء . فكأنما كان يتزرع الرزق من بطون الأسود . ولقد بلغ  
به الأمر أنه حينما اعتزم الهجرة إلى مصر سنة ١٨٨٣ لم يكن معه  
من النقود ما يسد به نفقات الرحلة ، فاقترض من أحد جيرانه  
الطينين بيروت ستة من الجنيهات . وقد أخذها من الجار على أن  
يردها إليه حينما يمن الله عليه باليسار بعد الاعسار ، لا على أن  
يأكلها كما يفعل بعض المفترضين ٠٠٠ ولم يمض عام واحد على  
مقام المترجم له في القاهرة وتتأمين العمل له حتى بعث إلى جازه  
البيروتي يرد له الدين مقرضاً بالشکران والعرفان .

وهذه حادثة لم يكتتها جرجي زيدان وهو يكتب مذكراته ،  
بل سجلها كما سجل كثيراً غيرها من أغرب الحادثات .

لقد كان جرجى زيدان نمطاً عالياً رفيعاً من الأنماط الإنسانية المتأمرة في الحياة . وكان المجد العلمي والأدبي الذي بلغه جزءاً وفقاً للجهاد العظيم والكافح الجسيم الذي بذله . فكان بحق أكرم صورة للتعويض عن معاكسة الحظوظ ومضائقه الأقدار . ويقتضي المقام هنا أن نستحضر قول المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد وهو يقدم لكتاب « عاصيون عظماء من الشرق والغرب » الذي كان جرجى زيدان أحد المترجم لهم فيه : ( ٠٠٠ فالنجاح والخذلان ، والمقدرة والعجز تسير جنباً إلى جنب منذ بدء الحياة . والفرق بين حال السمو والأسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم ، لأنهم هم الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم في الحياة ، ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها ) .



## رحلات ومشاهدات

كان جرجى زيدان - صاحب مجلة الهلال - مثل الهلال السماوى فى تنقله ودورانه . فلم يكن يحب الالتصاق بأرض لا يبرحها الى غيرها من بلاد الله ، ولكنه أعطى نفسه من الترحال والتجوال ما سمحت له به ساعات الفراغ .

ولقد تنوّعت رحلات زيدان وأسفاره بين الهجرة ، والعمل ، والمتّعة ، ولكنه كان فى رحلات النزهة والمتّعة يستخرج منها أقصى ما يمكنه الحصول عليه من منفعة للعلم والمعرفة ، والمصادر والوثائق والمخطوطات ، والطباعة ومدى ما وصلت اليه في أحدى تطوراتها .

ولقد قدر للفتى القابع في حي متواضع من أحياه بيروت أن يركب البحر لأول مرة في حياته حينما استقل في شهر أكتوبر

سنة ١٨٨٣ باخرة تجارية تحمله الى مصر . وكان ذلك أول عهد الفتى بالأسفار ، والبعد عن الديار . وكانت تلك الرحلة للهجرة لعل الفتى يجرب فيها حظه مع المهاجرين السوريين الذين كانوا في ذلك العهد يرحلون عن البلاد فرارا من ظلم الأتراك ، وطلبوا للرزق في أرض الله الواسعة .

وشاء الله أن يدخل زيدان ثغر الأسكندرية في أعقاب ما أصابها من حرائق ، وما نكبت به من تدمير بفعل جيوش الاحتلال البريطاني . فكانت تجلل جو ذلك الشغر باسم سحابة من الكآبة والحزن العميق .

ولم يطل بصاحبنا المقام في القاهرة محرا في صحيفة «الزمان» كما سبق القول ، فإذا بالإنجليز يرسلون حملة نيلية إلى السودان لإنقاذ غوردون ، وكانت تتألف من ستة آلاف جندى كما يروى جرجى زيدان في كتابه «تاريخ مصر الحديث» ، وكان أكثر قوادها من طبقة الأشراف والبلاء في إنجلترا ، فقد تسبق إليها القوم لزعمهم أنها (عبارة عن فسحة على النيل) . واختير جرجى زيدان بوصفه مترجما مرافقا لتلك الحملة التي سافرت في سنة ١٨٨٤ ، وقد أشار كراتشوفسكي إلى مشاركة زيدان في تلك الحملة النيلية وأوجز الخبر في سطرين اثنين من بحثه في دائرة المعارف الإسلامية ، كما أشير إليها في الترجمة التي نشرت في ذيل الجزء الرابع من كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» . ولم تخل من

رغبة في تحصيله ، ولكنه رام من وراء ذلك أن يجد في الطفل معينا  
له على تقيد أسماء العملاء وتدوين حساباتهم ، حتى لا تبوء تجارة  
المطعم بالخسران ، وحتى لا يضطر إلى استخدام كاتب بالأجر ،  
وفي ابته غناء عن استخدام شخص غريب ٠٠٠

وكانما قدر على الطفل جرجي زيدان أن يذوق طعم الكدح  
في الحياة وهو في الخامسة من عمره ، فهو يذهب إلى المدرسة ويرجع  
إلى مطعم أبيه ليرى بعينه صورة الكفاح المجسم في والده الدعوب  
الكادح ٠٠٠

ولم يجد صاحبنا في الفقر عيما ولا عارا ، ولا معوقا عن الجهد  
في الحياة ، بل على الصد من ذلك وجد فيه محرضا على العمل ،  
ودافعا قويا إلى النضال . انه لم ييأس ، ولم يرض بأدنى ما ينال  
والده من الرزق ، ولم يكن راضيا عن العمل الذي يعمله والده .  
انه كان يتطلع إلى آماد أبعد ، وآفاق أوسع ، وغایات أسمى . وكان  
ينظر إلى الشبان الذين أتيحت لهم فرص التعلم في مدارس المرسلين  
الأجانب وكلياتهم ، فيتمنى لو ساعنته الأقدار بأن يباح له مثل  
ما أتيح لهم . وطالما تمنى على الله أن يسعده الحظ بالاتصال فقط  
في واحدة من هذه المدارس ، وعليه بعد ذلك أن يمضي باجتهاده  
إلى نهاية الطريق . ولكن أني له أن يدخل هذا المدخل المشتهي  
وابوه متثبت به ، مدخل له في المطعم ، لا يسمح له من التعليم إلا  
بالقدر الذي يجعل منه مساعدًا له في الدكان ؟

كان القى يجد في الفقر ألف حافز وحافز على بلوغ الآمال .  
وما وجد نافذة ينفتح منها ولو شعاع أمل ضئيل الا فتحها وأطل منها  
على أمل جديد . ألم يستطع أن يوفق بين عمله فى المطعم وبين  
تعلم اللغة الانجليزية فى مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود  
الطوبل ؟ ألم يقض فى هذه المدرسة خمسة أشهر دائمة الدرس  
حتى استطاع أن يحصل من الأنجلزية ما لا يحصله غيره فى سنين ؟  
ألم يقرأ « رحلة كوك فى المحيط » ليختبر مقدرته فى هذا اللسان  
الجديد فوجد نفسه دون ما كان يريد . فلم يزل يواصل الدرس  
والشهر حتى عزم على تأليف معجم انجليزى عربى ؟ ان مؤلف  
كتاب « مرآة العصر » يروى لنا قصة هذه الارادة ، وكأنه يضعها  
مثالاً للذين يريدون النجاح فى الحياة .

وكان المترجم له و مقابلته الأيام يتخلل في كفاحه في سهل  
العلم الذي علق عليه أكبر الآمال في تحطيم مستقبله الجديد . لقد  
كافح في سهل لقمة العيش ، وكافح فوق ذلك في سهل التعلم ،  
ولم يتافق الكفاحان أو يتلاقيا على أطراف التقى . بل تلاقيا  
كأحسن ما يكون اللقاء بين الأطراف .

وما كان كفاحه في سهل تعلم الأنجلزية الا مقدمة وتمهيداً  
لكفاحه في سهل عدد واخر من اللغات . ففي سنة ١٨٨٥ حينما  
بدأت الدنيا تفتح أمام عينيه اتذبذب عضواً في المجمع العلمي الشرقي  
الذى أنشئ في بيروت سنة ١٨٨٢ ، والذى كان ثمرة من ثمرات

المواد الأولية لمشروعات كتبه في أداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الإسلامي ، وان كان حتى ذلك الحين لم يعan التأليف ، ولم يستغل بالتصنيف ، الا ما كان من كتابه الأول : « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » الذي كان باكورة انتاجه في المكتبة العربية ٠

ولم تكد الأحوال تستقر في الدولة العثمانية بعد الانقلاب العثماني سنه ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد واعلان الدستور حتى عزم جرجي زيدان على زيارة تركيا ٠ فشد اليها الرحال في سنة ١٩٠٨ ٠ ويشير كراتشيفسكي الى هذه الرحلة اشارة سريعة ٠ ويشير الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه « الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث » الى زيارة جرجي زيدان لسوريا ولبنان سنة ١٩١٠ ، وهى زيارة تمخض عنها مقال في السنة التاسعة عشرة من مجلة الهلال ، ينصح فيه صاحبنا جماعة المشائمين من العرب بعدم اصابة الفتن بالحكومة الدستورية في تركيا ، والصبر على وعد الحكومة بالاصلاح حتى تتمكن من تحقيق ما وعدت به ٠

وفي سنة ١٩١٢ نرى أن جرجي زيدان قد شد الرحال الى أوربا في زيارة طويلة ، والى هذه الرحلة أشار محرر مقال « دائرة المعارف الإسلامية » اشارة عابرة ٠ ولعلها هي الاشارة الوحيدة التي جاءت في كتاب من الكتب التي ألمت بسيرة المترجم له ٠ وقد نشرت فصول من هذه الرحلة في أعداد من مجلة الهلال ، على عادة زيدان ٠ ولكن دار الهلال قد نشرت هذه الرحلة كامنة في كتاب

عنوانه « رحلة جرجى زيدان الى أوربا سنة ١٩١٢ » ٠ وهذا الكتاب من منشورات دار الهلال سنة ١٩٢٣ ، أى بعد سبع سنوات من وفاة صاحب الهلال ٠ وقد مهد زيدان لهذه الرحلة بتمهيد يقول فيه : ( قضينا صيف هذا العام في أوربا بين فرنسا وإنكلترا وسويسرا ، وتنقلنا في أهم مدائشها ، فزرتنا مرسيليا ، وليون ، وباريس ، ولندن ، وكمبريدج ، ومانشستر ، وأوكسفورد ، وجينيف ، ولوزان ، وأفيان ، ودرستنا أحوالها ، وتفقدنا متاحفها ومكتباتها – يعني مكتباتها – وأثارها ٠ وتوخينا النظر على الحصوص فيما يهم قراء العربية من أحوال تلك المدينة التي أخذنا في تقليدتها من قرن كامل ، ومحن تخطيط في اختيار ما يلائم أحوالنا منها ٠٠٠ ونقتصر من ذلك على ما يهم القاريء الشرقي ، من حيث حاجته الى تحدى مدينة أولئك القوم في نهضته هذه ، ونبين ما يحسن أو يقع من عوامل تلك المدينة ، بالنظر الى طبائنا وعاداتنا وأخلاقنا وسنفضل سباق الرحلة ، فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا ، وما لاقيناه أو كابدناه في أثناء ذلك ، على ما جرت به عادة أهل الرحلة ٠ اذ ليس غرضا أن يكون ما نكتبه دليلا للراحلين في السفر والتزول ومعرفة الطرق والمسافات والأجور ٠ وإنما نريد أن نمثل للقاريء ما طبع في ذهنا أثناء هذه الرحلة بعد اعمال الفكر في أحوال تلك الأمم ) ٠

ونستطيع أن نضم رحلة زيدان هذه الى نظائرها من رحلات العرب في العصر الحديث ، من أمثال رفاعة الطهطاوى ، وعلى

مبارك ، وأمين فكري ، وأحمد زكي باشا ، وأحمد فارس الشدياق ،  
 ومحمد ليب التباфонى ، وأحمد حسين ، وشكيب أرسلان ، وأمين  
 الريhani ، وعبد الوهاب عزام ، ومحمد ثابت ، وفؤاد صروف ،  
 وجيل خانكى ، وأمين الميز العراقي ، وأحمد عطيه الله ، وزنـيه  
 مسعد ، وعبد السلام العجلى ، وأئـيس منصور ، وفتح الله الصقال ،  
 ومحمود البدوى . ولكل من هؤلاء طريقته في الوصف ، والعرض ،  
 والتعليق ، وجمع المعلومات ، وتسجيل اللمحات . وأجمل ظننا  
 بقارئنا الكريم أنه يعرف عنوانين رحلات هؤلاء الرحـالين والجوابين ،  
 فلا معنى ملء هذا الفراغ بذكرها .

وإذا كان زيدان قد كشف لنا عن منهجه في الرحلة وغرضه  
 من تسجيل آثارها ، فإنه لا يفوتنا هنا أن نشير إلى النواحي التي  
 جلاها في زيارته لفرنسا في القسم الخاص بها من الكتاب ، فقد  
 تحدث في دقة وافية عن نظام حكومتها ، وعمرانها ، وحالتها  
 الاقتصادية ، وحالتها العلمية ، ومظاهر حضارتها كالمركبات العامة ،  
 والاعلان ، والأزياء ، والبوربوار « البخشيش » - أو البتشيش -  
 ونظام الاجتماع فيها ، وطبعات الفرنسيين ، والجمال ، والاقتصاد  
 والترتيب ، والثقة بين الناس ، وقيمة الوقت ، وصدق المواعيد ،  
 والمفارقة بزجالهم ، والحرية ، وطعامهم ، وشرابهم ، والأرساليات  
 - أو البعثات التعليمية - المصرية ، وأثار فرنسا ، وضريح نابليون ،

ومتاحف باريس ، ومعارض الصور ، والمكتبة الأهلية ، وقصور العاصمة وضواحيها ، وقصور فرنسا على وجه العموم .

وكان زيدان - شأن المفكر الاجتماعي المصلح - يعقد المعارضات والمقارنات في رحلته بين حالنا هنا ، وحال القوم هناك . ففي فصل له عن التعليم بفرنسا يفضي به القول إلى الحديث عن التعليم بمصر في وقت رحلته قبل الحرب العالمية الأولى بعامين ، فيقول في صراحة تامة ملقياً تبعه التقصير على الحكومة وأصحاب الأموال : ( فالتعليم عندنا ضعيف جداً من كل وجه . ويكفي في هذا المقام أن نبين تقاعداً حكومتنا وأغنياناً عن التعليم ، ولا يحتاج علينا بصغر مصر بالنسبة إلى فرنسا ، فإن سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ، ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عشر ما تتفقه فرنسا ٠٠٠ ) .

وعند ما شاهد زيدان في رحلته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ الحرية البالغة التي تتمتع بها المرأة الفرنسية ، وتجاوزها الحدود في اتساع استعمال هذه الحرية ، حمد الله على حال المرأة العربية ، وكاد يرضي لها بالحجاب والجهل ، مع أنه كان من أشد القوم هنا مناصرة لحركة التحرير التي دعا إليها قاسم أمين ٠٠٠

وكان في زيدان المؤرخ الأديب اللغوي طيبة الرحالة حين ينزل ببلد ، فلا يجد معدى من وصفه ووصف عمارته ومقارسه ومنازله وأهله ، والألمام بتاريخه . فإنه لما زار سوريا ولبنان في سنة ١٩١٠ - كما سلف القول - لم يقته أن يكتب بحثاً ، ويرسم صورة

لدمشق والدمشقيين . وتمتاز أوصافه تلك بالدقة والالام بالتفاصيل .  
ولا يأس من ايراد هذه الصورة لدمشق من مطل لها عال على  
«الصالحية» يقول فيه صاحبنا (١) : ( أشرفنا ذات صباح على دمشق  
من مكان يقال له «المصطبة » ، فإذا هي مبوسطة بين أيدينا ، وحولها  
الفوطة تحدق بها من كل ناحية ؟ كأن دمشق قصر كبير تحيط به  
حديقة كبيرة . ومساحة هذا القصر : دمشق ، بضعة أميال مربعة ،  
وأما حدائقه : الفوطة ، فتمتد بضعة أميال إلى كل ناحية . تخترقها  
الأنهر والترع ، وتشتبك أشجارها المثمرة ، وأكثرها من المشمش  
وهو أكبر غلاتها ، والتفاح ، والكمثرى ، واللوز ، والسفرجل ،  
والرمان وغيرها .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق وغوطتها وبساتينها  
وهوائها وسكانها . قال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها  
فلست ترى بغير دمشق دنيا  
تفيض جداول البلور فيها  
خلال حدائق ينتن وشيا

(١) مجلة الملال : الجزء الثالث من السنة الرابعة والثلاثين - أول  
ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

مكللة فواكه من أبيه الـ  
المناظر في مناظرنا وأهيا  
فمن تفاحة لم تعد خدا  
ومن أترجة لم تعد ثديا !٠٠

لقد كان جرجي زيدان يجد في مطالعة الكتب والوثائق  
والخطوطات مصدرا لا ينضب للمعرفة التي ملأ بها تصانيفه ، ويجد  
في الرحلات والأسفار مادة للخبرة والتجربة في الحياة ، فتزود من  
الناحietين بأعمق وأخصب وأطرف ما يمكن أن يتزود به انسان ٠٠٠

## زيдан المعلم والأستاذ

عجب أمر هذا الرجل الذى كان قصاراه أن يتنهى به الأمر  
لغير المطعم المتواضع الذى كان يملكه والده في بيروت . ولكن آماله  
كانت بعيدة المرامى ، فهو يحلم بأن يكون يوما ما مثل الأدباء والعلماء  
الذين كانوا يتربدون على مطعم والده . وهو يرجو أن يصبح يوما  
ما مثل هؤلاء الصحافيين الذين كانوا يتناقشون ويتشربون على موائد  
ال الطعام فى ذلك المطعم الذى كان قابعا فيه يرقب الداخلين والخارجين .  
وكان يرى الشيخ ابراهيم اليازجي ، والعلم عبد الله البستانى -  
صاحب معجم البستان - يفدان الى المطعم فيمن يفد اليه من العملاء ،  
فيأنس بهما ، ويقف بالقرب منهما يستمع الى أحاديثهما ، ويبي  
كلامهما . فلما وجدا منه حسن اصقاء أذنا له بالجلوس معهما يفترف  
من بحرهما ، وينهل من مواردهما . بل كان يرجو أن يصير في يوم

من الأيام مثل طلبة الكلية الأمريكية بيروت الذين كانوا من المترددون على مطعم أبيه ، وان يتاح له من فرص الالتحاق بالكلية ما أتيح لهم . وكثيراً ما كانوا يعجبون بسعة معارفه ، ونضج آرائه ، وفتح ذهنه ، فيدعونه معهم الى الاحتفالات التي كانت تقام بالكلية في المناسبات المختلفة ، وخاصة في أعقاب الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويرى التلاميذ الناجحين يظفرون بأعجاب الحاضرين ، فيتمنى في نفسه لو يكون مثلهم . وقد يستولي عليه الألم فصارح أحد أصدقائه بقوله: إلا يأتي يوم أقف فيه موقف أولئك المتعلمين ؟ هذا الفتى الذي كان يتمنى التعليم بأية وسيلة قد أصبح في سن الثامنة والعشرين معلماً ففى آخر سنة ١٨٨٩ كانت شهرته فى التأليف قد بدأت تظهر - وخاصة بعد كتابه فى الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية ، وكتابه فى تاريخ مصر الحديث الذى ظهر فى أوائل سنة ١٨٨٩ ، وكتابه عن تاريخ المسونية الذى كان من حصيلة ذلك العام أيضاً . فإذا بادارة المدرسة العيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بالقاهرة تدعوه ليقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها فيها سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المدرسة - التي كانت تعد من المدارس الأجنبية - تهتم بتعليم اللغة العربية اهتماماً عظيماً ، وتحتار لتدريسيها أكفاء العلمين من المصريين والسوريين ، ومؤسسها روفائيل عيد السورى (١) . ولأول مرة يصبح جرجى زيدان معلماً فى المدارس . فهو

(١) تاريخ أداب اللغة العربية . ج ٤ ص ٥٠

الآن ، والقياس مع الفارق كما يقولون ، مثل معلمه الأول «ألياس» الذي كانت مدرسته في قبو متواضع بيروت ٠٠٠ ويفضى زيدان في التعليم بالمدرسة العيدية سنتين ، وتصوره في مهنة التعليم رجلاً موفقاً ناجحاً محبوباً من تلاميذه ٠ لأن له من سنته ووقاره وهدوئه وحيائه وغزاره مادته العلمية وبساطته في إيصال المعرفة إلى التلاميذ ما يضمن له التجاح والتوفيق ٠

هذه هي الفرصة الوحيدة التي مارس فيها زيدان التعليم النظامي بمدرسة نظامية ٠ وقد تهيأت له فرصة أخرى للتدرис بالجامعة المصرية القديمة ولكن ظروفًا معينة حالت دون ذلك ٠ فان شهرة الرجل في التاريخ وتاريخ الحضارة الإسلامية قد نبهت ادارة الجامعة المصرية إلى ضرورة الأفاده من جهود هذا الرجل العصامي وعلمه الغزير ٠ وكان كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) قد ترك دويًا هائلاً في العالم كله بين شرقه وغربه ، فأئمته عليه العرب والمستعربون ، وعدوه أول وأعظم مصدر ل تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ٠ وما كادت اجراءاتتعيين في الجامعة تأخذ طريقها حتى قامت أصوات قوية تعارض الكتاب ، وتعارض تعيين مؤلفه في الجامعة ٠ وكان الرجل قد أعد بالفعل المحاضرات التي سيقوم بتألقها على طلبه في الجامعة وضمها في مخطوط واحد يكون بين يديه حين يبدأ العمل ٠ ولكن أصوات المعارضين كانت أقوى من كل شيء ، فحيل بين الرجل وبين مكانه الصحيح في الجامعة التي كانت تضمر

بانضمامه الى هيئة التدريس فيها ، وصمم الرجل حين سمع وقرأ  
ضجيج المعارضين ، واستجابة ادارة الجامعة لتلك الضجة القائمة .  
ولكنه كان أصفى نفسها من أن تؤثر فيه أمثال تلك الحملات العنيفـات ،  
فانسحب من غبار المعركة في هدوء وانكسار ٠٠٠ وسلم أدارة  
الجامعة المخطوط الذي كان يضم المحاضرات المنوي ألقاؤها ليكون  
تحت تصرفها ٠٠٠ أو ليكون - على الأقل - صدى من أصداء تلك  
المعركة الشديدة . ولا يزال المخطوط في مكتبة جامعة القاهرة  
اليوم يتـظر من يزيل الغبار عن جوانبه .

ولعلك أيها القارئ الكريم تود أن تعرف السر في الحملة  
التي أقيمت ضد جرجي زيدان لتحول بينه وبين التدريس في الجامعة  
المصرية القديمة . لقد كانت انتقادات الشيخ شبل النعماني المصلح  
الإسلامي في الهند لكتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » هي الشرارة  
الأولى لتلك الحملة . فقد اتهم جرجي زيدان بالشـعوبـية ، واتهمـه  
بالخوض في أمور إسلامية لا يحسن الخوض فيها ، واتهمـه أكثر من  
هذا بأنه يعمل على تحـقير الأمة العربية وابـداء مساوـيتها ، واتهمـه  
بالكذب في رواية الحـوادـث ، والخطأ المقصـود في الاستـنتاج . وقد  
نشرت مجلة « المـنـار » للـسـيد محمد رـشـيد رـضا هذه الاتهـامـات  
والانتـقادـات في سلسلـة من المـقـالـات سنـة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ مـ وكانت  
أصـدـاؤـها لا تزال قـوية تـرنـ في الآذـان ، فـتـحرـجـ المـشـرـفـونـ عـلـىـ الجـامـعـةـ  
من نـدـبـ الرـجـلـ لـلـتـدـرـيسـ فـيـهاـ بـعـدـ أـقـيلـ فـيـهـ مـاـ قـيلـ . وـقـدـ أـشـارـ

المستشرق كراتشكونفسكى الى هذه الحادثة فى كلمات قليلة وجذرة يقول فيها : ( ولم يكن المسلمين المحافظون ليرضوا بأن يعمد زيدان - وهو الكاتب المسيحي - الى الخوض فى موضوعات اسلامية بحثة . ويتجلى ذلك بأجلٍ بيان فى الهجمات التي تعرض لها عندما عرض عليه منصب الأستاذية في الجامعة المصرية )

والحق أن الحيلولة بين جرجى زيدان وبين التدريس في الجامعة كانت خسارة لا تعوض لجامعة ناشئة فتية، حشد لها العلماء والأساتذة العالميون من أمثال كارلو نلينو ، وليتمان وغيرهما . وقد كان المرحوم الشيخ محمد الحضرى يلقى فيها محاضراته عن التاريخ الاسلامى ، ويعلم طلبة الجامعة القدماء من أمثال طه حسين ، وأحمد البيلى ، ومحمود عزمى ، وسيد كامل كيف يقرعون المصادر العربية الكبرى من مثل تاريخ الطبرى ، والكامن لابن الأنبار وغيرهما .

على أن جرجى زيدان ، اذا خسرته الجامعة وخسره كرسى التدريس فيها ، فقد استبدل بذلك جامعة الحياة التأليفية التي كان فيها صاحب مكان مرموق . فليس من الضروري أن يكون المعلم صاحب كرسى يجلس عليه ويجلس الطلاب أمامه . فقد يكون المؤلفون أصحاب رسالة تعليمية كبرى لا تقل عن رسالة العلمين فى المدارس والجامعات . والى هذه الحقيقة يشير المغفور له داود برگات رئيس تحرير الأهرام من كلمة له فى تأبين جرجى زيدان يوم وفاته سنة ١٩١٤ حيث يقول : ( جرجى زيدان يبتدئ ، فضله

بأنه علم نفسه ، ويتصف هذا الفضل ويعظم ، ويغنم ويسمو ،  
بأنه كان في مدى حياته كلها معلماً لغيره . ويدوم هذا الفضل غير  
مته إلى حد ، ولا منقطع إلى مدى ، « بهالله » ، وهو - يعني  
الهلال - وحده مكتبة ضخمة لا ينقصها علم ، ولا يفوتها فن ،  
حتى يصح أن يقال لكل طالب : عد إلى الهلال تلق ضالتك ، وبتأليفه  
التي تستند قراءتها شطراً كبيراً من عمر القارئ ، إذا قرأ ، فكيف  
بعمر المؤلف إذا كتب ؟ )

وإذا سلمنا بهذه الحقيقة ، حقيقة الأستاذية بلا مدرسة  
ولا معهد ولا جامعة ، رأينا جرجي زيدان يخرج من القضية بأوفق  
وأكرم نصيب . إن تلاميذ في مدرسة نظامية لم يتلقوا عليه العلم إلا  
في المدرسة العيدية الكبرى ، ولكن تلاميذه في مدرسة الحياة  
الكبرى كانوا أكثر عدداً ، وأرفع طرازاً ، وأكرم معذناً . ونستطيع  
أن نقول في اطمئنان مع صاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب »  
أن الدراسات التي كتبها طه حسين ، والعقاد ، وهيكيل ، وووجدي ،  
والجليل ، ومطران ، والبشرى ، والمنفلطي ، وجبران على فرات  
متباعدة أو متقاربة من ذكراه ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء  
الكتاب تلمندو أو اتصلوا من قريب بآثار هذا الكاتب ، فضلاً على  
أن هذه الآثار كانت موجهة لفهم وأسلوبهم .

لقد كان زيدان في الحق معلماً دون أن يكون له « طراحة »  
أو « باشتختة » يجلس عليها ، أو سبورة يطرز سوادها ببياض

الطباسير ٠ وكان معلما دون أن يتقييد بفصل معين من التلاميذ ، أو بجرس يدق فيؤذن التلاميذ بالاقبال والانصراف ٠٠٠ ذلك الجرس الذي وصفه شوقي بقوله :

لهم جرس مطرب في السراح

وليس اذا جد بالملطرب

وكان معلما من فرع رأسه الى أخصص قدمه وهو بيت علمه الغزير في جود وسخاء ، كالشجرة الكريمة تجود بالعطاء في غير من ولا استعاء ٠ وكان علمه هذا ينشره عن طريق مؤلفاته الكثيرة الخصبة ، و « هلاله » الخصيب الشري المعطاء ٠

لقد كان جرجي زيدان أستاذًا لكثيرين منمن انعقدت لهم في الأدب والعلم والصحافة أولوية ، واستقام لهم في الفكر العربي مكان ٠

واذا أردنا شاهدا على ما نقول فلن يعوزنا الآتيان من ذلك بالعشرات ٠٠٠ لقد كان أنطون الجميل أدبيا ناشئا حين ظهرت الطبعة الأولى من ديوان خليل مطران سنة ١٩٠٨ ٠ وقرأ أنطون الجميل الديوان ، وبدت له فيه نقدات وملاحظات ، فسجلها في مقال ، وبعث به الى جرجي زيدان لينشره في مجلة الهلال ٠ وعاد اليه في مغرب اليوم التالي ليعرف رأيه فيه ٠ وكان زيدان على عادة لا يدخل بها في حياته المنظمة ، وهي أن يجلس مغرب كل يوم في مكتبة

الهلال بالفجالة ٠ فلما وقعت عين زيدان على أنطون الجميل رحب به ، وأحسن لقاءه ، وهنأ بمقاله ، ووعده بنشره في عدد الشهر القادم من الهلال ٠ ولم يكتف بهذا اللقاء الجميل ، والوعد الكريم ، ولكنه أسمعه بعض عبارات التشجيع قائلاً : ( أبشرك بمستقبل حسن في الأدب اذا ثابتت على البحث والكتابة ٠٠٠ وأهدي الى المجلة على سبيل المكافأة ٠ ولا شك أن هذا الحادث كان من الحوافر التي دفعتني الى الكتابة في المستقبل ) ٠

هكذا يروى لنا أنطون الجميل بعض ذكرياته عن جرجي زيدان ، ومنها نعرف كيف كان الرجل يوجه من يشيم فيهم الأدب والثقافة ، وكيف كان يشجعهم بالكلمة الطيبة ، والمكافأة المجزية ، وفتح أبواب النشر أمامهم لعلهم يكونون يوماً من الكتاب النابهين ، والأدباء المرموقين ؟ أليست هذه بعض صفات المعلمين والأساتذة الذين يسعدهم أن يكون لهم تلاميذ نجاء ، ولا يضرهم بحال أن يكون في تلاميذهم من يفوقهم في الاعتبار ، لأنهم كالآباء الذين يسعدهم أن تكون حظوظ أبنائهم أسعد من حظوظهم ٠

وما أكثر أدباءنا النابهين اليوم ، والناشئين في حياة جرجي زيدان الذين كانوا يتربدون عليه ، ويسألونه في مشكلة من مشاكل العلم أو قضية من قضايا التاريخ ، فيفتح الرجل لهم صدره وعقله ، ويردهم بما فيه الافادة والاقناع ٠ ومن هؤلاء الأدباء المرحوم عباس محمود العقاد ، وندعه هنا يروى بنص عبارته ما جرى بينه وبين

زيدان حيث يقول : ( ٠٠٠ ومرة أخرى زرته في بيته في الفجالة والظاهر ، وأنا مشغول بقراءة شوبنهاور لأسأله رأيه في أصح النظريتين إلى حقائق الحياة : نظرية المتشائمين أو نظرية المتفائلين ٠٠ )

وما أكثر ما كانت مجلة الهلال تفتح صدرها لأسئلة القراء في كل لون وفن . وما أكثر ما كان زيدان وحده يرد على هذه الأسئلة رد العالم المتثبت المتمكن ، ولو أحوجه الجواب إلى الاطلاع على عشرات من المراجع والمصادر !

ان الله قد أفضى عليه المعرفة والعلم ليفيضهما على غيره ممن لا يجدون السبيل لهما ميسرة ، فهو كالجدول لا يدخل بقطرة من ماء ، وكالشمس لا تضن بحرمة من ضياء .

ولو رجعت إلى اعداد مجلة الهلال منذ انشائها سنة ١٨٩٢ لوجدت فيها بابا يطالعك كل شهر هو باب « بين الهلال وقرائه » وتحتختلف فيه الأسئلة في ميادين العلم والأدب والتاريخ والمجتمع . فهذا سائل عن « فناء المادة » ، وهذا سائل عن « استنسناس الوحش » ، وهذا سائل عن « عبادة الشمس » وهذا يسأل : هل أخطأ هارون الرشيد أم أصاب في الفتنة بالبرامكة ؟ وكلها أسئلة كانت تجد من محرر الهلال الاهتمام بالجواب .

ان قراء الهلال كانوا يقفون من زيدان موقف الطالب من  
المعلم ، كما أن قراء مؤلفاته العديدة المفيدة كانوا في مثل هذا  
الوضع من التلمذ عليه ، والأخذ عنه ، والأفاده منه . فاذا لم تكن  
هذه أستاذية المعلم بحق فكيف تكون الأستاذية اذن بعد هذا التلقى  
والافتقاء ؟

## مناهج التأليف عند زيدان

لقد ظل جرجى زيدان خمسة وعشرين عاماً من عمره وهو لا يعالج التأليف ، ولا يهم به ، الا ما كان من تلك الفكرة الطارئة التي خطرت له وهو يتلقى دروساً في اللغة الانجليزية ، حيث بدأ بالفعل يضع معجماً للغة الانجليزية والערבية بلغ فيه الى حرف E ولكن توقف عن العمل فيه لقلة وسائله . ولعل لصغر سنّه دخلاً في هذا التوقف ، فقد كان يومئذ على أبواب الخامسة عشرة من عمره .

وفي سن الخامسة والعشرين صمم زيدان على أن يقدم للمكتبة العربية أول كتاب من تأليفه ، فكان كتابه « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » . وكانت الظروف المحيطة به ، والوسائل التي بين يديه تساعدته على تأليف هذا الكتاب ، فهو يومئذ عضو « بالمجمع العلمي

الشرقي » الذى انتخبه لما لمسه الأعضاء فيه من الجد والبحث ، ولما عرفوه عنه أيام كان طالباً بالسنة الأولى في الكلية الأمريكية بيروت ، وهو يومئذ - أيضاً - قد فرغ من تعلم العربية والسريانية واتقانهما .

وعلى الرغم من طرافة موضوع الكتاب وأوليته في التأليف العربى فإن زيدان لم يكن له فيه منهج تأليفى واضح . ولعل (للبداية) هنا دخلاً كبيراً ، فإن العمل الأول دائمًا لا تستوى له من المناهج ما توحى به الأعمال التالية .

لقد ظهر كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » سنة ١٨٨٦ ، وكان بحثاً متكاملاً لم ينشر منجحاً في مجلة أو صحفة ، لأن مجلة الهلال لم تكن قد أنشئت بعد . ولو كانت الهلال موجودة في ذلك الحين لرأينا الكتاب منشوراً فيها على هيئة فصول في أعداد متالية .

ومهما يكن من أمر فقد استقبل النقد - لا التقرير - كتاب الفلسفة اللغوية بما يستحقه من الاهتمام والتناول تقديرًا لشأنه . ورأينا الدكتور يعقوب صروف يتناوله بالنقد التزيف في المجلد الثامن من مقططف سنة ١٨٨٦ .

وإذا كان زيدان قد احتاج في سبيل تأليف هذا الكتاب إلى دراسة كتب فقه اللغة واللغتين العربية والسريانية وغيرهما من اللغات

السامية ، فاته في كتبه التالية مثل « تاريخ التمدن الإسلامي » ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » احتاج الى دراسات أوسع ، ومراجع أعظم وأكثر ، ولغات أجنبية مما كتبه المستشرقون وعلماء الدراسات العربية الإسلامية .

ولقد كابد جرجي زيدان كثيرا من العناء في جمع المواد العلمية مؤلفاته كلها بلا استثناء ، وخصوصا أن موضوعاتها مبعثرة مشتتة مما يضل فيه الباحث . وهذه حقيقة لا يعرفها إلا الذين عانوها من بعيد أو قريب ، وقد أشار إليها أنطون الجميل في الخطبة التي ألقاها في تأبين زيدان حيث اجتمع زملاء الفقيد ورصفاؤه ( وهم أدرى من سواهم بما يكابده المؤلف في الشرق من العناء في جمع مواده وتأليفها في أي فن من فنون الكتابة . لذلك يدررون كم كانت لفتنا مدينة لجامع أشتنات تاريخها وتاريخ آدابها وتاريخ شعوبها ) .

وإذا كنا في زماننا هذا نكابد جمع المادة العلمية للتأليف ، مع كثرة المكتبات ، وكثرة الكتب المطبوعة ، وحصر المخطوطات وتصويرها ونشرها ، وفهرسة المواد والمصادر ، فكيف كان الحال في الربع الأخير من القرن الماضي ، حيث كانت العقبات تقف في سهل الباحث والمؤلف على اختلاف صورها ؟

هذه المكابدات والمتاعب التي كان يلقاها المؤلفون والباحثون ، ولا يزالون يلقونها إلى اليوم بصور تختلف باختلاف الموضوع

ومراجعه المشتة المتناثرة ، قد لقيها زيدان واضطر الى أن يذكرها حينما كثر المتقدون لكتبه ، الذين كانوا يتصدرون له المأخذ حتى الصئلة ، ويجسمونها وبالغون في التهويل بها ، فنراه في مقدمة الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول في لهجة من الأسى : ( أخذنا في هذه الخدمة منذ ربع قرن ، وتاريخ الاسلام مشتت في كتب القدماء . فرأينا أن نأخذ على عاتقنا استخراجه من مظانه بالبحث والتحقيق . ويشهد الله والمنصفون من القراء أننا أخلصنا النية ، وبذلنا الجهد في بيان حقيقته ، واعتبرتنا عقبات مهدناها بالصبر والاغضاء والجد والعمل ) .

وكانما أحس جرجي زيدان أن التأليف في المكتبة العربية لا يصح أن يترك بغير توجيه أو تقويم . فقد كان الرجل يعرف لغات أجنبية عدة ، وكان يعرف مناهج المؤلفين والباحثين في هذه اللغات ، ويعرف الفرق بين البحث المشتت والبحث المنظم ، فوضع للتأليف شروطا ذكرها في تقديمته للجزء الثاني من « تاريخ آداب اللغة العربية » .

وبالأن يمضي زيدان في بيان شروط التأليف أراد أن يحدد الفرق بين من يكتب في الشؤون الخاصة ، وبين من يكتب للمصلحة العامة فيقول : ( من تصدى للكتابة أو التأليف فقد جعل نفسه خادما للمصلحة العامة ، الا من يحصر كتابته في شؤون خصوصية أو يعالج علمًا يلذ له ولا يهمه سواه ، أو يتعاطى الكتابة لأغراض معينة ، أو

يكون مرماه من التأليف بيان قدرته على الانشاء ، والغوص على المعانى المويضة والألفاظ الغريبة بتقليد الأساليب القديمة انتماساً لاعجاب العلماء ، مما يشق فهمه على جمهور القراء . فهو لاءٌ وأمثالهم يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص . ولهم منزلة وفضل ، ولكن فى غير الخدمة العامة . واذا لم يصادفوا اقبلاً من الجمهور اتهموه بالجهل ، وهددوه بالاعراض والتقادع عن الكتابة ، مع أنه لم يشعر بوجودهم ، لأنهم لم يخاطبوه بلسانه . وأما الكاتب العمومي فإنه خادم الأمة وولي ارشادها . وعليه أن يبذل الجهد في سهل مصلحتها ) .

ويضع جرجي زيدان للمؤلف أو الكاتب الذى يكتب للمصلحة العامة شروطاً ثلاثة ؟ أولها أن يختار للكتابة الموضوع الذى يرى الأمة فى حاجة إليه . فما دام الكاتب يؤلف للمصلحة العامة فلا بد أن يتبع حاجات قومه ، ومطالب أمتهم ، حتى تكون تأليفه من نوع احتياجات القوم ومصالحهم . ومن هنا كان اختيار زيدان لموضوعات مؤلفاته . فان « تاريخ مصر الحديث » كان استجابة لضرورة معرفة المصريين بتاريخهم القديم والحديث » وكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » كان صدى لاحتاجات العرب والمسلمين فى العصر الحديث الى معرفة مشاركاتهم فى الحضارة العالمية ، ومدى ما قدموه الى العالم من مدنية وحضارة ومعرفة . وكذلك الشأن فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » بل كذلك

كان الشأن في بقية كتبه الكثيرة ، فإنها كانت من وحي حاجة الأمة العربية التي كاد ينقطع ما بينها وبين أمجادها التاريخية والأدبية في ذلك الزمان .

وثاني الشروط التي وضعها زيدان للمؤلف والكاتب الذي يكتب للمصلحة العامة ( أن يسبك المؤلف موضوعه في قلب يسهل تناوله ) . ولقد حرص زيدان على هذا الشرط في كل ما كتبه سواء أكان دراسة أدبية ، أم بحثاً تاريخياً ، أم رواية من روايات تاريخ العرب والاسلام . وقد بلغ من حرصه على هذه السهولة أن اتهمه بعض النقاد بضعف الأسلوب ، وعدم التائق فيه ؟ كما فعل المرحوم الدكتور أحمد أمين في مقال له عن زيدان ، بالكتاب الذهبي من الهلال ، وكما فعل الشيخ ابراهيم اليازجي في نقده لأسلوب زيدان ولعنته .

والحق أن زيدان قد راعى في سهولة الأسلوب ظروف قرائه الكثرين من العامة الذين كان حريصاً أن يبسط لهم المعارف ، وييسر لهم العلوم ، وهي مسألة ستتناولها بالتفصيل في موضع آخر من الكتاب .

وثالث الشروط التي وضعها صاحبنا للمؤلف : ( أن يتوكى صدق اللهجة والصراحة ، بلا انحياز إلى طائفة أو حزب ) . وأغلب الفتن أن جرجي زيدان قد وضع هذا الشرط الثالث في سنة ١٩١١ ودا على ما اتهمه به الشيخ شبل النعماني المصلح الاسلامي الهندي

من تعصبه وانحيازه لطائفة اسلامية على أخرى . وكانت هذه الاتهامات عقب صدور كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » سنة ١٩٠٢ . وقد نشرت في مجلة النار سنة ١٩١١ ، على أن قضية الأسلوب السهل الى أبعد حدود السهولة في التأليف لم يتركتها زيدان بلا توضيح لها أو تعقب عليها في الموضع الذي تحدث فيه عن شروط التأليف ، وقد أسماه « الأسلوب العصرى » الذي لا يشذ عنه الا المتفانون في المحافظة على القديم ) .

وقد حرص زيدان في مؤلفاته على أن يكشف عن أغراض تأليفه . ففي « تاريخ آداب اللغة العربية » يوضح لنا غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله : ( وقد ألفنا هذا الكتاب للناشئة العربية أو طلاب هذا اللسان الذين يريدون الوقوف على العلوم العربية وأماكنها للمطالعة أو التأليف ، أو يعوزهم درس موضوع أو الكتابة فيه ، ولا يعرفون مظانه . وقد عرفا حاجة الناشئة الى ذلك من الأسئلة الكثيرة التي تتوالى علينا من هذا القيل .

فربما رغب أحدهم في درس تاريخ أمة أو دولة أو موضوع من المواضيع الاجتماعية أو الأخلاقية أو اللغوية ، وأحب الاطلاع على ما قاله العرب فيه ، ولا يدرى من ألف فيه منهم ، وهل ما ألفوه لا يزال باقيا ، وما هي قيمته بالنظر الى سواه في موضوعه ؟ وهل طبع ؟ وأين ؟ وإذا لم يطبع فأين يوجد ؟ الخ ) .

ويلاحظ الناظر في مؤلفات جرجى زيدان أنها تمتاز بذكر

المراجع والمصادر ٠ وقد تعود الرجل الرجوع الى المصادر فعن عليه  
 أن يسقطها من حسابه حتى وهو يؤلف روایاته التاريخية ، مع أن  
 الروایات في الغالب لا تحتاج الى تسجيل قائمة بمراجعها ، ولكن  
 هذا يؤكّد غلبة الصفة العلمية ، ونزعة العلماء الأصلاء فيه ٠ وهو  
 يصدر كل روایة من « روایات تاريخ الاسلام » بذكر قائمة المراجع  
 التي أفاد منها في تأليف روایته ، ففي روایة « فتاة غسان » يحشد  
 حشدا هائلا من كتب المراجع ما بين عربية وأجنبية ، كالطبرى ،  
 وابن الأثير ، والمسعودى ، والمقرىزى ، والنويرى ، وياقوت  
 الحموى ، وابن هشام ، وابن خلدون ، والواقدى ، وجون مرى ،  
 وسيريل ، وتور كهارت ، وفوشيه ٠٠٠ وغيرهم ٠ وستتناول موضوع  
 المصادر والمراجع مفصلا في فصل آخر من كتابنا هذا ، وفاء بحق  
 البحث في موضوعه ٠ على أن قضية المراجع والمصادر لا بد أن تأتي  
 في فصل يتناول مناهج التأليف عند جرجى زيدان ، كما أن قضية  
 منهجه التاريخي ستأتى في فصل خاص ٠

ولما كان زيدان كثير التناول للمصادر الأجنبية التي كتبها أهل  
 الاستشراق ، فقد أفاد منهم العقلية التنظيمية للتأليف ، والتسلسل  
 للموضوعات ، والترتيب الدقيق ، وجمع الأشباه والنظائر والوصول  
 منها الى استنتاج عام ٠ ويتجلى ذلك بوضوح في كتابيه العظيمين :  
 « تاريخ المدن الاسلامى » و « تاريخ آداب اللغة العربية » ٠  
 وتلاحظ هذا التنظيم من مجرد القاء نظرة على أبواب كتاب تاريخ

التمدن الاسلامي . ففي بحثه عن الجندي الاسلامي تأتي هذه المسائل متعاقبة في فصول متواتلة من الكتاب : الجندي وتوابعه ، جند الروم ، جند العرب ، تنظيم جند العرب ، جند الاعاجم في الاسلام ، ديوان الجندي ، أعطيات الجندي ، عدد الجندي ، اللواء أو الراية .

ومن مناهج زيدان في تأليفه تشكيل المسائل وتلويع التفريعات والدقائق في الموضوع الذي يعالجها . فهو حين يتناول موضوعاً متكاملاً يلقي عليه أضواء من فكره الواسع ، ويفرعه إلى قضايا ومسائل وفصول جانبية لا يفطن لثلها إلا الراسخون من العلماء . وفي طبيعة الخاصة ومزاجه الفكرى شيء كثير من هذا ، على أنه قد أفاد من صنع المستشرقين والأجانب في هذا الباب ؟ فهو يفتقر المسائل في الموضوع الرئيسي تقنياً عجيباً ؟ ففي موضوع « نظام الاجتماع في العصر العباسي » يفرعه إلى المسائل الآتية : طبقات الخاصة ، أتباع الخاصة ، الخدم ، الأرقاء ، الخصيان ، الجواري .

وإذا كانت الفهارس للموضوعات في مؤلفات زيدان منسقة ومقسمة أحسن تقسيم بحكم التنسيق الحسن في موضوعات الكتاب نفسه ، فإنه قد رأى أن اتساع الموضوعات وغزارتها ، والمماها بعصور الأمة العربية في تاريخها الطويل منذ الجاهلية إلى اليوم ، وكثرة الأسماء والأعلام فيها ، وغزاره أسماء الكتب والمؤلفات التي وردت في كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، رأى أن ذلك كلـه يقتضي عمل فهارس عامة للكتاب تكون مستقلة في كتاب قائم بذاته ،

حتى يسهل الانتفاع بهذه الموسوعة الأدبية الضخمة ، وحتى تكون دائمًا في متناول من يريداطلاع عليها ، والبحث فيها ، والرجوع إليها . فكان من ذلك فهرس (١) عام للموضوعات والأعلام وأسماء الكتب . وقد طبع هذا الفهرس سنة ١٩٢٢ . ومن المؤسف أن الطبعة الأخيرة المحققة من هذا الكتاب بقلم الدكتور شوقي ضيف وتعليقاته الثمينة لم يصدر لها فهرس عام ييسر الانتفاع بها على الباحثين .

بقي ان نقول ان عناوين المؤلفات التي كتبها جرجي زيدان قد تخلصت جملة من السجع الشيل الذى كان ظاهرا فى مؤلفات القرن التاسع عشر وما قبله من قرون . وقد كان على مبارك باشا من السابقين الى هذا التجديد والتخلص من سجع العناوين مع أنه توفي سنة ١٨٩٣ أي قبل خاتم القرن التاسع عشر بسبعين سنين ، وإن كان الشيخ رفاعة الطهطاوى المتوفى سنة ١٨٧٣ لم يخلص من الأسجاع فى عناوين مؤلفاته ، كتاب « م الواقع الأفلاك » ، في أخبار تليماش « ، و « قلائد المفاخر » ، في غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، بل نجد أمين فكرى « باشا » المتوفى ١٨٩٩ يؤلف كتابا فى رحلته الى أوروبا عنوانه : « ارشاد الألبى ، الى محسن اوربا » ، ولعل أمين فكرى قد أبقى هنا على العنوان المسجوع الذى وضعه والده عبد الله فكرى

---

(١) أشار زيدان الى نيته في عمل هذا الفهرس في مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب ، وأنجزه بالفعل بعد ذلك .

للكتاب ، فلما مات الوالد ، أكمل ابنه الرحلة ، ولم يغير من عنوان الكتاب شيئاً ٠٠٠ ، بل أبقاء على سجنه ٠

ولا ترك هذا الفصل الذى جلونا به زيدان المؤلف دون أن نختمه باشارة الى موقفه الصحيح ومكانه الحقيقى فى التأليف ٠  
أكان زيدان باحثاً أصيلاً مبتكرًا ، أم كان محاكيًا مقلداً؟ ويتهمه المستشرق كراتشковسكي بـأنه (لم يكن بالباحث المبتكر) (١) ٠  
وهي تهمة كبيرة يعوزها شئ من الانصاف والتوضيح ٠ فإذا كان كراتشковسكي يعني أن زيدان قلد المستشرقين في طريقة التاريخ للأدب العربي ، وفي طريقة التأليف عن حضارة العرب والاسلام ، وأفاد من مصنفاتهم التي كانت مطبوعة في عهده ، كما أفاد من مناهجهم وطرق بحثهم فإن ذلك حق لا ريب فيه ٠ ولكن زيدان كان يضفي على ما ينقله ويضيف إليه اضافات جديدة لم يفطن لها الغربيون ٠ ويكتفى أن محرر مادة « زيدان » في دائرة المعارف الإسلامية - وهو كراتشковسكي نفسه - يقرر أن زيدان أضاف إلى ما أخذه عن الأوربيين في كتابه « تاريخ التمدن الإسلامي »  
كثيراً من المعلومات التي استقاها من المصادر العربية ، وأكمله بما يعرفه عن الحياة الحديثة في الشرق ٠ فزيدان قد قلد المستشرقين وجاراهم ولكنه وسع نطاق مباحثه ومواضيعاته ، وتفتحت أمامه مسائل للبحث لم يتناولها غيره من سلك طرائقهم ٠

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

ولا يعاب زيدان بأنه حاكم أساليب الأوربيين في تاريخ الأدب العربي ، وفي تاريخ التمدن الإسلامي ، وفي رواياته التاريخية ، فإن ملابسات عصره وظروف زمانه في العقددين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، وفي العقد الأول من القرن العشرين كانت تقتضي التقليد والأخذ عن السابقين في ميادين الأدب والتاريخ والقصة ، بل في ميادين كثيرة من الحياة يومئذ فلو لم يظهر زيدان لظهور غيره . ويكفيه أنه ارتد الطريق لن جاءوا بعده . وريادته في هذا البلد تشبه من وجوه كثيرة ريادة الدكتور يعقوب صروف في علوم الطبيعتيات والفلسفة . فكل منهما أمام في هذا الميدان وسابق فيه

## المؤرخ ومنهجه التاريخي

كان جرجى زيدان مؤمنا بقيمة علم التاريخ وأهميته ومكانته بين سائر العلوم . وقد عبر عن تقديره الصحيح للتاريخ فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » حيث يقول انه عارف بما يترتب عليه من اصلاح الشئون ، وأنه أكثر ارتباطا بمصالح خاصة الناس منه بعامتهم ، وأن أكثر الناس حاجة اليه هم قادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين . ومن هنا نشأت ظاهرة ايعاز ولاة الأمور في الأمة العربية الى علمائها أن يضعوا في التاريخ كتابا . بل لاحظ زيدان أن عددا غير قليل من حكام العرب والمسلمين قد شاركوا في تأليف التاريخ ، غير مبالين بما يتطلبه ذلك من عناء الجماع ، وطول البحث . ولم يكتب زيدان التاريخ بلا منهج مرسوم ولا خطة محددة . وإنما كتبه عن طول ممارسة واطلاع على مناهج الغربيين ومؤلفاتهم

في هذا الباب . فأفاد منها كثيراً . وباعد قدر الامكان ما بينه وبين طرق قدماء المؤرخين العرب ، فهى طرائق لم تكن متماشية مع التطور العلمي والتقدم الحضارى الحديث .

ولقد تناول جرجى زيدان فى مجاله التاريخى نواحى متعددة من تاريخ العرب والاسلام ، فكتب فى تاريخ الحضارة الاسلامية كتابا ضخما هو « تاريخ التمدن الاسلامى » ، وكتب فى التاريخ للأدب العربى كتابه المشهور بين رجال الأدب ، وكتب فى التاريخ العام من القديم الى الحديث ، وكتب فى تاريخ مصر من أقدم الأزمنة الى وقته كتابا مشهورا .

والحق أن كتابه في التمدن الاسلامي كان شيئاً جديداً ، فما ألف الناس عندنا أن يقرعوا في الحضارة الاسلامية أو يصادفوا من كتبوا عنها . فان مظاهر التمدن والحضارة العربية لم تكن منشورة في كتاب مستقل منذ دون العرب التاريخ ، ولكنها كانت أخباراً وطرائف بعشرة هنا وهناك في كتب التاريخ العام ، والطبقات ، والأدب ، والخرج ، والحسبة ، والمحاضرات ، والنواادر ، وغيرها . فاتجه زيدان إلى التأليف في هذا الموضوع الجديد الطريف ، وأخذ يجمع أشتابه ، ويلم مادته من كل كتاب أو مصدر يقع له . وما أصدق الدكتور حسين مؤنس وهو يقول في مقدمة الطبعة الأخيرة لكتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » : ( وقد تهيب جرجى زيدان التاريخ للحضارة الاسلامية ، ووصف شعوره هذا في مقدمة

الطبعة الأولى للجزء الأول من تاريخ التمدن الإسلامي . وكان مصحقاً في ذلك التهيب ، فإن الميدان كان مجهولاً على أيامه ، بل كان فن التاريخ للحضارات جملة فناً جديداً في طور التكوين في العالم كله اذ ذاك ) .

وانصافاً للحق وتجليه للموضوع نقول ان كتاب التمدن الاسلامي لزیدان قد صدر في أولى طبعاته سنة ١٩٠٢ أي في القرن العشرين ، وقد شهد القرن التاسع عشر عدة كتب لمستشرقين أجانب ألفت في الموضوع نفسه . فان جوستاف لوبيون كان قد أصدر كتابه « حضارة العرب » في سنة ١٨٨٤ ، أي قبل كتاب زیدان بثمانية عشر عاماً ، كما ظهرت كتب في الموضوع نفسه للمؤرخ سيديو ، وفون كريمر ، وجولد تسيير . والحق أن كتاب سيديو كان قد ترجم إلى العربية مختصرًا باشراف على باشا مبارك ، ثم أعاد الأستاذ عادل زعيتر ترجمته من سنوات . وقد سجل كراتشوفسكي في ترجمته لزیدان اعتماده على المصنفات الأولية المشهورة للثلاثة الذين أشرنا إليهم ، وإن كان لم يسر إلى أفادته من جوستاف لوبيون . ويشير المرحوم الدكتور جمال الدين الشيالي إلى جرجي زیدان حين نظمه في سلك مؤرخي القرن التاسع عشر المصريين الذين تأثروا بالمنهج العلمي الحديث الذي لاحظوه فيما قرأوا أو درسوا أو ترجموا من كتب التاريخ الأولية .

وقد جاء اهتمام زیدان بتاريخ الحضارة الإسلامية نتيجة ايمانه

بأن تاريخ الأمة الحقيقى إنما هو تاريخ تمدنها وحضارتها لا تاريخ حروبها وفتوحها ، كما يقول فى مقدمة كتابه ٠ وجاء اهتمامه بتاريخ الاسلام - على وعورته ومشقته - نتيجة لاعتقاده بأنه من أهم التواريχ العامة ( لأنه يتضمن تاريخ العالم المتمدن فى العصور الوسطى ، أو هو حلقة موصولة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ) فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه أشرق التمدن الحديث ) (١) ٠

ولم يكتفى زيدان باهتماماته الكثيرة بالتاريخ العام والتاريخ الحضارى الاسلامى ، ولكنه اتجه الى التاريخ القومى للبلاد منذ اختيار مصر وطنه بعد وطنه الأول لبنان . ويقرر لنا الرجل في لهجة الأسف والاستغراب أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتبر بوضع تاريخ مستوف لها على أسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين ، مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموما ، وسائر الدول المعاصرة ٠ كما أبدى صاحبنا استغرابه من أنه لم ير بين مدارس القطر المصرى مدرسة واحدة تعنى بهذا التاريخ الذى هو تاريخ بلادها (٢) ٠

ومن مناهج زيدان فى تأليفه التاريخى ما ذكره هو بنفسه - ولم نستطعه - فى مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » ٠

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٢ طبعة أخيرة ..

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ .

فهو يقرر أنه نظر إلى المادة التاريخية نظر الناقد ، فلم يذكر حادثة إلا أنسندها إلى عللها وأسبابها ، وبين ما تنج عنها ، وذكر علاقتها بما بعدها .

وكان يجمع النصوص المختلفة الواردة في موضوع واحد مما تتواء وكثرت مواردتها ، ثم يسلط عليها ذهنه كما يقول المرحوم أحمد أمين ، ويربط ما بين بعضها بعضا ، ويستخرج من ذلك كله صورة كاملة أو حكما عاما (١) .

ولما كانت الروايات حول الموضوع الواحد تختلف بحسب أهواء رواتها وميلهم وبلغتهم من صدق الرواية وكذبها ، فإنه إلى على نفسه أن يعتمد على أصح الروايات ، وأصدق الكتاب من ثقان الرجال في المشرق والمغارب (٢) ، وأن يعرض ذلك كله ويطبقه على أحكام العقل ، فما أجازه العقل أخذه ، وما لم يقبله العقل رفضه .

ولم يعزل زيدان شيئاً من الحاضر عن الماضي في مناولاته التاريخية ، فإنه كان حريصاً دائماً على أن يربط بين القديم وال الحديث . وقد صنع هذا في كتابه « تاريخ مصر الحديث » فإنه رأى أن لا تتم الفائدة من الكتاب إلا إذا جعل في مقدمته له ملخص

(١) الكتاب الذهبي للبلال سنة ١٩٤٢ .

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ .

تاریخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها بعض ٠ وكذلك فعل في تاریخ التمدن ، فأنه في الموضع الذي تحدث فيه عن رواتب الحلفاء والعمال والوزراء في العصور الإسلامية المتعاقبة لم يفته أن يتحدث عن رواتب الأسرة المالكة في إنجلترا ، ورواتب الأسرة الخديوية في مصر ، على سبيل المقارنة والربط ما بين الحاضر والماضي ٠

ولم يكتف زيدان في التاریخ بالسماع والقراءة في الكتب والنقل عنها ، ولكنه اتّخذ منهج « المعاينة » ، وخاصة حين يتحدث عن الآثار والمشاهد ٠ فهو يراها بعينه ، ويتكلّف في الوصول إليها وقتاً ومالاً وسفراً ومخاطرة ، حتى تكون صفتة لها صفة الأمين ٠ وتنقل من عبارته في ذلك قوله (١) : ( وقد عنيت - اتماماً لمعدات التأليف - بتفقد الآثار العربية بنفسى ٠٠٠ فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديماً كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايتباي ، وجامع الغوري وغيرهما وزرت ما هنالك من البناءات القديمة كالقلعة وما جرى مجريها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ٠٠ ) ٠

وزيدان في هذا المنهج لا يزيد على ما فعله الجاحظ ، وما أوصى به مؤرخنا ابن خلدون من المشاهدة والمعاينة بالنظر وعدم

---

(١) تاریخ مصر الحديث ص ٤ - ٥ ٠

الاكتفاء بالسماع ، والنقل ، فإن ذلك مدخل للتهويل والتشويه وعدم الضبط . ويشير ألياس زخورة إلى ما صنعه زيدان في هذا الباب فيقول : ( وتفقد بنفسه كل الآثار المصرية - على ما في ذلك من المشاق - ليكون وصفه لها مطابقاً للواقع ) (١)

والحق أن من يتصدى لكتابه التاريخ يتعرض لكثير من المعاناة والمشقة ، سواء أكان باحثاً ومنقباً في المصادر والمراجع ، أم معايناً للآثار والشاهد بعينيه . وقد عانى المؤرخ الإسلامي المشهور رفيق العظم - صاحب « أشهر مشاهير الإسلام » - مثل الذي عاناه جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب والإسلام ، فكتب كلمة يصف فيها طريقة زيدان وفضله على الحضارة العربية قائلاً ( انتي عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون ) ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه إلا من عانى ما عانيت من المشقة في اتقاد الحوادث والأخبار ، فلم أر أحسن من الأسلوب الذي اتبعه في كتبه المرحوم جرجي زيدان ، ولا أدق ترتيباً للمواضيع واختياراً للمحوادث ، خصوصاً فيما يتعلق بالمدنية الإسلامية ، فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجي زيدان على التاريخ العربي بيان ما لم يسبق إليه من آثار المدنية العربية وتاريخها ) (٢) .

وقد أدرك جرجي زيدان قيمة الرسوم والصور في المؤلفات

(١) مرآة العصر ص ٤٦١ .

(٢) مجلة الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ ، والكتاب « الذهبي للهلال سنة ١٩٤٢ » .

ال الحديثة ، فكان بحق من أوائل المؤلفين المعاصرين الذين اهتموا  
باستغلال ذلك في مؤلفاتهم . ولسنا هنا بسييل التاريخ لادخال  
الصور والرسوم في طباعة الكتاب العربي ، فليس هنا موضعه ،  
ولكن الذي نريد أن نقرره أن زيدان قد توسع في الجمع بين الصن  
وبين الصورة أو الرسم الذي يوضحه أو يمثله . وقد امتلأت كتبه  
 بهذه الصور واحتشدت احتشادا يلفت نظر المطالع لأول وهلة .  
 ففي « تاريخ مصر الحديث » مثلا نرى صورا كثيرة للفراعنة ،  
 والتقويد الإسلامية بوجهها ، وأبراج الحصار عند العرب ، والمنجنيقات  
 لرمي النبال ، بل نرى صورا ورسوما لصلاح الدين الأيوبي ،  
 وسليمان القانوني ، ووالى مصر التركى في موكيه بالقرن العاشر  
 الهجرى . وقد اعترف زيدان في مقدمة كتابه هذا بأنه زينه بنيف  
 وما تين من الصور والرسوم . وهو عدد هائل في كتاب كهذا .  
 ولما كانت الخرائط في كتب التاريخ لا تقل أهمية عن الصور  
 والرسوم فقد حرص زيدان على أن يزود بها دائما مؤلفاته  
 التاريخية . ففي « تاريخ مصر الحديث » أربع خرائط للقاهرة في  
 عصره ، ولمصر السفلی ، ومصر العليا ، والرابعة خارطة لمصر قبل  
 الفتح الإسلامي .

ولما كان زيدان معاصرًا للأعقاب العربية ، فقد دخل  
 الاسكندرية سنة ١٨٣٣ وأثار الاحتلال الانجليزي فيها شاهدة ،  
 كما كان مشاركا في الحملة الانجليزية على السودان بطريق النيل ،  
 فإنه قد أسهم في تدوين الحوادث بأمانة وبعد عن التحيز ، وحرصن

شديد . والحق أن ظروف ذلك العهد كانت تقضى من المؤرخ  
المندر إلى حد بعيد . وعلى الرغم مما ألم به زيدان نفسه من الدقة  
والضبط والحياء المطلقة في كتابة التاريخ فإنه لم يسلم من النقد  
والاتهام بالبعد عن صفات المؤرخ . فقد قال عنه الدكتور محمد  
حسين هيكل في « الجريدة » سنة ١٩١٢ : ( ٠٠٠ ) زيدان كان  
أخرى الناس - على سعة معارفه التاريخية - بأن يخطئ هذه  
الطريقة ، ويرمى لهذا الغرض . وأول المطلوب من المؤرخ الذي  
يرمى لهذا الغرض أن يتحرى في التاريخ الذي يكتب كل دقة  
وجليلة ، وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط . وقد رأينا أن صاحب  
تاريخ آداب العرب لم يقم بذلك على الوجه الأكمل ( ١ ) كما اتهمه  
مرة أخرى بأنه ( لم يدخل إلى روح العرب لكي يستطيع أن ينشرها  
أمام نظره ويفتش فيها ويعرف دقائقها ) ( ٢ )

ويخيل إلى أن الدكتور هيكل كان متاثراً في هذا النقد  
بالحملات العنيفة التي شنها المصلح الهندي الشيخ شبل النعmani ،  
وشنها خصوم زيدان من المحافظين ليحولوا بينه وبين التدريس في  
الجامعة المصرية القديمة . ٠٠٠

بقيت لنا كلمة حول زيدان المؤرخ وزيدان الأديب . وهو  
موضوع يثير كثيراً من التساؤل ، فقد ألف زيدان في تاريخ الأدب  
العربي ، وألف في القصص التاريخي ، وألف في التاريخ ، فهل

( ١ ) في أوقات الفراغ لـ محمد حسين هيكل ص ٢٣١ .

( ٢ ) المصدر نفسه ص ٢٣٢ .

نعده مؤرخاً أم أدبياً؟ وترك زيدان الروائي لأنه يتارجح بين الجبهتين : ومن الطريف أن تختلف النظرة إلى زيدان بين الأدب والتاريخ . فالأستاذ نسيم نصر ينشر في مجلة الأديب عدد ١٢ سنة ١٩٥٠ بحثاً طريفاً يؤكّد فيه وفي عنوانه أن جرجي زيدان كان أدبياً في الغالب ، وإنّ عد من المؤرخين . ولكننا نجد الأستاذ أنيس المقدسي يقرر في معرض دراسته للرواية العربية أن زيدان مؤرخ أكثر منه صاحب فن (١) . على حين يقرر الدكتور حسين مؤنس أن اهتمامات جرجي زيدان الأولى كانت بالأدب أولاً ثم جاء التاريخ بعد ذلك شيئاً فشيئاً . ومن هنا جاء التحول عند زيدان من الأدب إلى التاريخ (٢) .

والذى نميل إليه أن زيدان لم يكن أدبياً خالقاً من أصحاب الفن الأدبي ، وليس من أصحاب الأساليب الأدبية المميزة ، كما كان مصطفى المنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، ومصطفى صادق الرافعى وأضرابهم ، ولم يكن في القصة صاحب فن قصصي بقدر ما هو مؤرخ يعتمد على القصة ليشرّف بين العامة معارفه التاريخية . ولكنه كان باحثاً أدبياً ومؤرخاً للأدب العربي ورائداً في تاريخ الأداب العربية ، وحسبه في ذلك المجال أنه كان سابقاً ، وأنه أتى فيه بما لا ينكر فضله على مر العصور .

(١) الفنون الأدبية وأعلامها . ص ٥١٦ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي . الطبعة الأخيرة . ج ١ ص ٧ .

## كاتب التراجم

ان فصلا عن جرجى زيدان المؤرخ لا بد أن يعقبه فصل عن جرجى زيدان كاتب التراجم . فان كتابه « تراجم مشاهير الشرق » يعد من المراجع الهامة التى يستأنس بها اليوم كل باحث وأديب حين يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق والغرب فى القرن الناسع عشر .

والحق أن أعلام الشرق فى هذا الكتاب ليسوا من الكثرة والأهمية بحيث يشاركون فى أهمية هذا الكتاب . فهم معذوبون على أصابع اليد ، ومنهم ناصر الدين شاه ايران ، وعبد الرحمن أمير الأفغان ، ومنيليك ملك الحبشة ، وتسى هسى إمبراطورة الصين ، وعلى بن حمود سلطان زنجبار ، ولی هونغ تشانغ ، والمركيز أيتا اليابانى ، وقد وضعهم على أنهم يمثلون الملوك والأمراء ورجال

الأدارة والسياسة في الشرق في القرن التاسع عشر ، أما بقية الأعلام في هذا الكتاب الجليل فهم مصريون وعرب يختلفون بين رجال الأعمال ، وأهل الاصلاح ، ورجال السياسة والإدارة ، وأركان النهضة العلمية ، والمنشئين وكتاب الجرائد ، وسائر رجال العلم والأدب ، والشعراء .

ولم تك تفلت شخصية عربية من شخصيات القرن الماضي إلا ترجم لها زيدان على طريقته التي سيأتي وصفها . وقد راعى بالطبع أهل الشهرة ونباهة الذكر من ترجم لهم ، والا فان ذلك القرن كان مملاً بشخصيات كثيرة أخرى لم يوجد لها مؤرخنا محلًا في كتابه . ولن نسأل جرجي زيدان : لم اخترت من الرجال هذا ، وأبعدت ذاك ؟ فللمؤلف في هذا الميدان حججه وعذرها وأسبابه الوجيهة . فقد ترجم الأستاذ يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه « مصادر الدراسة الأدبية » لعشرات من الأعلام الراحلين حتى سنة ١٩٥٥ ، ولكنه ترك عشرات آخرين لم يتم ترجم لهم ، وجعل بأسمائهم ثبتا في ذيل الكتاب واعتذر من اسقاط ترجماتهم ( بعد أن تضخم حجم الكتاب ) .

وكتاب زيدان في الترجم يعد من كتب الترجم العامة التي يجمع فيها المؤلف بين أعمال تختلف طبقاتها ، فهو ليس ترجم للشعراء وحدهم كما في طبقات الشعراء ، وليس ترجم للصحافيين وحدهم كما في طبقات رجال الصحافة ، وليس ترجم للأدباء

وخدمهم كما في طبقات الأدباء ، ولكنه جمع من رجال القرن الذي يترجم لرجاله المشهورين مجموعة تتفق في الشهرة ، والمنفعة العامة ، وتختلف في الفن الذي تمثله .

وتراجم جرجي زيدان مثل بقية كتبه ، نشرت على هيئة فصول في مجلة الهلال ، ففي كل عدد شخصية يترجم لها ويقدم لقراء الهلال سيرتها وحياتها ، ثم يجمع هذه الفصول في نهاية الأمر في كتاب مستقل ، كما فعل في تاريخ التمدن الإسلامي ، وأداب اللغة العربية وغيرها . وكان الناس من قراء الهلال يتقبلون هذه الترجم بقبول حسن ، ويقبلون على قراءتها في شوق وتلهف . واقتراح عليه ليفي من القراء أن يؤلف من تلك الترجم وأمثالها كتاباً على حدة ، مع ما تقتضيه من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع عليها والاعتبار بها (١) .

وقد قصد زيدان من ترجماته لطائفة من رجال الشرق غير العرب أن يكون الشرق كله ممثلاً في كتابه ، وأن يعرض من مظاهر السلوك والعمل عند هؤلاء الذين لا يعنينا تاريخهم - بعدهم عنا - ما يكون فيه أحسن الأمثلة والنماذج على النجاح في الحياة . ولعله كان هنا - بوحى خفى - متأثراً بقراءته في كتاب « سر النجاح » الذي كان من كتب مطالعاته الأولى ، فقد كان فيه ترجم لرجال من الغرب والشرق نجحوا في الحياة بعد ما كابدوه من

(١) كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » المقدمة ، ص ج .

عناء ٠٠٠ ويبدو لنا تشبّهه بأسرار النجاح فيما كتبه مثلاً عن سليم صيدناوى ، فقد عقد بحثاً لشروط النجاح ، وأساس النجاح في خلال الترجمة ٠

وقد توسع زيدان في المراد من لفظة «الشرق» ، فلم يقتصر على رجال الشرق العربي ، وهم الذين يهتم بهم قراء الكتاب من العرب ، ولكنه مضى وأوغل في الشرق حتى بلغ الشرق الأقصى ، فترجم جماعة من الذين وصلت اليانا شهرتهم من رجال ايران ، والهند ، والصين ، واليابان ٠

وجرى زيدان في الترجمة للمشاهير على شأنه المعروف من التحرى والضبط ، ولم يكتف بالنقل والسماع في الترجمة للأموات ، ولكنه في الترجمة للأحياء من معاصريه اعتمد على المعاينة والخبرة والمعروفة الشخصية ، وندعه يقول في هذا بعبارته : ( وقد بذلك الجهد في تحري أعمال هؤلاء المشاهير ومناقبهم من أوثق المصادر ، وأصدق الروايات ، مع ما خبرناه بذاته من عاصرناهم وعرفناهم ) (١) ٠

وتميز ترجم زيدان بأنه يذكر في صدر كل ترجمة تاريخ ميلاد المترجم له ، وتاريخ وفاته ٠ ولم يكدر يدخل بهذه القاعدة إلا حين يترجم لواحد من الأحياء ، كما فعل في ترجمته للخدیو عباس الثاني ، أو حين لا يصل إلى علمه تاريخ ميلاد المترجم له ، كما فعل

---

(١) ترجم مشاهير الشرق ج ٢ ص ١ من المقدمة ٠

فى ترجمته للمعلم جرجس الجوهري الذى كان كبيراً للمباشرين  
فى عهد محمد على ، والمعلم غالى الذى كان كبير الكتاب فى عهد  
محمد على ، والشيخ أمين الجندي الحمصى أشهر شعراء الغناء فى  
٠٠٠ سورية

ولم يكن لزيدان طريقة موحدة فى كتابة تواریخ المواليد  
والوفيات للرجال ، فتارة يكتبها بالتاریخ الهجري وحده مولداً  
وفاة ، كما فى ترجمته لأحمد عرابى ، وجواد باشا ، والسيد  
جمال الدين الأفغاني ، والسيد عبد الله النديم . وتارة يكتبها  
التاریخ الميلادي وحده مولداً ووفاة ، كما فى تراجمه لأمين شمیل ،  
وأمين باشا فكري ، والشيخ خليل اليازجي ، ووالده الشيخ ناصيف  
اليازجي ، وبطرس البستانى الموسوعى الشهير . وثالثة يجمع بين  
التاریخين الهجرى والميلادى - وأكثر ما يكون ذلك فى سنة الوفاة  
- كما فى ترجمته للشيخ محمد العباسى المهدى ، فقد ذكر تاریخ  
وفاته سنة ١٣١٥ هـ ( ١٨٩٧ ) ، وكما فى ترجمته لعبد الباقى  
العمرى شاعر العراق ، فقد ذكر تاریخ وفاته بالهجرى سنة ١٢٧٨  
ووضع بجانبه التاریخ الميلادى المقابل ل سنة ١٨٦٢ م .

وكان زيدان مترجم الرجال حريصاً على ايراد مؤلفات  
المترجم لهم - ان كانوا من أصحاب المؤلفات - بعد ايراد سيرة  
حياتهم . ونجد ذلك فى كل تراجمه لرجال النهضة العربية  
بلا استثناء . واذا كان ثبت هذه المؤلفات ليس جاماً ، فإنه على كل

حل يمدنا بحصيلة كبيرة من مؤلفات من نواد الحصول على ترجمتهم • والكتاب من هذه الناحية مصدر لا بأس به لمعرفة تأليف أعمال العرب في القرن الماضي • وان كان لا يمدنا بمؤلفات من يترجم لهم بأكملها • ونلاحظ هذا - مثلا - في ترجمة للشيخ يوسف الأسير، فقد ذكر من كتبه : «رائض الفرائض» في الفقه ، و «شرح أطواق الذهب » ٠٠٠ للزمخشرى ، ولم يزد عليهما كتابا ، مع أن مؤلفات الأسير تبلغ ثمانية ، كما أثبتها يوسف داغر في « مصادر الدراسة الأدبية » (١) •

وإذا كان المترجم له شاعرا فان زيدان لا يكتفى بالاشارة إلى شاعريته ومكانته من الشعر ، ولكنـه يتبع ذلك بايراد نماذج المختلفة من شعره ، كما في ترجمـه للشيخ ناصيف اليازجي ، وأحمد فارس الشدياق ، والمعلم بطرس كرامـة ، وعبد الباقـي العـمرـى ، وعـمر الأـنسـى ، والـشـيخ خـليل اليـازـجي ، وـعبد الله فـكري ، وأـديـب اـسـحـاق • وقد يورد نماذج من التـشـرـ على نـدرـةـ في هـذـاـ المـجاـلـ •

وتخـلـفـ تـرـاجـمـ زـيدـانـ لـلـرـجـالـ بـيـنـ الـايـجازـ وـالتـوـسـطـ وـالـاطـالـةـ وـفقـ تقـديرـهـ لأـهمـيـةـ منـ يـتـرـاجـمـ لـهـمـ ، أوـ طـبقـاـ لـسـهـولـةـ المـصـادـرـ عـنـهـمـ ، أوـ لـاعتـبارـاتـ أـخـرىـ قـدـ يـرـاهـاـ الرـجـلـ • فـقدـ بلـغـتـ

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ج ٢ ص ١٢٤

ترجمته تلحت باشا الملقب بأبى الأحرار خمساً وثلاثين صفحة ،  
ومصطفى كامل باشا ستة وعشرين صفحة ، والشيخ محمد عبد  
عشر صفحات ، ولأديب اسحاق سبع صفحات ، ولأمين باشا فكرى  
صفحتين .

والترجم فى كتاب « مشاهير الشرق » لزيدان كلها بقلمه ،  
الا ترجمة واحدة لأحمد عرابى بقلم عرابى نفسه وبخط يده .  
ويظهر أن الزعيم المصرى رأى أن يكتب لنفسه ترجمة خشية أن  
تدهىء فيه آراء المترجمين كل مذهب . فبعث إلى زيدان بترجمة  
شخصية لحياته . فلما جمع زيدان مواد كتابه « ترجم مشاهير  
الشرق » آثر - كما يقول - نشر هذه الترجمة دون سواها (١) .

ولم نلاحظ على زيدان فى ترجمته شططاً فى الرأى ، أو  
جوراً فى الحكم ، أو تطاولاً باللسان . فلم يذكر أحداً بمثلية ،  
ولا حاول أن يشير ولو اشارة خفية إلى عيب من عيوب من يترجم  
له . ويدركنا في هذا بالمرحوم أحمد تيمور في كتابه (٢) للترجم ،  
وكان زيدان لا يظهر من جوانب المترجم لهم إلا الوجه المضيء  
المشرق ، فإذا انتقد انتقد بحسن نية وعن اقتناع بالرأى ، ولكن في

(١) ترجم مشاهير الشرق ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) مما كتاب « أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث » وكتاب  
« ترجم أعيان القرن الثالث عشر » . وقد كتبنا مقدمة تحليلية في صدر  
الكتاب الأول .

عفة ونزاهة و موضوعية تامة ، كنقدہ - مثلا - للزعيم مصطفى كامل الذي يقول فيه : (والذى نراه فى الفقید - رحمة الله - أنه كان متطرفا فى آرائه يعادى من ينتقدھا أو يخالفھا فيها . واذا حمل على خصمھ بالغ فى الفض من فضلھ ، وقد ينکر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس ) (١) . وانتقاد زيدان للزعيم مصطفى كامل فى تطرفه هو نتيجة لما كان يؤمن به زيدان نفسه من سياسة الاعتدال حل المسألة المصرية . فهو معتدل هنا ، كما كان معادلا فى حركة الاصلاح العثماني . على أن اتهام مصطفى كامل بالتطرف لا يضره ولا ينقص من قدره خردلة ، بل يزيده رفعه وتقديرها ، وما أكثر ما ينطق على زعيمنا الراحل هذا البيت من الشعر القديم :

ان كان رفضا حب آل محمد

فليشهد القلان أني راضى ؟

على أن نقد زيدان لمصطفى كامل فى تطرفه الوطنى لم يمنع مؤرخنا المنصف من أن يقول فيه وفي سلوكه هذا القول الآتى : ( وكان رحمة الله نزيره النفس ، عفيف الازار ، صادق اللهجة ، طاهر الجيب ، لا يلذ له من أحوال الحياة غير التفكير في الغاية التي وقف قواه عليها ، وهي خدمة بلاده بأشرف السبل وأنفعها ) (٢) . وكان فى زيدان ميل الى وصف أشخاص المترجم لهم وهياتهم

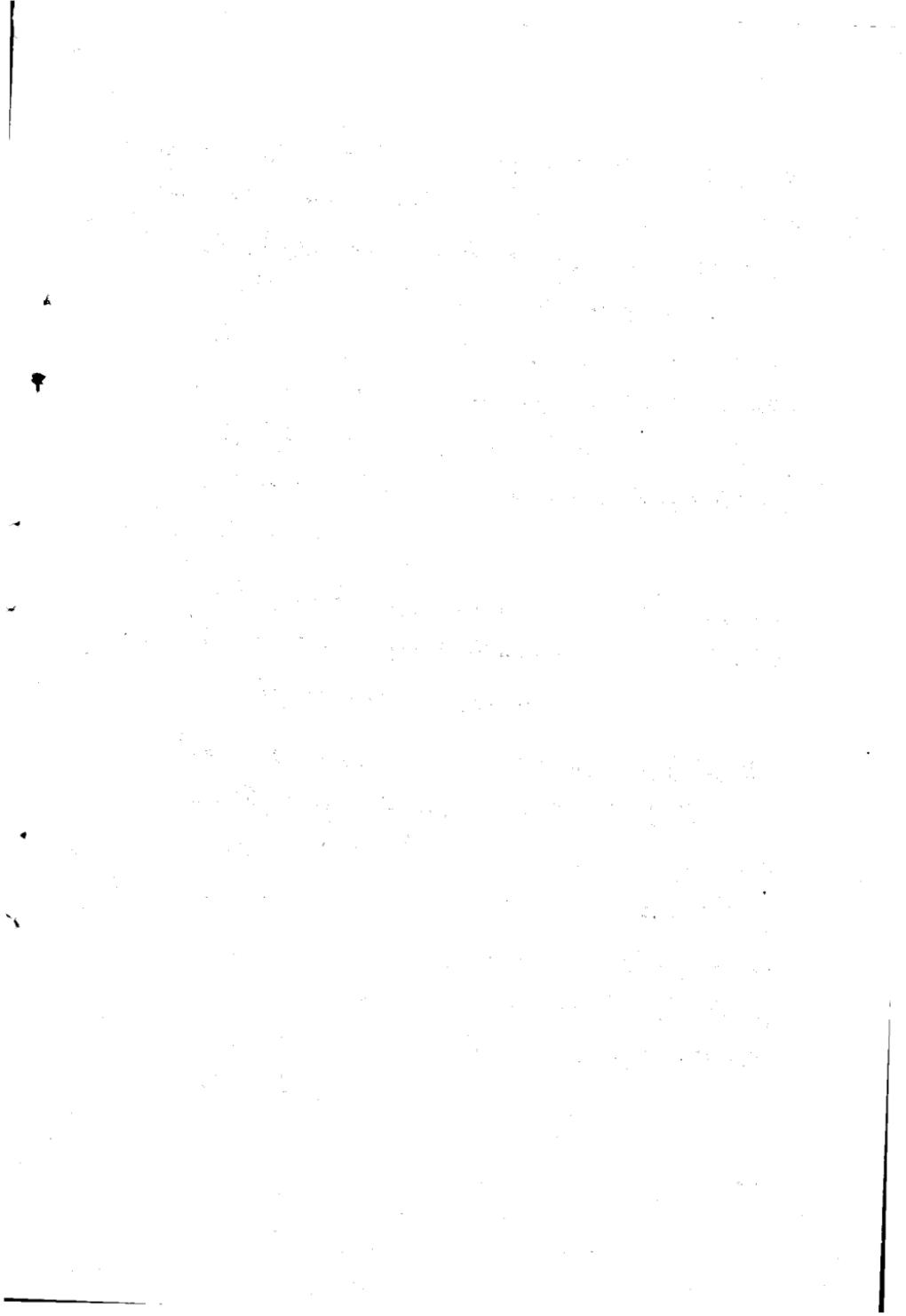
(١) ترجم مشاهير الشرق ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

وملامسهم ، فوق وصفه لصفاتهم الحلقية والعقلية والنفسية . ففي ترجمته لرفاعة الطهطاوى يقول : ( وكان - رحمه الله - قصير القامة ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمرا اللون ) . وفي ترجمته للدكتور فانديك يقول : ( كان ربع القامة ، مع ميل الى القصر ، خفيف العضل ، سريع الحركة ٠٠٠ ) وفي ترجمته للسيد جمال الدين الافغاني بصفه بأنه ( كان أسمرا اللون بما يشبه أهل الحجاز ، ربيعة ، ممتلء البنية أسود العينين ، نافذ اللحظ ، جذاب النظر مع قصر فيه ) والمقصود هنا بالقصر قصر النظر لا قصر القوم ، كما يدل عليه سياق الكلام بعد ذلك .

وهكذا ترى دقة جرجى زيدان مترجم الرجال فى وصف الملامح والسمات الشخصية و دقائق الأعضاء ، حتى ليخيل اليك أنه يقدم صورة دقيقة تامة الدقة لمن يترجم له .

وأعجب ما رأيناه فى ترجم زيدان أنه كان يذكر في غير قليل من الأعلام أماكن دفنه ، كما فعل فى ترجمته لخليل اليازجي ، والشاعر العراقي عبد الغفار الأخرس ( الذى دفن فى مقبرة الإمام الحسن البصري خارج قصبة الزبير ) ، والمفسر الكبير الشهاب الألوسى صاحب « روح المعانى » ( الذى دفن قرب والده ) ، والشيخ يوسف الأسير الذى ( دفن فى مقبرة الباشورة بيروت ) ، وإن كان لم يذكر لنا مكان دفن عبد الرحمن الكواكبى الذى ترقد جثته الآن فى مقابر الوزير بالقاهرة .



## رائد في تاريخ الأدب

يذكر جرجي زيدان في مقدمة الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » أنه أول من وضع كتاباً متكاملاً في تاريخ الأدب العربي، وأنه أول من سمي هذا العلم بتاريخ آداب اللغة العربية.

وإذا كان كتاب زيدان في الآداب العربية قد ظهر على هيئة كتاب قائم بذاته على حدة في سنة ١٩١١ ، فإن هذا لا يعني أن هذا التاريخ كان أول استعمال لعبارة تاريخ الآداب العربية ، ففي سنة ١٨٩٤ وهي السنة الثانية من تاريخ صدور مجلة الهلال كان جرجي زيدان ينشر فصولاً في مجلته تحت عنوان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهي الفصول التي وسعها من بعد ، وجعل منها كتاباً مستقلاً في أجزاءه الأربع الضخام . ومن هنا نستطيع أن نقول مع زيدان أنه كان أول واضع لهذه التسمية . ومن هنا أيضاً نستطيع

أن نقول ان كتاب جرجي زيدان يعد رائدا في التأليف في تاريخ الأدب العربي على نهج لم يسبقه فيه أحد ٠٠٠

ومن الحق أن نقول ان جهدا كريما في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب «الوسيلة الأدبية» ، فقد خطأ المرصفى خطوة - على صغرها - في ميدان التاريخ للأدب العربى على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ، ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا يجوز اغفالها في هذا المقام .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه في دار العلوم ، المرحوم حسن توفيق العدل ، الذي تخرج في الدار سنة ١٨٨٧ ، أي قبل وفاة أستاده المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات ، فتبوء إلى ما في التاريخ للأدب العربي حسب العصور من مزية ، وأكده هذا المعنى في نفسه ما أتيح له من اختياره عضوا في بعثة دار العلوم إلى ألمانيا ، ومن اتصاله برجال الاستشراق هناك ، وخاصة «بروكلمان» الذي كان قد وضع كتابه في تاريخ الأدب العربي وفق العصور وإن كان لم يظهر مطبوعا إلا في سنة ١٨٩٨ . وصادفت هذه الطريقة هوى واعجابا عند حسن توفيق العدل ، فلما عاد من ألمانيا ليشتغل أستادا للغة العربية في معهده الذي تخرج فيه ، قدم هذه الطريقة إلى طلبه في دار العلوم على هيئة مذكرات ، وأعطتها عنوانا

هو « تاريخ آداب اللغة العربية » ٠ وقد طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦  
بمطبعة مدرسة الفنون والصناعات الخديوية (١) ٠

و جاء المرحوم محمد بك ديايـ - وهو من رجال دار العلوم  
أيضاً - فأصدر كتابه المعون « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وقد  
ظهر في جزءين سنة ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ٠ وهكذا انتهى القرن التاسع  
عشر بكتب ثلاث في تاريخ الأدب العربي حسب العصور الفها  
ثلاثة : واحد من أساتذة دار العلوم ، واثنان من أبنائهما المتخرجين  
فيها ٠

ومن هذا البيان الوجيز نستطيع أن نقر أن جرجي زيدان  
كان أول مؤسس لعلم تاريخ الآداب العربية وأول مؤلف فيه  
بطريقة منهاجية ، وأن سنة ١٨٩٤ هي السنة الفاصلة في بدء الكتابة  
في هذا الموضوع وبده تسويته ٠

ومنذ الخطوة الرائدة التي خطتها زيدان في هذا الميدان في  
القرن التاسع عشر جاء القرن العشرون ، وبدأ الاهتمام بالتأليف  
في تاريخ الأدب العربي يظهر بوضوح ٠ ففي سنة ١٩٠٨ صدر  
كتاب للشيخ محمد حسن نائل المرصفى عنوانه « أدب اللغة  
العربية » ، وقد رتبت فيه الدراسات على وفق العصور من الجاهلية  
إلى ما بعدها ٠ وفي سنة ١٩٠٩ ظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية »

---

(١) مجلة الكتاب - عدد يونيو سنة ١٩٤٧ ٠ من بحث جيد للمرحوم  
الاستاذ محمد عبد الجواد ٠

للسيدة محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبد الجماد عبد المتعال  
من رجال دار العلوم ، وفي سنة ١٩١١ ظهر كتاب « تاريخ أداب  
اللغة العربية » لجريدة زيدان في كتاب على حدة ، فكان ذلك  
تجديداً لدراسة ولعلم ظهر من قبل سنة ١٨٩٤ على يد زيدان نفسه  
وفي أعداد من مجلة الهلال .

ونرجو من هذا البيان أن تكون قد اتضحت للقاريء قضية  
« أولية » علم تاريخ الأدب العربي وأولية تسميته ، وصاحب الحق  
في هاتين القضيتين هو مؤرخنا جرجي زيدان .

وقد أبان جرجي زيدان أغراضه من هذا الكتاب وطريقه  
تأليفه . وبعد أن فصل الأغراض الستة التي وضع الكتاب من أجلها  
عاد فأجمل الغرض الرئيسي من الكتاب في قوله : ( ٠٠٠ ) أن يكون  
لهذا الكتاب فائدة عملية ، فضلاً عن الفائدة النظرية ، بحيث يسهل  
على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضع  
كل منها وقيمتها بالنسبة إلى سواه من نوعه . فهو أشبه بدائرة  
معارف ، تشمل على تاريخ قرائع الأمة العربية وعقولها وتراثها  
علمائها وأدبائها وشعرائها ومن عاصرهم أو عاملهم من كبار الرجال ،  
ووصف المؤلفات العربية على اختلاف مواضعها .

أما خطة الكتاب وتقسيم موضوعه فقد وضحها زيدان في  
مقدمة الجزء الأول ، وأبان أنه كان بين أمرتين : إما أن يقسم الكتاب  
حسب العلوم ، أو حسب الأعصر . ومعنى تقسيمه حسب العلوم

أنه يبدأ بموضوع الشعر - مثلا - فيستوفي من أول عصور الجاهلية إلى العصر الحديث في مكان واحد . ثم يأتي بموضوع كالخطابة فيستوفي الكلام فيه من أول الجاهلية إلى زماننا هذا ، ثم يأتي بموضوع كالقصيدة فيستوفي الكلام فيه من أول نشأته وحدوته في الإسلام إلى وقتنا هذا . أما القسمة حسب الأعصر فيراد بها الكلام عن العلوم والفنون والمواضيع المختلفة في عصر واحد ، والانتقال إلى العصر الزمني الذي يليه وهكذا . وقد آثر زيدان التقسيم حسب العصور ، فبدأ بالعصر الجاهلي ، فعصر الراشدين ، فالعصر الأموي ، فالعباسي ، فالمنطلي ، فالعثماني ، فالعصر الحديث . وهذا هو التقسيم الذي جرى عليه أكثر المؤرخين للأدب العربي بعد زيدان .

وبالطبع كان جرجي زيدان يسير على نهج الأوربيين والمستشرقين في تاريخ الأدب العربية ، وقد أفاد في هذا السبيل بجهود من صنعوا في هذا الباب من الغربيين ، ولم يخف الرجل علينا شيئاً من الكتب الأوربية التي استند إليها ، وعمول عليها في تأريخه للأدب العربي ، حتى يزعم للقاريء أو يوهنه بأن هذه الدراسات كانت من ثمرات فكره ، بل أعلن في الصفحات الأولى من الكتاب أسماء الكتب الفرنسية والإنجليزية والألمانية التي رجع إليها ، ونهل منها ، ومن هذه الكتب كتاب سيديو المطبوع سنة ١٨٧٧ ، وكتاب هيوار المطبوع سنة ١٩٠٢ ، وكتاب غوستاف لوبيون

المنشور ١٨٨٤ ، وكتاب نيكلسون المنشور سنة ١٩٠٨ ، وكتاب هامر برجستال المنشور سنة ١٨٥٦ ، وكتاب وستيفيلد المنشور سنة ١٨٨٢ ، وكتاب بروكلمان الذى ظهر سنة ١٨٩٨ ، سنة ١٩٠٢ ٠

وإذا كان استخدام زيدان للمصادر الأوروبية ، ولنناهج المستشرقين فى الأدب العربى وأدب الإسلام قد أفاد من ناحية ، وزوده بسائل من المعلومات والمواد والتنظيم من ناحية ثانية ، فإنه من ناحية ثالثة قد جر عليه كثيراً من نقد الناقدين ، ويكفى بأن الدكتور محمد حسين هيكل قد اتهمه بأنه ( لم يدخل إلى روح العرب لكي يستطيع أن ينشرها أمام نظره ) ، ويفتش عنها ، ويعرف دقائقها (١) ولا يعجز كاتب عن أن يدخل إلى روح العرب إلا إذا كان متأثراً بأرواح غير عربية ٠٠٠ كما أن انتقادات الأدب أنسس مارى الكرملى لهذا الكتاب فى مجلة « لغة العرب » ، وانتقادات الأدب لويس شيخو اليسوعى له فى مجلة « المشرق » كانت تنصب على هذه الناحية (٢) ، بالإضافة إلى غيرها من التواхи المتعددة ٠

ونستطيع أن نقول إن كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » لجرجى زيدان هو نوع من تاريخ الأدب العربى حسب الموضوعات لا حسب العصور . وإن كانت الموضوعات هنا ليست موضوعات أدبية تتصل بالشعر والنشر والخطابة والكتابة والتأليف والثقافة

(١) في أوقات الفراغ . ص ٢٣٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة زيدان ص ٧ .

وما إليها ، ولكنها مسائل تتصل بالحضارة والتمدن . وهي مسائل موضوعات متعددة . وكان النهج الذي اتبعه زيدان في الكتابين واحدا ، وان كان المرحوم أحمد أمين يرى أن الكتابة في تاريخ الآداب العربية أشق وأعقد ( لأنه يتطلب احاطة تامة ، وعلمًا واسعا بما في خزائن الكتب في الأقاليم المختلفة شرقية وغربية ) ، ويسعى بعه هذا العمل - يعني التاريخ للأدب العربي - من يعلم أن الأمم الإسلامية في عصورها المختلفة من أكثر الأمم انتاجا للعلماء والأباء والشعراء . وعلماؤها وأدباؤها أكثر من الناس تأليفا وانتاجا ، فالتعريف بهم وبآثارهم فوق طاقات الجماعات بله الأفراد ) (١) .

بقى أن نقول إن هذا النهج الجديد في تاريخ الآداب العربية، الذي ارتاده زيدان لأول مرة مقتفياً أثر جماعة من علماء الاستشراق، قد سار عليه بعده في القرن العشرين جماعة من أساتذة الأدب العربي والمؤلفين والباحثين منهم الأساتذة مصطفى صادق الرافعي ، ومحمد حسن نائل المرصفى ، والمرحوم محمد عاطف (٢) وزميلاه، كما سبق القول ، والمرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى في كتابه « الوسيط في الأدب العربي وتاريخه » ، والمرحومون محمود مصطفى ، والسباعي بيومى ، ومحمد هاشم عطية ، وأحمد حسن

(١) الكتاب الذهبى للهلال .

(٢) نرجو أن يفرق بين محمد عاطف هذا ، وبين المرحوم محمد عاطف برگات الذى كان ناظراً لمدرسة القضاء الشرعى .

الزيات صاحب «الرسالة»، وأصحاب كتابي «المفصل» و«المجمل» من رجال وزارة التربية والتعليم، والأب حنا فاخورى، والدكتور شوقى ضيف . وهى جهود تلتحق العمل العظيم الذى بدأه جرجى زيدان ، وتوسّع فى الميدان طبقاً لما جد فى هذا الحقل من دراسات ٠٠٠

## زیدان والروايات التاريخية

من هنا لم يقرأ واحدة أو أكثر من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية برجى زيدان؟ إن كثيرا من كبار أدبائنا المعاصرین وكبار كتابنا وفکرینا قد قرأوا روايات زیدان كلها لم يستثنوا منها واحدة . فهذا الدكتور محمد حسين هيكل يصرح بأن قراءة هذه الروايات قد خلقت شيئاً من الألفة بينه وبين مجلة «الهلال» . وكثيرا ما كان يقرأ الملحق والفصول التي تنشر من هذه الروايات في أجزاء متباينة من الهلال ، فيجد من قراءتها سرورا ، وخاصة في أثناء الأجازات ، ويجد نفسه مدفوعا إلى قراءة هذه الروايات كاملة (١) .

ولقد استطاع زیدان أن يكتسب برواياته التاريخية جمهورا

(١) الكتاب الذهبي للهلال .

من القراء لا يحصى عددهم ، من أصحاب الثقافات ومن متوسطي الثقافة ، ومن يجدون في الروايات متعة وتسليه . واستطاع منذ ظهرت له أول رواية تاريخية أن يظفر برضى القراء ، مما شجعه على المضي في كتابة السلسلة حتى رواية « شجرة الدر » التي أخرجها قيل وفاته بشهور .

وعلى ذكر أولى روايات زيدان التاريخية نستطيع أن نقرر أنها كانت رواية « الملوك الشارد » التي ظهرت في أول طبعاتها سنة ١٨٩١ . ونلحظ هنا تنق برواية الياس زخورة (١) صاحب « مرآة العصر » وهو من أقدم مصادرنا عن الترجمة لحياة زيدان ، كما نؤكد روايته برواية صديقنا المرحوم طاهر الطناхи (٢) ، ورواية الدكتور محمد يوسف نجم الذي (٣) يقول : (أقدم زيدان على محاولته الأولى : الملوك الشارد ) . ويظهر أن خطأ مطبعياً في كتاب « تطور الرواية العربية الحديثة » للدكتور عبد المحسن طه بدر قد أوقعنا في عشوة من الأمر . ففي فهرسه الزمني للروايات العربية التي ظهرت بمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩٣٨ يذكر أن روايات « أرمانوسية المصرية » و « عذراء قريش » و « ١٧ رمضان » لرجبي زيدان قد صدرت في ١٨٨٩ م، وهو خطأً طباعي واضح بأدنى بصر ، وصوابه سنة ١٨٩٩ ولو أتنا

(١) مرآة العصر ص ٤٦٢ .

(٢) عاصيون عظماء . ص ٧٥ .

(٣) القصة في الأدب العربي الحديث ص ١٨٨ .

تابعنا هذا الخطأ وجاريناه لكن معنى هذا أن هذه الروايات الثلاث كانت سابقة في الوجود على رواية « الملوك الشارد » ، وهو ما لم يكن .

هذا تصحيح لم نجد منه بدا . وهناك تصحيح آخر نرى من الحق ألا نسكت عليه لاعتبارات الصدقة التي تربطنا بالأستاذ الكبير أئيس المقدسي ، فقد ذكر في كتابه « الفنون الأدبية وأعلامها » أن زيدان ترك للأجيال في باب الرواية - أو القصة - التاريجية احدى وعشرين (١) رواية . والصواب أنها ثلاث وعشرون .

ونجد من باب الأمانة للتاريخ أن نسجل هنا أسماء روايات زيدان التي اضطررت مؤرخو الأدب الحديث في بيانها وعددتها . فقد سجلها الأستاذ يوسف داغر عشرين رواية (٢) ، فنقص منها ثلاثة ؟ وسجلها مترجم حياة زيدان في آخر الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » اثنين وعشرين رواية ، فنقص منها واحدة . ولم يعن باحث نفسه بحصرها وضبط عددها واستكمال أسمائها . وأليكم بيانها كاملة : فتاة غسان - أرمانوسية المصرية - عذراء قريش - ١٧ رمضان - غادة كربلاء - الحجاج بن يوسف - فتح الأندلس - شارل عبد الرحمن - أبو مسلم الخراساني - العباسة أخت الرشيد - الأمين والمأمون - عروس فرغانة - أحمد

---

(١) الفنون الأدبية ص ٥٦

(٢) مصادر الدراسة الأدبية ليوسف داغر - ص ٤٤٥ .

ابن طولون - عبد الرحمن الناصر - فتاة القىروان - صلاح الدين  
ومكائد الحشاشين - سجدة الدر - الانقلاب العثماني - الملوك  
الشارد - استبداد المالك - أسير المتمهدى - محمد على - جهاد  
المجبن .

ولا شك أن روايات زيدان التاريخية كانت حدثاً جديداً في  
القرن التاسع عشر ، فهي نشر للحقائق التاريخية الإسلامية على  
سبيل الرواية تسهيلاً للمطالعة كما يقول صاحب «مرآة العصر» ،  
ما حدا بالكثيرين من مؤرخي الأدب الحديث أن يعدوا زيدان رائداً  
في هذا الميدان . وقد أوجب له الأستاذ أنيس المقدسي حقاً في أن  
يلقب باسم هذا الفن في أدبنا الحديث (١) ، كما قال عنه الدكتور  
سهيل ادريس (انه دون متساوٍ خالق الرواية التاريخية عندنا) (٢)،  
ووصفه الدكتور طه حسين بأنه ( هو الذي نقل إلى الأدب العربي  
مذهباً من مذاهب الأدب الأوروبي ، هو القصص التاريخي ) (٣) ،  
بل ذهب اثنان من رجال التاريخ عندنا هذا المذهب ، فالدكتور صالح  
أحمد العلي يقرر أن زيدان كان رائد الروايات التاريخية (٤) .  
والمرحوم الدكتور جمال الدين الشيال يؤكّد أن ( جرجي زيدان  
كان أول من كتب القصة التاريخية ) (٥) .

(١) الفنون الأدبية وأعلامها - ص ٥١٧ .

(٢) القصة في لبنان لسهيل ادريس ص ١٩ .

(٣) أعلام من الفكر والادب . ص ٨٧ .

(٤) الأدب العربي في آثار المارشين . ص ٤٤ .

(٥) التاريخ والمؤرخون في مصر . ٢٢١ .

على أتنا لو أردننا الدقة في التعبير فان (أولية) جرجي زيدان  
 و (ريادته) للرواية التاريخية يجب أن تنظر إليها نظرة أخرى .  
 نعم : لقد كان عمل زيدان في هذا المجال مما لا ينكر عظمته  
 وخصوصيته وفضله ، في ميدان كاد يكون خاليا من هذا الفن الأدبي  
 المعين . ولكن اعتزازنا وابهارنا بالدور العظيم الحصب الذي قام به  
 زيدان هنا ، لا يجوز أن نسينا حق (الأولية) لسليم البستانى ،  
 ابن العلامة بطرس البستانى ، الذي ظهرت له في هذا المجال  
 روايات تاريختان سبقتا روايات زيدان بأكثر من عشرين عاما .  
 ففي سنة ١٨٧١ ظهرت قصة « زينوبيا » لسليم البستانى ، وفي سنة  
 ١٨٧٤ تلاها ظهور روايته الثانية : « الهيم ، في فتوح الشام » .  
 ولعل أول من أنصف سليميا في هذه الحقيقة الأستاذ مارون عبود  
 الذي يقول عن الروايات التاريخية عموما : (لقد سبق إلى مثلها  
 سليم البستانى ، ولكنها لم تكن كروايات زيدان (١) فنا ) ، ثم يقول  
 عن سليم البستانى في موطن آخر : (ولعل سليميا هو أول من كتب  
 رواية تاريخية ) . كما نجد الدكتور محمد يوسف نجم يقول من  
 فصل له عن القصة التاريخية : ( وأول من حاول محاولة كبيرة في  
 كتابة هذا اللون من القصة كان سليم البستانى ) (٢) . ثم يجيء  
 عبد المحسن طه بدر بعد مارون ونجم فيقول : ( ولعل ما دفع

(١) رواد النهضة الحديثة . ص ١٧١ .

(٢) القصة في الأدب العربي الحديث . ص ١٧٥ .

جريجى زيدان الى التركيز على الرواية التاريخية يرجع الى بعض المحاولات التى سبقته فى هذا الميدان ، وأهمها محاولة سليم البستانى (١) (٠٠٠) .

وإذا كان زيدان فى تاريخ الأدب وتاريخ التمدن قد نقل عن الأوليين مناهج وطرائق فى البحث والتحليل ، والاستنتاج ، والتيسير ، والتنظيم ، فإنه فى روایاته التاريخية قد نقل فنا ، لا مناهج ، واستطاع أن يسهم فى تكوين هيكل ضخم للقصة فى الأدب العربى الحديث .

ولا بد أن نرجع الى جرجى زيدان نفسه اذا أردنا أن نعرف شيئاً من آرائه فى اياته لكتابه الرواية التاريخية ، والجمع بينها وبين دراساته الأدبية والتاريخية الجادة الرصينة . هل كان صاحبنا يهدف من وراء ذلك الى التسلية والترفية ، أم كان يهدف الى التعليم ؟ لستمع اليه وهو يقول فى مقدمة رواية الحجاج بن يوسف : ( وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته ، والاستزادة منه . وخصوصا لأننا توخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكما على الرواية ، لا هى عليه ، كما فعل بعض كتبة الأفرنج ، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية ، وإنما جاء بالحقائق التاريخية للباس الرواية ثواب

---

(١) تطور الرواية العربية الحديثة . ص ٩٣ .

الحقيقة ، فجره ذلك الى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يصل القراء . وأما نحن فالعمدة في روايتها اعلى التاريخ ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، الا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف ، مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدنا بيانا ووضوحا بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق ) .

هذا هو رأى زيدان في الرواية التاريخية ومذهبه في كتابتها ، وهو هنا يكاد يضع خطأ فاصلا بين القصة وبين التاريخ ، ويجعل للتاريخ محل الأول من الاعتبار . وأغلب الفلن أن صفة كمؤرخ قد غلت عليه وهو يكتب الرواية التاريخية ، حتى لزarah يضع في صدر الرواية من روایاته - بل وفي صفحات منها - المصادر والمراجع التي عول عليها في كتابة الرواية ، كأنه يضع مصادره ومراجعه لمبحث من مباحث التاريخ والأدب !

والذى عليه يقيني أن زيدان في روایاته لم يكن روائيا ولا هو من سليل الروائين ، ولكنه كان مؤرخا ، ومعلما لتاريخ العرب والاسلام ، أراد أن يعلم العرب تاريخهم بطريقة مشوقة جذابة ، وأن يحملهم على قراءة تاريخهم حملا بلا مشقة ولا استقال ، فعمد

إلى الرواية وهو ليس بموهوب في الفن القصصي ، ولهذا امتلأ رواياته بالتفكير وقطعيع الأوصال ، وفقدان الحبكة ، والاستطراد الممل ، ومحاولة التعليم ، وسرد الحوادث العجيبة المتتابعة دون اهتمام بالشخصيات .

ولم يكن زيدان جاهلا بالقواعد الصحيحة لكتابه الروايات عند الغربيين ، ويبدو من كلامه المتأثر هنا وهناك أنه عليم بهذه الأصول الفنية ، ولكن غرضه من تعليم التاريخ عن طريق الرواية كان أبعد وأعلى من فنية الرواية ، وخاصة أنه كان ينزع في نشر العلم والتاريخ والأدب نزعة شعبية كما سيجيء .

ومن هنا يقرر أغناطيوس كراتشكونفسكي أن روايات زيدان التاريخية ( لا ترقى كثيرا في نظر النوق الأوروبي ) ، ذلك أن أسلوب إنشائها عتيق وعاطفي بعض الشيء .

وروايات زيدان كلها تاريخية ، إلا واحدة تدخل مجال الاجتماع والعاطفة ، وهي رواية « جهاد المحبيين » ، وضعتها في آخر اثنتي الذى ذكرناه آنفا ، تميزا لها من الاثنين وعشرين رواية التاريخية . ومن رواياته التاريخية سبع عشرة رواية تتناول تاريخ العرب والإسلام حتى عصر صلاح الدين الأيوبي ، وأربع روايات تتصل بتاريخ مصر الحديث ، وواحدة تدور حول موضوع الانقلاب العثماني . أما روايته الاجتماعية الوحيدة « جهاد المحبيين »

التي ظهرت سنة ١٨٩٣ ، فيعدها بعض النقاد ( من المحاولات الناجحة في القصة الاجتماعية ) (١) ، وتدور حوارتها في سنة ١٨٨٧ ، وتجري الواقع ما بين القاهرة والاسكندرية وحلوان ، و تعالج قضايا عاطفية ، وتنما فيها الأزمات بين الحب والزواج وصفة الواقع الذي كان يعيشه المجتمع المصري في أواخر القرن التاسع عشر . ويكاد أسلوب زيدان هنا يشبه أسلوبه في رواياته التاريخية لأن الفن القصصي عنده كان في محل الشغف بعد تعلم التأريخ .

ولقد صادفت روايات زيدان التاريخية من الرواج والقبول ما لم يظفر به كتاب في ذلك العهد . وظلت حتى بعد وفاته تعاد طبعاتها مرارا فيتلقفها الناس جيلا بعد جيل ، ولم ينقطع الطلب عليها حتى يومنا هذا ، حيث ظهرت في طبعات أنيقة بأغلفة تحمل صورا ملونة . ويفكك كراشكونفسكي أن كل روايات زيدان التاريخية تقريبا قد ترجمت إلى الفارسية ، والتركية ، والهنديانية ، والأذرية ، كما أن بعضها ترجم إلى لغات شرقية أخرى غير هذه ، وكان نصيب بعضها الترجمة إلى لغات أوربية ، فترجمت رواية « العباسة أخت الرشيد » إلى الفرنسية سنة ١٩١٢ مع مقدمة بقلم كلود فاريير الروائي الفرنسي المشهور وتلميذ بير لوتي .

وطبعاً جذبت روايات زيدان التاريخية اهتمام القراء من أدباءنا

---

(١) القصة في الأدب العربي الحديث . ص ١٢٣ .

الذين كانوا في العقد الأول من القرن العشرين في مرحلة الطلب للعلم . وطالما فسّرتهم حتى كادت تشغلهن عن دروسهم . وما أطفل الدكتور طه حسين وهو يقول في هذا الصدد : ( ومهما أنس فلن أنسى أني كنت في أيام الصبا والشباب أبدأ في قراءة القصة التاريخية من قصص جرجي زيدان ، فلا أكاد أتقدم في قراءتها شيئاً حتى أقتن بها ، وإذا هي تشغلي عن دروس الأزهر حتى أتمها ، وإذا هي تأخذ على تفكيري وقتاً طويلاً بعد اتمامها ) (١)

وعلى الرغم من القبول الذي لقيته روايات زيدان في تاريخ العرب والإسلام ، فإنها لم تسلم من النقد وقت ظهورها وحتى يومنا هذا . ولم يكن زيدان يضيق بالنقد ولا يرى أنه يحط من قدر المقاود ولا من قدر الكتاب ، ولكنه دليل على قدره . ويستطيع القارئ ، اليوم - بعد حملات النقد التاريخية التي وجهت إلى زيدان - أن يقرأ نقداً موضوعياً فيها لرواياته التاريخية ، ولرواياته الاجتماعية الوحيدة في كتابين عالجاً موضوع الرواية والقصة في الأدب العربي الحديث ، وهما كتاباً الدكتورين محمد يوسف نجم ، وعبد المحسن طه بدر ، فان مجال النقد والتحليل هناك أوسع وأشمل منه في مجال محدود ك المجال في هذا الكتاب .

ولعل نموذجاً من نقد بعض زملاء زيدان الروائيين في ذلك

---

(١) الكتاب الذهبي للهلان .

العصر يعطينا فكرة عن النقد ومفهوم القصة والرواية منذ أكثر من نصف قرن . ففي عدد الهلال من نوفمبر سنة ١٩١٤ نرى العالم الرياضي والكاتب الروائي نقولا الحداد يتناول في الرواية عند زيدان قائلاً : ( فالفقد كقصصي كان يرتقب القصة ، والحوادث فيها مدهشة ، وأخذنا بعضها برقب بعض ، ومنساقه كلها إلى ملتقى واحد هي التسليمة التي تهافت إليها عواطف القارئ ، ومندمجة اندماجا يقررها في ذهن القارئ كحقائق راهنة ، وما هي إلا حقائق تاريخية راهنة ، اللهم الا النزد مما يختلفه من الأشخاص والحوادث تامة لترتيب القصة ) (١) .

على أن كتابا ثالثا للدكتور محمود حامد شوكت لا يجوز إغفاله هنا ، فقد تناول القصة التاريخية عند زيدان ، وخلص من كلام زيدان نفسه إلى الحكم عليه بأنه ( لا يمتلك فلسفة خاصة يصورها التاريخ ، وإنما يكتفى بالجمع والتيسير وإحياء الصورة أحياء يسيرا يقوم على الشهادة التاريخية للموضوع وللشخصيات ، وقد وقف زيدان بذلك عند بداية طريق واصله من بعده كتاب القصة التاريخية ) (٢) .

(١) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ ص ١٨٣ .

(٢) الفن القصصي في الأدب المصري الحديث : للدكتور محمود حامد شوكت . ص ١٤٤ .



## **بين الصحافة والصحافة الأدبية**

الصحافة بمفهومها العام تعنى الصحف السياسية الاخبارية ، وصحافة الرأى التي تهتم بالتعليق على الأخبار والأحداث السياسية . وقد شهد القرن التاسع عشر مولد الصحافة العربية بما ليس هنا مجال تفصيله . وابنثى من الصحافة نوع آخر هو الصحافة الأدبية التي تهتم بسائل الأدب والعلم والثقافة والفكر والفن ، ولا شأن لها بالأخبار والحوادث والسياسة الا ما كان من معالجة بعض القضايا السياسية الكبرى التي قد تهملها بعض المجالات الأدبية اكتفاء منها بر رسالة الأدب والعلم .

وقد يلتقي في شخص واحد ميلان الى الصحافة العامة والصحافة الأدبية ، كما نجده عند الدكتور فارس نمر الذي كان يشغل في صحيفة المقطم بالسياسة ، وفي مجلة المقتطف بالعلم

والفكر ، على حين اكتفى زميله وشريكه الدكتور يعقوب صروف بسائل العلم والفكر في « المقتطف » ، وترك السياسة لصاحبها .

ولستنا هنا بمقام التفصيل والتمثيل في هذا الموضوع الذي يخرج بنا عن الغاية من هذا الفصل ، ولكننا سقناه لنوضح موقف المؤرخ جرجي زيدان من الصحافة العامة بعد أن اتضح دوره العظيم في الصحافة الأدبية باشرافه « مجلة الهلال » التي ظل يحررها ويخدمها اثنين وعشرين عاما .

حينما هاجر زيدان إلى مصر سنة ١٨٨٣ كان همه أن يلتحق بمدرسة الطب المصرية حتى يتم دراسة الطب التي انقطعت عليه في المدرسة الكلية الأمريكية بيروت . وان كان قد أدى امتحاناً في علوم الصيدلة بيروت أمام لجنة خاصة حرجة بعيدة عن سلطات المدرسة الكلية . وما كان في ذهن الفتى يومئذ أن ينصرف عن دراسة الطب في مصر بأي ثمن ، فقد كانت تلك الدراسة أمينة نفسه . ونزل الفتى من الباخرة التجارية التي أقلته من بيروت إلى الإسكندرية في صباح يوم من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٣ . وأقام بالثغر زمناً يكفي لراحة من عنااء الرحلة بالبحر ، ثم اتجه إلى القاهرة ميمماً وجده شطر مدرسة الطب لينجذب أمامها أوراق تقديمها . غير أن طول مدة الدراسة في القصر العيني قد حول عزمه عن صناعة الطب .

جملة \*

ويظهر أن القدر في هذه اللحظة كان يدبر له مسألة اشتغاله  
بصناعة القلم ، فوجد من نفسه دافعا لأن يستغل بالصحافة ، ولم يكن  
في مصر في ذلك التاريخ صحف ولا صحفة ، الا صحيفة يومية  
واحدة اسمها « الزمان » يملكها رجل أرمني اسمه « علكسان  
صرافيان » اتهز فرصة أحداث الثورة العرابية فأنشأها في مارس  
سنة ١٨٨٢ ، وظلت تصدر عامين وبعض أشهر إلى أن التقى به  
جرجي زيدان وعرض عليه أن يكتب فيها ، فكلفه الرجل  
تحريرها .

وقد يطير هنا سؤال : فأين صحيفة « مصر » التي أنشأها  
أديب إسحاق في ديسمبر سنة ١٨٨١ ؟ لقد كانت معطلة بعد أن  
أبعد صاحبها إلى بيروت عقب الحوادث العرابية ، أما صحيفة « الوطن »  
التي أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة ١٨٧٧ فقد توقفت حيناً بعد  
الاحتلال ، ولم تعد إلى الظهور إلا في سنة ١٩٠٠ . وظلت القاهرة  
خالية من الصحافة اليومية منذ أيام الاحتلال إلى أن ظهر « المقطم »  
سنة ١٨٨٩ .

لهذا لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان مصر في ذلك الحين كانت  
خالية من الصحافة والصحف اليومية . على كل حال ظل جرجي  
زيدان يستغل بالتحرير في صحيفة « الزمان » اليومية عاماً وبعض  
عام ، أدرك بعدها أنها صائرة للزوال ، فاستقال منها ، وما كاد يفعل

حتى أقفلتها حكومة الاحتلال ، فحزم صاحبها الأرمي متابعاً وسافر إلى قبرص حيث أنشأ فيها جريدة أسمها « ديك الشرق » .

هذه محاولة جرجى زيدان الوحيدة للالستقال بالصحافة اليومية ، ويظهر أنها لم تلائم طبعه ، ولم توافق مزاجه النفسى والخلقى وطبيعته . وعاد زيدان بعد رحلته إلى السودان ، للالشتغال بالصحافة الأدبية ، بعد أن خلا الميدان فى مصر من الصحافة اليومية خلوا تماماً . فاشتغل بالاشراف على ادارة المقططف ، ولم يشترك فى تحريره الا بنبذة واحدة تقع فى نصف صفحة من خاتمة السنة الحادية عشرة . وهذه الحقيقة قد صاحبها بلباقة وحياء الدكتور يعقوب صروف فى معرض تأبينه لصديقه وزميله جرجى زيدان فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من المقططف . ولقد وهم كثيرون (١) من الباحثين ذكرروا أن جرجى زيدان شارك فى تحرير المقططف ، وقد تابعوا فى وهمهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى ذكر فى كتابه « الآداب العربية » أن مجلة المقططف ( اتبدت جرجى زيدان ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة ٠٠٠ ) ومن تابع الأب شيخو فى هذا الوهم : الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه « التاريخ والمؤرخون فى مصر » ، والدكتور محمد رجب البيومى فى مقال له عن جرجى زيدان نشره بالعدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ،

(١) كنا أول من صفع هذا الوهم حديثاً في بحث لنا عن زيدان « تراث الإنسانية » المجلد ٤ عدد ١٠ .

والدكتور محمد يوسف نجم في كتابه «القصة في الأدب العربي الحديث» ، والأستاذ عمر رضا كحاله في «معجم المؤلفين» ، والأستاذ طاهر الطناحي في فصل له عن جرجي زيدان بكتاب «عاصميون عظماء من الشرق والغرب» .

ولم يكمل زيدان في ادارة المقططف عامين ، فقد التحق به في أواخر سنة ١٨٨٦ ، واستقال منه سنة ١٨٨٨ مؤثراً أن يستقل بالعمل وحده . ولعله في هذه الفترة كان يخطط لانشاء مجلة أدبية أخرى تواخى مجلة المقططف وتزاملها في ميدان يتسع لمزيد من الجهد . وفي سبتمبر (١) سنة ١٨٩٢ كان القراء في مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي يتلقفون أول عدد من مجلة الهلال التي أنشأها جرجي زيدان بعد أربع سنوات من تركه العمل في مجلة المقططف . وصدر العدد الأول يحمل فاتحة بقلم زيدان يقول فيها :

لا بد للمرء فيما يشرع فيه ، من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يسعى إليها . أما فاتحتنا فحمدنا الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه ، والتوصيل إليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب .

وأما خطتنا فالأخلاق في غايتها ، والصدق في لمحتها ، والاجتهاد في إيفاء حق خدمتها . ولا غنى لنا في ذلك عن معاضة

(١) ذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه «من أعلام الفكر والادب» ان الهلال أنشئ سنة ١٨٨٩ ، وهو وهم أو لعله من تحريريات الطبع .

أصحاب الأقلام ، من كتبة هذا العصر ، في كل صقع ومصر .  
أما النهاية التي نرجو الوصول إليها ، فما يقابل السواد على ما نكتبه ،  
ورضاوهم بما نحتسبه ، واغضاؤهم بما نرتكب . فإذا أتيح لنا ذلك  
كنا قد استوفينا أجورنا ، فتشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا .

وقد دعونا مجلتنا «الهلال» ثلاثة أسباب : «أولاً» تبركا  
بالهلال العثماني الرفيع الشأن ، شعار دولتنا العلية أيدها الله «ثانياً»  
إشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر «ثالثاً» تفاؤلاً بنموها  
على الزمن ، حتى تدرج في مدارج الكمال ، فإذا لاقت قبولاً  
واقلاً ، أصبحت بدرأ كاماً باذن الله .

هذا وانتنا نرجو أن تصادف خدمتنا هذه استحساناً ، وحسن  
قبول لدى حضرات القراء الكرام . ونعدهم ببذل الجهد في اخلاص  
الخدمة ، قياماً بموجبات مصلحتنا ، وابتقاء لمرضاتهم . والله المسؤول  
أن يلهمنا منهاجاً قوياً ، ومسلكاً مفيداً .

ووجد جرجي زيدان في «الهلال» تحقيق حلمه الذي كان  
يحلم به ، فعكف على تحريرها بنشاط لفت إليه انتظار الكثرين ،  
حتى ليقول المستشرق الكبير أغناطيوس كراتشيفسكي في صدد  
ذلك : ( وقد ارتبطت حياته ارتباطاً وثيقاً بهذه المجلة منذ ذلك إلى  
حين وفاته المبكرة ، وكان زيدان جم النشاط عارمه ) .

ووجد الناس في الشرق مجلة أدبية علمية خفيفة الظل بجانب

مجلة « المقطف » التي كانت تمتاز موضوعاتها بالدساممة والعلوم الطبيعية والفلك والتاريخ الطبيعي ، فهافتوا عليها ، واشتر كوا فيها ، وغمروها بالأسئلة التي كان يجب عنها زيدان ، كما كان يجب الدكتور صروف عن أسئلة القراء في المقطف .

ولم ينحصر ميدان انتشار الهلال في العالم العربي وحده ، ولكنه تخطى إلى البلاد التي يقيم فيها قراء من العرب أو يعرفون العربية . وما كادت تبلغ خمس سنوات من عمرها حتى لاحظ الياس زخورة ، صاحب « مرآة مصر » ، سعة انتشارها فكتب يصف شهرتها وسعة انتشارها بما لم يسبق له مثيل في العالم العربي ( فقرأوها يبعدين بعشرات الآلاف ) ، وهم متشردون في أقصى العالم حتى الصين والهند واستراليا وأمريكا وزيللاندا وزمبابوار وجزائر المحيط ، فضلاً عن سعة انتشارها في مصر وسوريا وأوروبا وغيرها ) .

ولو أقيمت نظرة على الفلاف الداخلي لعدد من أعداد الهلال في ذلك الرومان لرأيته يزدحم بمتاونين وكلاء المجلة في الولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، وكوبا ، وسلفادور ، وهندوراس ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وشيلي ، والبصرة ، وبغداد ، وكربلاء ، وجادا ، وجزائر الهند الشرقية ، وبيروت ، ودمشق ، وحلب ، وطرابلس .

وبات هذا الانتشار الواسع لمجلة الهلال حدثاً يلفت الانظار في الشرق العربي تباه له الشرقيون والغربيون على السواء ، فرى

المستشرق كراتشوفسكي في المقال القيم الذي كتبه عن جرجي زيدان في دائرة المعارف الإسلامية يؤكّد هذه الحقيقة بقوله : ( وأصبح الهلال أوسع المجالات العربية اتسارا ) .

وكتير من الكتب التي ألفها جرجي زيدان كان ينشر في الهلال على هيئة فصول متفرقة . فكتابه « تاريخ ادب اللغة العربية » نشر منه فصولاً صدر أولها سنة ١٨٩٤ في عدد الهلال التاسع من السنة الثانية ، وصدر آخرها في أواخر السنة الثالثة ، وانتهى بالفصل المنஸورة إلى عصور الانحطاط في الأدب العربي ، ثم اتجه إلى أن يجعل منه كتاباً قائماً ، فظل يجمع ويقرأ ويتحقق ويحلل ، ولم تقع له شاردة إلا قيدها ، ولا ملاحظة إلا حفظها وتذكرة حتى ظهر الكتاب كاملاً في سنة ١٩١١ ، أي بعد بعض عشرة سنة من تاريخ نشر أول الفصول على هيئة مقالات في « الهلال » .

✓ وكتابه « تراجم مشاهير الشرق » نشر كثير من ترجماته في أعداد مجلة الهلال منذ السنوات الأولى لصدورها ، ثم رأى أن يجمعها في كتاب قائم بذلكه بعد أن كثر طلب القراء لمثل هذا النوع من الكتب ، فاستجاب لرغبتهم وأصدر الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٠٢ لا سنة ١٩٠٧ كما ذكر خطأ في كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر .

وكتابه « تاريخ التمدن الإسلامي » صدر منه فصول في مجلة الهلال على هيئة حلقات ، ظهر منها بضع عشرة حلقة كان القراء

يتقبلونها بقبول حسن ، فرأى أن يجعل تتمة السنة العاشرة من مجلة الهلال - أى سنة ١٩٠٢ - كتاباً كاملاً مستقلاً في هذا الموضوع . وبهذا ظهرت الطبعة الأولى من « تاريخ التمدن الإسلامي » سنة ١٩٠٢ لا سنة ١٩١٠ كما ذكر الدكتور حسين مؤنس في تقديمه للكتاب في طبعته الأخيرة التي صدرت سنة ١٩٥٨ وهكذا ترى أن أغلب مؤلفات جرجي زيدان كان في الأصل فصولاً ومقالات نشرت في مجلة الهلال ، ثم طبعت في كتب مستقلة بعد ذلك .

وإصدارات كتاب بدلاً من عدد أو عددين من مجلة « الهلال » هي خطة جرت عليها أيضاً مجلة « المقطف » فيما كانت تنشره من كتب تعدّها لواحق للمقطف . على أن الهلال بعد ذلك جرت على إصدارات أعداد خاصة أو ممتازة من المجلة تعالج موضوعاً واحداً معيناً فكأنها في الحق كتاب قائم بذاته . فمنذ سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٨ أصدرت بضعة عشر جزءاً من الأعداد الخاصة تناولت موضوعات مستقلة ، كالإعداد عن الفاروق عمر بن الخطاب ، وأبي الطيب المتبي ، وأبي نواس ، وأبي العلاء المعري ، والمرأة والحب ، والعرب والإسلام . وأخيراً صدر لها عددان خاصان أحدهما عن عباس محمود العقاد في أبريل سنة ١٩٦٧ ، والثاني عن الشاعر أحمد شوقي في نوفمبر سنة ١٩٦٨ .

والحق أن مجلة «الهلال» عاصرت التطور الحديث في العالم العربي، وسايرته وأسهمت بنصيتها فيه منذ إنشائها سنة ١٨٩٢ حتى اليوم. ولا شك أن آراء علمائنا ومفكرينا وأدبائنا في «الهلال» تعطى فكرة واضحة عن الدور الذي قامت به هذه المجلة لتطور الفكر العربي. فهذا أحمد زكي باشا يقول فيه: (هلال السماء يتقل من نقص إلى زيادة، ومن زيادة إلى نقص وأما هلال زيدان فدائما في ازدياد). وهذا أمين سامي «باشا» يقول: (من ذا الذي لا يعترف بفضل الجهد الذي يبذلها القائمون بأمر مجلة الهلال الممتازة بمباحثها العلمية العالية والأدبية الراقية التي هي خير ما يقتدى به). وهذا الشيخ مصطفى عبد الرزاق يقول: (كان الهلال مجلة الشيوخ. فصار مجلة الشيوخ والشبان)، وهذا عباس محمود العقاد يقول: (الهلال ييسر المعارف ولا يتذلها)، وهذا ابراهيم المازنی يقول (الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح في الحياة)، وهذه الأديبة الآنسة می زيادة تقول: (الهلال صورة واضحة للتطور الحديث)، وهذا محمد فريد وجدى يقول: (مجلة الهلال من أجمع المجالات ثمرات العقول الناضجة، فهي من أعنف العوامل لامداد النهضة الفكرية الراهنة بما تحتاج إليه) ولن تم هذه الشهادات الصادقة بغير شهادة الدكتور طه حسين الذي قال: (كانت الهلال مثال الجد في العمل، والاخلاص للعلم، ثم أصبحت - إلى ذلك - مثال الفطنة لأذواق القراء، والنشاط

لارضائهم ° وهي على كل حال أخف المجالات العربية ظلا ) ٠٠

الحق أن جرجي زيدان عرف منذ اللحظة الأولى لانشائه  
مجلة الهلال كيف يجعلها محبوبة لدى الناس جذابة لديهم ،  
فخفف من جفاف المادة العلمية الدسمة الثقيلة على معدات القراء  
بما أضفى عليها من خفة الظل التي أشرنا إليها قبلًا ، والتي سجلناها  
للدكتور طه حسين في ختام هذه الشهادات °



## التحقيف الذاتي والتعویل على المصادر

ان مدرسة المعلم الياس شقيق ، ومدرسة الشوام ، ومدرسة المعلم ظاهر خير الله بيروت لم تعط الصبي والغلام جرجي زيدان شيئاً أكثر من « فك الخط » ، القراءة ، والحساب ، وشيء من النحو والصرف ، ومبادئ اللغة الفرنسية . أما مدرسة المعلم مسعود الطويل المسائية فقد أعطت زيدان شيئاً لا بأس به من اللغة الانجليزية . وقد تكون السنة الدراسية التي قضتها في المدرسة الكلية الأمريكية بيروت فتحت أمامه أبواب تعلم الطبيعتين والحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء ، والمواد الطبية والأقراصيات ، وهي المواد التي أدى فيها امتحاناً لنيل شهادة الصيدلة .

ومن هنا كان زيدان لم يتعلم تعليماً منتظاماً في المدارس النظامية ، وقد عاكسته الأقدار فلم تهيئ له من ذلك التعليم ما كان

يصبوا اليه . و حتى على فرض أنه استوفى حقه من التعليم الدراسي المنظم ، فهل كانت المدارس يوماً ضماناً للنجاح في الحياة ، أو كانت الشهادة يوماً صكماً على الأيام بالإنجازات العظيمة للمرء في حياته ؟

لقد تعلم زيدان في مدرسة الحياة على نفسه ، فكان هو في نفسه طالباً ومعلماً . وقد أدرك بفطنته العارفة أن المطالعة والقراءة هما سبيل من لم تتمكنه الحياة من الدروس النظامية في المدارس . فكان أول كتاب قرأه بالإنجليزية هو « رحلة كوك في المحيط » ، وكان أول كتاب قرأه في العربية بعد ذلك هو كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجي ، وهو الكتاب الذي وصل به اليازجي سلسلة كتب المقامات في الأدب العربي حتى عصرنا الحاضر . وقد استكثر والده عليه أن يسترئ هذا الكتاب ببضعة قروش لا تتجاوز تسعين ، وعد ذلك منه سرقاً وسفها ٠٠٠ وعلى قدر ما اغتنم والد زيدان لسفه ابنه في شراء كتاب أو ورق بدراهم معدودة ، فرح أمين فياض - صديق الأسرة - بهذا الاتجاه من الولد الحب للقراءة وخاطب والده قائلاً : اشكر الله يا أبي جرجي أن ابنك ينفق الدرام في شراء الكتب ، وليس في السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها ؟ ويقرر لنا جرجي زيدان في مذكراته الصريحة الطريفة أن ولو عه بالتعرفة والعلم قد دفعه إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا ، واستطاع أن يحصل على بعض المؤلفات في هذين الموضوعين من العمالء المترددين على مطعم أبيه . ولقد بهره

أن يعرف من عجائب الكون عن طريق القراءة حركة دوران الأرض ، والخشوف والكسوف ، والزلزال والبراكين ، وتكون السحاب ونزول المطر . ولقد استهواه مقالة في أحدى المجالات العربية – ولعلها المقططف – عن ظاهرتى الكسوف والخشوف فزادت تلهفه على قراءة كتب الجغرافية الطبيعية .

ويفسر لنا الدكتور حسين مؤنس سر تعلق زيدان بالموضوعات التاريخية ، فقد كانت كتب التاريخ أحسن ما تخرجه المطبع في ذلك العهد ، وكان الرجل شديد النهم إلى القراءة والاطلاع ، فنهى من هذه المناهل ، وروى عن سعة ، وسار في ركب المؤرخين ، فلم يلبث أن فارقه تهيه ، وأصبح بفضل دأبه على العمل ، وصبره على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخي العرب على أيامه (١) .

على أتنا لا ننكر عاملا آخر ساعد على سعة اطلاع جرجي زيدان وامتداد آفاق مطالعاته وقراءاته . فقد كان يجيد العربية وينفذ إلى أعماقها ، ويقرأ النصوص القديمة – على وعورتها – بطلاقة وفهم عميق ، وكان يعرف الأنجلizية والفرنسية والألمانية واللاتينية معرفة تامة ، وكانت معرفته بالإيطالية والاسبانية تمكنه من فهم ما يقرؤه فيهما ، بالإضافة إلى اتقانه العربية والسريانية من اللغات السامية . وقد أثاحت له هذه الألسن المتعددة أن يقرأ في اتجاهها الفكرى ، وأن تبسط مطالعاته إلى آفاقها .

---

(١) من تقديم كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » في طبعته الاخيرة . ص ٨

ان زيدان نموذج جيد في تاريخ الأدب العربي للذين يقفوا  
 أنفسهم بأنفسهم ، وقد كان فيه طبيعة لالتقاط المعرفة وكتابتها من  
 أى مصدر مقرؤه سواء أكان مجلة أم كتابا ، وقد أفاده طول تقليل  
 كتب الأوائل بين يديه علما بالمصادر ومظان البحث ومواطن الأفادة  
 بالمعرفة . وهو في هذا يذكرنا في القدماء بياقوت الروماني صاحب  
 معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وهما من أضخم مراجعنا العربية  
 في الترجم والبلدانيات . فقد كان أسيرا من أسرى الروم ، لم  
 يدخل مدرسة ، ولاقرأ على شيخ من الشيوخ ، ولكنه تعلم اللغة  
 وال نحو على كبر في السن ، ثم اشتغل بنسخ الكتب لمن يطلبون  
 سخنها ، فأفاده ذلك وعاد عليه بشروة ضخمة من المعرفة . ومن هنا  
 كان تشريف زيدان لنفسه بنفسه ظاهرة تلفت النظر عند الباحثين  
 والدارسين . ويسرتنا أن صاحب « من أعلام الفكر والأدب » قد  
 تنبه لهذه الظاهرة ، مع ظاهرة الهجرة إلى مصر التي منحته معنى  
 القوة والثقة بالنفس (١) .

ولقد أنس زيدان بالكتب يجعلها دعامة في مصادره لكتبه  
 التي ألفها . وهو دائما يسجل أسماء مصادره ومراجعةه وخاصة في  
 مقدمات تأليفه ، وأحيانا يذكر المصادر في هوامش الكتاب مشيرا  
 إلى أجزائها وأرقام صفحاتها ، وأحيانا يذكر المراجع . وقد يسميهما  
 أحيانا المأخذ - في آخر باب من أبواب الكتاب ، كما فعل في مصادر

---

(١) من أعلام الفكر والأدب ص ٨٥ .

الشعر الجاهلي ، فقد ذكرها في نهاية باب العصر الجاهلي ، وذكر منها واحداً وتلاته مرجعاً عربياً مع ذكر سنواتطبعها . ثم أعقب ذلك بذكر بضعة من المراجع الأوربية لموير « وسلان ، وليل وغيرهم » ، وختم المراجع للشعر الجاهلي بذكر كتاب في شرح العلاقات بالعربية ، والفارسية ، والهندية ، اسمه « رياض الفيض » طبع في لاهور بالهند سنة ١٢٩٩ هـ .

ومن المؤلفين المعاصرين من يتذكرون بذكر المراجع والمصادر جا في التفاحر والتباہي ، وقد يكونون لم يطلعوا على كثير مما ذكروه من مراجعهم ، فهم يقللون مراجع غيرهم ويضعونها في كتبهم ، وكثيراً ما تكشف قراءاتنا الفاحصة عن هذا التفاحر والتکثر الرخيص . ولكن زيدان كان أجل قدرأ ، وأصدق حالاً من أن يدون في مؤلفاته مرجعاً لم يقرأه ويرجع اليه ويفد منه . ولقد كثرت مراجعه كثرة تلتف النظر . ويعترف هو في مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الإسلامي » أنه قد زاد عدد ما طالعه من الكتب العربية والأفرنجية لهذا المؤلف على مائتي مجلد (١) ، ونحن لا نشك لحظة في هذا العدد الذي يقدمه ، فتحن نdry ما يحتاج إليه البحث في هذه الموضوعات من قراءات واسعة .

وتحتختلف مصادر زيدان ومراجعه بين عامة وخاصة ، وبين عربية وأجنبية . والمصادر العامة كان يفيد منها جرجى زيدان في

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي - ص ١٤ - الطبعة الأخيرة .

جمع جزئيات المسائل وفروعها ، وخاصة ما يتصل بالحضارة الإسلامية ، والمارجع الخاصة هي التي تتحصر في موضوع معين ، كمراجعة للشعر الجاهلي وشعراء الجاهلية التي سبق الحديث عنها .

وحيث يلتجأ زيدان إلى ذكر مصادره ومراجعه فله في ذلك طريقتان : الأولى أن يأتي بها في تقديم الكتاب ، ويذكرها أو يذكر بعضها على سبيل المثال متالية حسب موضوعاتها ، كما في مقدمته لتاريخ التمدن الإسلامي ، فيقول : ( ومن أمثلة ما قرأتناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم كذا وكذا ، ومن كتب الأدب كذا وكذا ، ومن كتب التفسير والحديث والفقه كذا وكذا ، ومن كتب السياسة والإدارة كذا وكذا ) . وهكذا يذكر الكتب وفق موضوعاتها متعاقبة بلا ترتيب لها وفق حروف الهجاء ، فالكتاب المبدوء بحرف الميم يأتي قبل الكتاب المبدوء بالهمزة . والطريقة الثانية أن يدون أسماء الكتب في جدول أو ثبت مرقمة ، مع ذكر تاريخ الطبع ومكانه . على أنه – بالإضافة إلى الطريقتين السابقتين – قد يذكر المراجع في هوامش الكتاب كما أسلفنا .

ولكن هناك فوق ما تقدم طريقة فريدة لزيدان في مصادره عن الأعلام ، والشعراء ، والخطباء ، والفقهاء ، والمفسرين ، والصحابيين ، والمؤلفين واللغويين ، ورجال الأدب والفكر ، الذين يزدحم بهم كتابه الضخم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فهو في نهاية الترجمة أو التعريف بكل شخصية يذكر مصادر ترجمتها .

ففى نهاية ترجمته للشاعر مسلم بن الوليد - مثلا - يقول : ( وتجد أخباره فى الشعر والشعراء ٥٢٨ ، وفي الأغانى ٩ ج ١٣ ، والعقد الفريد ١٤٢ هـ ج ١ ، وفي طبعة الديوان المذكورة ) . ولما كانت هذه المصادر والآخذ قد فات زيدان ببعضها ، أو ظهر بعد عصر زيدان مصادر ودراسات جديدة بعد أن انتقل الرجل إلى رحمة الله ، فإن استكمال هذه المصادر - بما ظهر من مخطوطات نشرت ، أو دراسات استجدة ، أو نقص استكمل - قد بات ضرورياً للطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، وهو عمل قد قام به الدكتور شوقي ضيف على وجه محمود مشكور ، على حين أن الدكتور أنطون كرم يرى أن شوقي ضيف لم يضف كثيراً إلى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية (١) . وهو حكم نرى فيه كثيراً من الجور .

ولم يقف زيدان إلا فادة من مصادره للبحث على المصادر القديمة وحدها ، ولكنه كان يتبع المكتبة العربية والكتب المطبوعة حتى أيامه . ففى ترجمته للشاعر الجاهلى : التلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصرالله وهو كتاب « شعراء المنصريات » للأب لويس شيخو اليسوعي المتوفى سنة ١٩٢٧ .

ولم يتأثر جرجى زيدان في تسجيله لمصادر دراسته بما كان بينه وبين بعض حساده من خصومات ؟ لأنه يضع العلم والحق فوق

(١) الأدب العربي في آثار الدارسين ص ١٢٦ .

كل اعتبار . فلا نراه يغصب مثلا على الأب لويس شيخو ويسقطه من ذكره وذكر كتبه بين مصادره لأن الرجل تهجم عليه في نقهء ، ولكن ينسى اساءات المسينين ، وان كان لم تنسها نحن ولم ينسها تاريخ النقد حين كتب الأب شيخو عن كتابي زيدان : « علم الفراسة الحديث » و « تاريخ الماسونية العام » يقول : ( ٠٠ وأقبح منه تاريخ الماسونية العام الذى ذهب فيه زيدان مذاهب صبيانية خرافية ) (١)

---

(١) الأدب العربية في الربع الاول من القرن العشرين - ص ٧١

## كتب زيدان بين النقد والرواج

لقد تعرضت كتب جرجى زيدان لحملات من النقد لم شهد لها ضربا فيما صدر من كتب مؤلفين فى آخريات القرن الماضى والربع الأول من القرن العشرين . وقد أحسن الرجل نفسه كثرة استهدافه واستهداف كتبه للنقد ، فكتب فى مقدمة الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول : ( لا نظن كاتبا من كتاب العصر لاقى ما قياده من الانتقاد فى أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة ) . وكان فى أول الأمر يعنى بالانتقادات ويرد عليها ويبيّن موضع التحامل فيها ، كما فعل فى رده على كتاب « نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان » لأمين بن حسن المدى ، ودما رد في « المؤيد » على انتقاد الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامى . ومضى زيدان فى تأليفه ولم يبال بالناقدين بعد ذلك ، ولم يكلف

نفسه عناء الرد عليهم ، بل جعل المثابرة على العمل في خدمة تاريخ  
الإسلام والأدب هي جوابه على الاتهادات ٠

وكان زيدان - شأن العالم الحقيقى - يرى أن انتقاد الكتب  
أكثر من تقريرها فائدة ونفعا ٠ وأن الاتقاد لا يحط من قدرها أو  
يذهب بفضل أصحابها (١) ٠ وكثيرا ما نراه يشيد بفضل ناديه  
عليه وجميلهم إليه ، ك موقفه من نقد الأب لويس شيخو السوسي  
لتاريخ آداب اللغة العربية الذي نشره في مجلته «المشرق » في الجزء  
الثامن من السنة الرابعة عشرة ، فقد وصف نقد الأب شيخو بأنه  
( نم عن أدبه وفضله ، ودل على تمكنه من الموضوع ) ٠ وكثيرا  
ما كان يرجو من يقع في أحد كتبه على خطأ أن ينهى إليه  
ليستدركه في الأجزاء التالية ، فإن العصمة لله وحده (٢) ٠ ويدلنا  
هذا على جانب من جوانب الحلق الكريم عند زيدان ، فطالما ألح على  
قرائه الكثريين أن ينهوه إلى أخطائه ، ليستوجوا بذلك شكره  
وثناءه ( لأنى أستحب من الحق اذا عرفته أن لا أرجع اليه ) (٣) ٠  
وكان زيدان حين يرى النقد سليما ويصبح عنده فإنه يأخذ  
به ، ويغير ويصحح في الكتاب في الطبعة الجديدة ، أو يشير إلى  
التصحيح فيما يلي من أجزاء الكتاب ٠ وأما ما لا يصح عنده من  
النقد فإنه يغفله ولا يشير إليه (٤) ٠

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ج ٢ ص ٤ ٠

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٨ ٠

(٣) تاريخ مصر الحديث ص ٧ ٠

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي . ج ١ ص ١٧ ٠

وما اسع صدر كاتب عندنا فيما نعلم كما اسع صدر جرجى زيدان ، وكان الحاجه الدائم على قرائه بأن يبعثوا اليه بملحوظاتهم واستدراكاتهم هو الدليل على ثقته بنفسه من ناحية ، وثقته بالقراء من ناحية أخرى . فهو لا يعد نفسه الحكم الفيصل في الموضوع الذى يعالجها ، ولكنه يعد القارئ شريكه ، وطرف آخر فى القضية . وكثيرا ما يحس بفطرة العالم أن شيئا أو أشياء قد تكون فاتته فى الكتاب فيتمنى على القارئ لو بعث اليه بما يوفى الموضوع ، ويسد النقص . فإنه حين فرغ من تأليف « ترجم مشاهير الشرق » أحس أن هناك تراجم قد تكون فاتته لقلة المأخذ المؤدية الى ذلك ، لقرب عهدها من الحضارة الجديدة ( فلا يخلو أن يكون قد فاتتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا ، فنرجو من أهل الاطلاع أن ينبهونا الى ذلك ، ويبعثوا اليانا بما يعلموه من ترجم أولئك الرجال ، لندرجها فى ملحق يجعله جزءا ثالثا لهذا الكتاب ان شاء الله ) (١) .

وكان جرجى زيدان يجمع هذه الانتقادات والملحوظات التي تنشر فى المجالس والصحف ، أو تطبع فى كتب على حدة ، أو ترسل اليه على هيئة رسائل خاصة ، ويعيها وعي العالم الدقيق ، فإذا ما استقر عنده صحتها وسلامة وجهة النظر فيها نشرها فى آخر أجزاء الكتاب ان كان ذا أجزاء ، أو فى الطبعة الجديدة منه . وقد

(١) من مقدمة جرجى زيدان للطبعة الاولى من ( ترجم مشاهير الشرق )

نشر في ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » كثيراً من الاستدراكات والاصلاحات على ضوء الانتقادات التي شرطت حول الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب . وسجل في المستدرك أسماء طائفة من أصحاب تلك الانتقادات ، وهم الأب لويس شيخو في مجلة الشرق ، والأب أنسطاس ماري الكرملي في مجلة لغة العرب ، والشيخ أحمد الأسكندرى في مجلة المنار ، وأل كاشف الغطاء في مجلة العرفان ، وعيسى اسكندر الملعوف في الآثار ، وأحمد تيمور في رسائله الخاصة ، والمستشرق جولدتسىهر ، والأستاذ عبد الفتاح عبادة ، ورضاء الدين بن فخر الدين في الروسيا في كتبهم وخطاباتهم إلى زيدان .

وحين أصدر زيدان الجزء الثاني من « تاريخ آداب اللغة العربية » لم يشأ أن يسكت على مسألة النقادين للجزء الأول منه ، فبعد أن شكر المقرظين بدأً ببيان اهتمام المتقديرين بانتقاد الكتاب ( بلهجة تفاوت شدة وأسلوباً بتفاوت فهمهم من المراد بالانتقاد وشروطه ) ، كما بين بعد ذلك حرج مركز الكاتب الشرقي بين قرائه ( فليس في الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطننا ومشربنا ومنذهبنا وتربية ، فلا يتأنى لكاتب ارضاؤهم جميعاً ولو أُتى علم الأولين والآخرين ) . ورد على من يقول في نقده انه قلل من الأمثلة والنماذج الشعرية وال-literary ، بأن ذلك كان عن قصد وارادة ،

فلو أكثر من الأمثلة لخرج عن الغرض المقصود من الكتاب ، وأحال من يطلب إكثار النماذج على المراجع القديمة الأصلية ذاتها ، أو على كتب في الأدب العربي معاصرة له ، منها كتاب محمد عاطف بك وزميله ، وكتاب الشيخ محمد حسن نائل المرصفي ٠

وحين أصدر ثالث أجزاء الكتاب كتب مقدمة غير قصيرة في النقد والنقدin ، ورد على الأب شيخو ، وأحمد عارف الزين ، والأب الكرملي ، والشيخ أحمد الأسكندرى ٠ وقد أطال في رده على الأسكندرى ، ويظهر أنه كان شديد التأثر من لهجته في الانتقاد ، فقد لاحظ على شيخنا أحمد الأسكندرى أن لهجته في النقد هي لهجة أستاذ يلقى درسا على تلميذه ، وتمنى عليه لو اختار في الانتقاد لهجة أخرى وخاصة أنه عانى التأليف في موضوع الأدب العربي بكتابه « الوسيط » ٠

وقد تعزى زيدان فيما وجه إليه من انتقادات لكتبه بما لاحظه وقرره من أن المرأة لا يكاد يوجد كتابا واحدا لم يتساوله الأدباء بالنقد ٠ فكتاب « العين » للخليل ، و « الكتاب » في التحو لسيويه ، وشعر المتبي ، وأبي تمام وغيرهما لم تسلم من ناقد أو عائب ٠ بل لم يسلم من النقد العنيف والتقرير واحد من كبار اللغويين والمؤرخين من أمثال ابن الأثير ، وابن خلkan ، والفيروزابادي ، وابن خلدون ، والمقرizi وغيرهم ٠

وكان الاتهادات الموجهة الى زيدان وكتبه - وخاصة في الآداب العربية ، والتمدن الإسلامي - تختلف شدة وضعفا ، ولينا وعنقا ، وبراءة وغresa . ويشير أحمد أمين الى اختلاف نقاد جرجى زيدان بقوله : ( وكان نقاده مختلفي الأصناف ، فمنهم هادىء رزين في نقاده ، كقد المرحوم رفيق بك العظم ، والأب لويس شيخو ، ونقد لاذع شديد كقد المرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى في مجلة النار ، ونقد نزيه ونقد غير نزيه ) وهذا الكلام يحتاج الى تبيان أكثر ، والى تكميل بما يوفى الكلام في مسألة اتهادات كتب زيدان . فان بعض التقويد كانت موضوعية كاتهادات الشيخ الأسكندرى ، والأب الكرملى ، والدكتور يعقوب صروف الذى كان يقصد فى « المقتطف » نقدا هادئا لبقا ، ليس فيه كلمة جارحة . وبعض التقويد كان فيه موضوعية ، ولكنه يخرج عن اطار الهدوء الى اطار الاذارة والاتهامات المحبطة كالاتهامات بسوء النية في اظهار مثالب العرب ، والاتهام باعتماد زيدان على روايات وأخبار ثبتت كذبها ، والاتهام بخداع زيدان لقارئه بمدح الاسلام وكونه أقرب لحرية الفكر ثم الدس عليه بعد ذلك بابراز آراء أهل الفرق الفضالة والمذاهب المعروفة بالاحاد والزنقة ونسبتها الى الاسلام ، وهذه الاتهامات هي مما جرى به قلم الشيخ شibli النعماني الهندى ، وأسس عليها بالطبع اتهام جرجى زيدان بالشوبوبة .

وعلى الرغم من شهادة زيدان نفسه لاتهادات الأب لويس

شيخو بأنها كانت تم عن أدب وفضل وانصاف في الحكم وتمكن في الموضوع ، فان قلم هذا الأب كان ينزلق أحيانا الى عبارات وألفاظ لا تليق برجل دين ، كألفاظ الأوهام ، والخياليات ، والقبح ، والصيانية ، والخرافية وما اليها . وهى ألفاظ سجلها الأب لويس فى كتابه عن (الآداب العربية) . أما انتقادات الشيخ ابراهيم اليازجي وخاصة لأسلوب زيدان وألفاظه غير الفصاح ، فقد كانت - على أدبهما وهدوئها - نموذجا لتشدد اليازجي فى نقد اللغة الدائرة يومئذ ، والتى أسمتها « لغة الجرائد » ، كما كانت - كما يقول كراتشكونفسكى - انتقادات من يتصيد الأخطاء (١) .

ومن أشد الانتقادات التى وجهت الى كتب زيدان تلك التى وجهها اليه الشيخ أمين بن حسن المدنى فى كتابه « نيش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان » ، وقد رد عليه زيدان بكتاب عنوانه « رد رنان ، على نيش الهذيان » صدر عن مطبعة التأليف سنة ١٨٩١ . ولم يتع لنا الاطلاع على نقد الشيخ أمين المدنى هذا ولا كتابه ، ولكن كراتشكونفسكى يذكر لنا أن هذا النقد كان تافها فى معظمها .

على أن هناك ناقدا لزيدان كان من السابقين الى نقد كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » نقدا موضوعيا تزيها هو الدكتور محمد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .. مادة زيدان ص ٨ .

حسين هيكل « باشا » ، وكان زيدان قد أهدى إليه نسخة من كتابه، على غير سابقة معرفة بينهما كما يقول هيكل ، فأكبر الرجل هذه اللفتة وتفرغ لقراءة الكتاب بامتعان ، وخرج من القراءة بنقد نزيه مؤدب نشره في « الجريدة » سنة ١٩١٢

وقد سبق أن أشرنا هنا الى نقد الدكتور يعقوب صروف واتسامه بالأدب والهدوء واللباقة وعدم التجريح . ونجد هنا المجال مواطياً للاستشهاد ، ففي عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ دخل صروف ميدان النقد لتاريخ آداب اللغة العربية بكلمة وجية ذات دلالة يقول فيها : ( ولا شبهة في أن كثيراً من منقولاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد الجمع والتبويب ) . وقد ترافق صروف بهذه العبارة الناعمة بصديقه زيدان في خلال معركة عنية سلت فيها السيف عليه من كل جانب ٠٠٠

ولا تزال معركة النقد لكتب زيدان قائمة لم يفصل الموت فيها . وستظل المعركة قائمة ما دام الكتاب يبقى حياً بعد صاحبه . ومن أحدث الاتقادات الموضوعية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ما كتبه الدكتور أنطون كرم في الفصل الخاص بالشعر العباسى حتى آخر عصر المتبنى من كتاب « الأدب العربى فى أيام الدارسين » ، فمع تقدير الناقد للمظروف والزمان الذى ألف فيه كتاب زيدان فإنه يرى أن به آفتين كبيرتين : الأولى ترجع إلى « ذهنية » المؤرخ لدى زيدان فقد غابت على ذهنية الدارس الناقد ،

فطني التاريخ على الأدب ، والثانية مردتها إلى أن التمهيد العام الذي وضعه زيدان ص ١١ - ٤٢ لا يرتبط بالشعر إلا من بعيد ، وأن المقدمات الخاصة التي جعلها لكل مائة من المئات العباسية الثلاث قد لا تخلو من الخطأ ، لفروط ما فيها من التعريم ، أو قد يتخد فيها الدليل والدليلين فيسوقهما قاعدة (١) مطلقة ٠

وعلى الرغم مما وجه إلى كتب زيدان من انتقادات كثيرة في معرفة طويلة موصولة ، فإنها كانت تروج رواجاً عظيماً عند القراء ، وطبعت مراراً ، وترجمت إلى لغات كثيرة أوروبية وشرقية ٠ ويعرف هو نفسه بهذا الرواج والتقدير والقبول ، ويقول : ( ولا نقول ذلك للتفاخر فانتا من أبعد الناس عن التنويه بأعمالنا ، وإنما نقوله - رغم ارادتنا - تقريراً للحقيقة ) (٢) ٠

وقد حظيت روايات زيدان التاريخية برواج آخر عظيم لم تصادفه مؤلفات في عصره ولا في الجيل الذي بعده ٠ ويشير صاحب « مرآة العصر » إلى هذا الرواج الذي لم يسبق له مثيل في اللغة العربية (٣) ٠ ولا نعيد هنا مسألة ترجمة مؤلفات زيدان إلى غير العربية ، ولكننا نؤكد أن بعضها ترجم حتى إلى الروسية والبرتغالية والألمانية ، وأن معظمها ترجم إلى لغات شرقية منها لغة « التاميل »

(١) الأدب العربي في آثار الدارسين - ص ١٢٦ ٠

(٢) تاريخ أداب اللغة العربية . ج ٣ ص ٦ ٠

(٣) مرآة العصر . ص ٤٦٤ ٠

في ستفافية ° والأذربيجانية °، والهنديانية °، والفارسية ° وليس هناك غرابة في أن ترجم كتب زيدان إلى اللغات الأوربية التي اعتمد هو عليها في تأليفه ، فإنه قد أفاد من المصادر العربية التي بين يديه فائدة عظيمة ، وجمع منها مادة وتفاصيل حضارية – وخاصة في تاريخ التمدن الإسلامي – إلى حد أن الدارس الأوروبي كثيراً ما يجد في هذا الكتاب بالذات تفاصيل لا يجدها في مكان آخر (١) °

وليس معنى هذا أن كتب زيدان كلها كان حظها الرواج المطلق ، فإن بعضاً منها لم يلاق النجاح مثل تاريخ المسؤولية ، والتاريخ العام ، وتاريخ انكلترة ، وجغرافية مصر °

وما رأينا منقوداً اتفق بنقد ناقدية مثل جرجي زيدان ° لقد كان يرحب بال النقد ، ويطلب منه القراء ، ويعمل به – أو بما يصح عنده منه – في الطبعات التالية لمؤلفاته ، حتى يجيء انتاجه أوفي مادة ، وأبعد من المأخذ ، وأقرب إلى الكمال °°°

والحق أن كتب زيدان قد راجت ونجحت وأقبل الناس عليها بما فيها هي نفسها من صحة وصلاحية ومسوغات للرواج ، لا بالعوامل الأخرى التي قد تؤتي بعض الثمرات العاجلة ولكنها لا تبقى على المدى الطويل ، كفنى المؤلف أو مركزه الاجتماعي أو نفوذه في الدولة ، أو تنظيم الدعاية له وحشد المهللين حوله ° وهي

عوامل لا تبقى طويلاً ، وإذا أفادت بعض الحين ، فإنها لا تضفي الصحة على العمل أو الاتساع في ذاته . وكثيراً ما كان زيدان يدق على هذا الوتر حين يتناول موضوعاً اجتماعياً في الهلال . وأكثر الفتن أنه كان يرد بهذا على هجوم ناقديه من حين إلى حين . ففي مقال بالهلال وعنوانه « لا يصح غير الصحيح » عالج الموضوع كأنه موضوع اجتماعي يتصل بنواميس الطبيعة في الحكم على الأصلح بالبقاء ، ولكن مرامي المقال كانت تتوجه في وضوح إلى آفة القد في الشرق ، لأن أهله - كما يقول - تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، وأما الانصاف الحقيقى في تقدير الأعمال فإنه موكول إلى الزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان الحقيقة (١) .

ولقد أثبت الزمان بعد أكثر من خمسة وخمسين عاماً أن أعمال زيدان باقية بعد زواله وارتحاله إلى عالم البقاء ، لأنها كانت أعمالاً صحيحة ، والقانون الطبيعي يقول انه : « لا يصح غير الصحيح » .

---

(١) الهلال سنة ١٩١٢ . ومخترات دار الهلال سنة ١٩٤٦ .



## أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى

اختار جرجى زيدان لطريقته فى الصياغة أن يجرى على أسلوب سهل لا تعقيد فيه ، وإذا كانت أمامه لفظتان مدلول واحد ، فإنه يؤثر اللفظة السهلة المسئنة على اللفظة الفربية المعجمية المستوحشة . أو بعبارة أخرى يؤثر اللفظ المستعمل على اللفظ المهجور .

ولقد بلغ من اغراقه فى ايثار السهولة أن اتهمه جماعة بالضعف وعدم الفحولة ، والبعد عن أساليب الفصاح . وما كان زيدان يحب « الشعية » فى شر العلم وخاصة التاريخ والأدب العربى فإنه آثر الأسلوب السهل ما دام هدفه الوضوح لقارئه . وقد حاول زيدان غير مرة أن بين للقراء أسباب ايثاره لهذه الأساليب السهلة فقال فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » : ( ٠٠ متحاشيا

الألفاظ المستهجنة ، والعبارات المعقدة ما أمكن ، متخدًا أفضضل  
 أسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة ، بغير اخلال ولا املا ( ) وهذه  
 الرغبة في افهام العامة والتحدث اليهم بأسلوب يفهمونه ولا يشق  
 عليهم قد وجدت منفذًا إلى ناديه باتهامه بضعف الأسلوب : فالشيخ  
 ابراهيم اليازجي كان غير راض عن أسلوبه وبعض عباراته العامة  
 وكثير من ألفاظه التي لم يكن يتحرى الدقة اللغوية في تحريرها  
 والمرحوم أحمد أمين في معرض الذكرى الخمسين لنشاء مجلة  
 الهلال لم يقتئ أن يشير إلى هذه الناحية . قاتلا : ( قد يؤخذ  
 عليه عدم الجزالة في تركيب جملته ، وعدم القوة في أسلوبه ،  
 وعدم الأناقة في تأدية معانيه ، ولكنه كان يعمد إلى ذلك عن مذهب  
 في الكتابة وعقيدة في الأسلوب ، و اختيار متعمد للمنهج الذي يسير  
 عليه ) ( ١ ) .

ولما كان هدف زيدان افهام قرائه وابلاغهم أفكاره ومعانيه عن  
 طريق سهل لا عوج فيه ولا التواء ، فإنه آثر طريق السهولة  
 والبساطة في التعبير ، وتجنب تجنبًا تاما الالتجاء إلى الحلى والزخارف  
 اللفظية التي كان لا يزال يستعملها فريق من كتاب آخريات القرن  
 التاسع عشر المحافظين على الأنساء والمحتفلين بالصياغة والعبارة أكثر  
 من احتفالهم بالمعاني والأفكار . الحق أنه كان يمثل التطور الجديد  
 في الكتابة والنشر ، ذلك التطور الذي بدأت طلائعه تظهر في كتابات

( ١ ) الكتاب الذهبي للهلال .

الشيخ محمد عبد المتأخرة ٠ وأعانته مجلته «الهلال» ٠ بل أعزتها هو ٠ على شر هذا اللون الجديد من الكتابة السهلة الواضحة ٠ وقد كان من كتاب الأفكار والترسل والسهولة كذلك الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقطف ، وكانت المجلتان بما لهما من فوائد الاتساع - وخاصة مجلة الهلال - ذواتي فضل في الدعوة إلى الأسلوب الجديد في الكتابة العربية الذي يتماز بالسهولة والوضوح، وإن كان صروف ظل محتفظاً برصانة الأسلوب وقوته وتماسكه أكثر من جرجي زيدان الذي أسرف في التسهيل والتجاوز إلى حد كبير ٠ ولم يسلم زيدان في عصره ولا بعد عصره من انتقاد أسلوبه وطريقته في التعبير ٠ ومن النقد المعاصر لأسلوب زيدان ما كتبه الدكتور محمد يوسف نجم في هذا الصدد حيث يقول : ( أما أسلوبه العام فيمتاز بالوضوح والسهولة ، فكان يخاطب الناس بلغتهم التي كانوا يفهمونها ويتفاهمون بها في صحفهم وكتاباتهم آنذاك ، لا بتلك اللغة الخاصة التي يلجأ إليها كتاب الأدب الصافي والشعر المثور ٠ وهو يكتب دون عناء أو كلفة بل يرسل قلمه حرفاً طليقاً لا يقيده بقيد غير قيود الدقة والإفهام ٠ وهو لا يعتمد تجميل الأسلوب وتفخيمه ، ولذا أنت كتاباته عاطلة من حل البديع والزخرفات الكتابية والزركشات البينانية ، والوصف المسبب الفضفاض ، فقد كان يتوجى تأدية فكرة وبلغ غاية فحسب ، دون النظر إلى الاعتبارات الفنية ٠ وليس هذا بمبرر له على كل حال ،

فقد كان بأمكانه أن يحافظ على جمال الأسلوب ، دون التورط في الصنعة والتلف والتعقيد ) ١ ) .

ويخيل إلى أن زيدان قد بولغ في الحمولة على أسلوبه نتيجة للحملة القوية التي حملها الشيخ إبراهيم اليازجي في عصره . فقد كان اليازجي محافظاً كل المحافظة على أساليب الفصاح واللفاظهم ، وكان لانتقاداته اللغوية أثر كبير في النقوس ، فتأثر بهذا النقد قراءوه وتابعوه في الحكم على أسلوب زيدان ، وظلت هذه التأثيرات ممتدة بمحكم المتابعة والتردد إلى وقتنا هذا . والا فإن أدبياً ونادراً كثيراً مثل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل لم يقلل من شأن أسلوب زيدان الواضح البسيط الدقيق حين نقد أحد كتبه في جريدة «الجريدة» سنة ١٩١٢ ، وإن كان هيكل قد عرج في لطف ولباقة على تعبير زيدان الفريبة فيقول : ( فانك تراه واضح الأسلوب تماماً ، يكتب للناس بلقفهم المتعارفة التي يتفاهمون بها في جرائدتهم ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المخصوصة التي يتخدتها جماعة من الكتاب درعاً لهم يقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعبير التي يجيئون بها ، ويكتب من غير عناء ولا تكلف ، بل يرسل قلمه حراً إلى أقصى درجات الحرية . لذلك يجيء أحياناً بتعبير لو استعادها الكاتب أمام نظره لرأها غير صالحة في الكتابة . كما أنه يجيء أحياناً أخرى بتعبير غريبة خاصة له ، كقوله مثلاً في مواضع متعددة من كتابه :

---

(١) القمة في الأدب العربي الحديث ١٠ ص ١٩٦ .

« الى هذه الغاية » يريد بذلك أن يقول : « الى الآن » ٠ ومثل ذلك تعبيران أو ثلاثة يجدهما القارئ، ثم يعتادها باعتياده لغة المؤلف )١( ٠

وبعد جرجى زيدان من الاحتفال بالعبارة الفخمة والأسلوب الانشائى كان نتيجة لاشتغاله بالصحافة الأدبية بانشائه مجلة الهلال ٠ كما أنه كان نتيجة لميله الخاصة فى التعبير عن أفكاره من أسهل طريق وأقربه إلى نفوس العامة ٠ والا فان أدبيا مثل المرحوم أحمد حسن الزيات قد اشتغل بالصحافة الأدبية ، وكان صاحب مجلة « الرسالة » ورئيس تحريرها ، وكاتب مقالها الأول غالبا ، ولكنه لم يؤثر الأسلوب الشائع فى كتاباته بل اتخذ له أسلوبا بلغا متأنقا كل التائق ٠ فالمسألة اذن ليست مسألة صحافة أدبية ، ولكنها مسألة ذوق شخصى ، وميل ذاتى ٠

فالاحتفال بالأشياء لم يكن فى حد ذاته هدفا ولا غاية عند زيدان ، ولكن هدفه كان الافهام وابلاغ المعانى فى بساطة وسهولة ٠ وما أصدق الشيخ يوسف الخازن وهو يقول عن جرجى زيدان فى هلال نوفمبر سنة ١٩١٤ : ( وقد أدرك فقيتنا أن الأشياء إنما هو فى الحقيقة أداة تفahم بين الكاتب والقارئ ) ، يراعى فيه ما يراعى فى الأدوات من المتنانة والبساطة ، ولا سيما فى الصحافة ، فخالف

---

(١) في أوقات الفراغ ٠ للدكتور محمد حسين هيكل ٠ ص ٢١٧

بذلك الذين يعدون الانشاء غاية بحد ذاته ، فيصرفون قسما عظيما من وقتهم وعثائهم في اتقانه ) .

وقد وصف أحد المحتفين بجرجي زيدان أسلوبه الكتابي بأنه ( صورة نفسه ، وأنه الأسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ ، فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الأحساس ) (١) . ثم عاد هذا الكاتب مرة أخرى إلى أسلوب زيدان فوصفه بأنه ( أسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للمعنى ) (٢) . ولكن هذا الكاتب نفسه قد عاد في الكتاب نفسه يعيّب أسلوب زيدان بأن معلم أسلوبه لم تكن واضحة وضوح أسلوب الأدباء ، فهو عالم وباحث ومحرر (٣) . وترى الاضطراب باديها في هذه الأحكام ، فكيف يكون الأسلوب أولاً بسيطاً واضحاً ، ثم يعود غير واضح العالم مثل أسلوب الأدباء ؟ وقد وصف الأستاذ أنيس المقدسي أسلوب جرجي زيدان بأنه ( سهل يأنس به الجمهور ولا تذكره الخاصة ) (٤) . وهذا الوصف مشتق من وصف زيدان نفسه لأسلوبه الذي يقول فيه : ( أفضل أسلوب تفهمه العامة ، وترضاه الخاصة ) كما أوضحنا في بداية هذا الفصل .

---

(١) من أعلام الفكر والادب . ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٨٦ .

(٤) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١١ .

ولم يفت مؤلف كتاب «تطور الرواية العربية الحديثة» أن يتناول أسلوب زيدان في رواياته التاريخية ، ولم يتجاوز ذلك إلى أسلوبه في دراساته الأدبية والتاريخية . فيقول عن أسلوبه في الروايات : ( .. يعمد إلى أسلوب سهل مبسط أقرب إلى أسلوب السرد العلمي البسيط الذي يفيد القارئ ويوصل إليه معلوماته ) . وقد كان خليقاً بزيدان أن يكون أسلوبه في رواياته غير أسلوبه في مباحثه ودراساته . فان الرواية تحتاج إلى شيء من فنية العبارة وأنماطها وعلو أنصائها ، ولكن زيدان لم يحفل بذلك في رواياته لأنه كان يرمي من ورائها إلى تعليم التاريخ عن طريق القصة .

وقد اضطرر زيدان في رواياته إلى استعمال بعض التعبيرات العامية في الحوار ، ففى رواية «استبداد المماليك» - مثلاً - نجد صوراً من عبارات تمثل لغة الناس فى عصر المماليك ، وقد تسربت إليه هذه العبارات من كتب التاريخ التي كتبت فى ذلك العصر . وليس معنى هذا أن زيدان كان ميلاً إلى العامية أو داعياً لها ، بل على العكس من ذلك نراه مناصراً للفصحى على العامية . فحينما ألقى المستر ويلكوكس المهندس بالرى المصرى محاضرة فى سنة ١٨٩٣ عنوانها «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» . وكان مكان القائمة فى نادى الأزبكية ، سمع الناس من هذا الداعية الدهاهية كلاماً غريباً ، فقد زعم هذا الرجل أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم لا يزالون إلى يومه يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو أنهم تخلصوا منها ، وألفوا وكتبوا بالعامية لأغانٍ

ذلك على خلق ملكة الابتكار وتميزها عندهم . وحينما انتهى ويلكوكس من ألقائه محاضرته وتم نشرها سنة ١٨٩٣ في مجلة «الأزهر» التي آلت ملكيتها إلى ويلكوكس نفسه وشريكه الأستاذ أحمد الأزهري ، وكان نشرها بلغة ريكة ، لم يسكت جرجي زيدان على هذا الكلام الفارغ ، ورد على ويلكوكس يخطئه فيما ذهب إليه من رأى ، وارتدى زيدان أن من الممكن التقرب إلى الأفهام بتجنب الألفاظ الغريبة والأساليب المعقدة ، وختم رده المقعن المفحوم بيان مذهبه وهو أنه ( يجب أن تكون عبارة الكاتب في البحوث التاريخية والأدبية عبارة بسيطة ، واضحة ، سلسة ، خالية من كل تعقيد ، حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء ، لا يقف لحظة لفهمها ، ولا يحتاج إلى مراجعة المعاجم اللغوية ) . وعند زيدان عجز الكاتب أو المؤلف عن افهام الناس نقصاً في واجبات صناعته ، واحلالاً بشروط مهنته .

وتفطن زيدان في خلال رده على ويلكوكس ومن ذهب مذهبه في الدعوة للعامية إلى أننا لو استبدلنا العامية باللغة الفصحى ، تكون كمن ينقد نفسه من شر - لو صبح أن الفصحى شر - ليقع أو يوقع نفسه في شر أعظم ، لاختلاف العامية باختلاف الأصوات والأقطار العربية ، فنكون قد عدنا اللهجات الأقليمية على حين أن اللغة الفصحى واحدة وموحدة بين أبناءعروبة في كل أرض . فالعامية توجد تباعداً بين أبناء العروبة ، وتخلق بينهم هوة سخيفة ، على حين تؤلف اللغة الفصحى ما بينهم .

ولقد وقف زيدان من الألفاظ الغريبة ، والاستعمالات القديمة موقفا محددا لم يحد عنه ؛ وعنده أن الذين يكتبون أو يؤلفون ليبيان قدرتهم على الآنساء والغوص على المعانى العويصة والألفاظ الغريبة إنما يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص ، ومع فضلهم ومتزلتهم فانهم يكتبون لغير الخدمة العامة (١) .

وكان ايمان زيدان بعدم التقليد والمحاكاة فى أسلوب الكتابة والتأليف وفي استعمال الألفاظ ، ايمانا بالتطور اللغوى للألفاظ والأساليب ، وهو دليل على حياة اللغة وحيويتها وبعدها من الجمود على قوالب مصبوبة . وكان يرى أن من حاول الوقوف فى سبيل التطور اللغوى فقد عارض سنن الطبيعة . فان الألفاظ القديمة تذهب ويحل محلها ألفاظ جديدة . على أن ابعاد زيدان من المعاشرة فى استعمال الألفاظ الغربية ، لم يعن بحال أنه كان منحرفا إلى دعوة العامية التى قامت فى أيامه ، وعادت بعض الأصوات الحافلة لها من قريب .

وكان زيدان - بالإضافة إلى تطبيقه العملى فى مؤلفاته وكتاباته للألفاظ والعبارات المألوفة - لا يدع مناسبة تمر دون الهجوم على الأساليب المصطنعة الحافلة بالزخارف اللغوية والأنراب . ففى السنة الخامسة من الهلال ينتقد بعض الكتاب الذين يستعملون غير المألوف

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ - المقدمة ص ٣ - ٤ .

من الكلام اظهاراً لمقدرتهم الانشائية فيقول : ( وقد قرأنا في كتاب صدر بالأمس عبارة تمثل ما نحن بصدده أراد بها كاتبها وصف المغاربة فقال :

وقد هاجت منهم الضراغم ، وطارت القشاعم ، وثارت الغمامع ،  
وماجت الحضارم ) ، وكانت البساطة والسلسة والسهولة والوضوح  
الذى ميز كتابات زيدان واضحاً في مجلة الهلال أولاً ، وفي مؤلفاته  
الكثيرة ثانياً . والى هذه البساطة يعزى السر في انتشار مجلة الهلال ،  
وانتشار كتب زيدان انتشاراً لم يعهد له مثيل في الاتجاه الحديث .

ولعلنا بعد هذه الدراسة السريعة للأسلوب زيدان نرى من  
التوضيح أن نعرض نموذجاً لكتابته يؤيد ما ذهبنا وذهب إليه النقاد ،  
فإن القضايا بغير مثال لا تتضح معالمها في الأذهان . وأسلوبه  
التقريري في آداب اللغة العربية والتمدن الإسلامي وتاريخ مصر  
الحديث معروف متداول بين أيدي قراء هذه الدراسات . أما أسلوبه  
في البحوث الاجتماعية فإن المقال التالي - وهو مما شرط الهلال  
سنة ١٩١٢ - يدل عليه تمام الدلالة ، ويتمثله أصدق تمثيل .

\*\*\*

قال جرجى زيدان بعنوان « لا يصح غير الصحيح » :  
ان بقاء الأصلح من القواعد الطبيعية الداخلة في ناموس  
النشوء والارتقاء . وهو عام يجري على كل شيء من الطبيعتين

والمعنىات والأدبيات . فكما يقضى على بعض الحيوانات بالانقراض لأنها لا تصلح للبقاء فيما يحيط بها من البيئة ، فهو يقضى أيضاً بذهب ما لا يصلح للهيئة الاجتماعية من الآراء أو القوانين ، واستبدالها بما يلائمها . ويحكم بانقراض العادات أو الطقوس أو نحوها مما لا يناسب شئونها . وقس على ذلك سائر أحوال الاجتماع ، مما لا يحتاج إلى تطويل في اثباته . وإنما الغرض الآن اثبات ناموس آخر ، هو في ظاهره اجتماعي أو أدبي ، لكنه ينطبق على سائر المجرى الطبيعية ، ونعني به قولهم : « لا يصح غير الصحيح » .

إن هذه القضية من الطواهر الطبيعية ، بل هي من أصدق تلك الطواهر ، لأن الطبيعة بذاتها لا تعرف غير الصحيح ، ولا تقبل التملق أو التمويه ، ولا تعرف للسبب الواحد إلا نتيجة واحدة ، ولا عبرة لديها بالظواهر الخارجية ، لأنها تعول على الجوهر دون الأعراض ، فإذا أديت قطعة من الحديد إلى مقنطيس اجتبها إليه لأنها حديد . ولو جعلتها بين عشرات من قطع المعادن المختلفة لاستخرجها من بينها وأن تشبه ظواهرها ، ولا يخدعه تلوين تلك القطعة بغير لونها الأصلي ، أو تشكيلها بغير شكلها .

على أن هذا الناموس يشمل أيضاً عالم النبات والحيوان ، وأن لم يظهر فيما واصحاً مثل ظهوره في الجماد ، لتنوع الفواعل الحيوية ، واحتلاط أسبابها وتائجها .

فإذا انتقلنا إلى التفاعل المعنوي أو الأدبي في نظام الاجتماع رأينا هذا الناموس أقل ظهورا وأبطأ انتاجا لأنه يتوقف على قوى أكثر تشوشا واحتلاطا . ولكن لا بد من هذا الظهور عاجلا أو آجلا . فكم من الآراء العلمية طمستها الأغراض ، وحالات دون ظهورها دهرا طويلا ، ثم ظهرت كالشمس وفاز أصحابها ، كما فاز القائلون بدوران الأرض مثلا بعد أن حكم على قائليه بالكفر .

وهو يصح أيضا في الآراء الاصلاحية اذا وقفت في سبيل ذوى الأغراض من المقلدين الجامدين ، فإنها قد تبقى قرونًا يعشها غبار التمويه والمغالطة ، ثم تظهر ولو بعد حين – كان ذلك حظ أكثر المصلحين من الفلاسفة القدماء إلى الشارعين والأنبياء .

وكما أن الآراء الصحيحة قد يغشاها التمويه ولا تظهر إلا بعد حين ، فالآراء الفاسدة قد يحييها التمويه حينا فلا يظهر فسادها الا بعد مرور الأجيال ، لكن لا بد من ظهوره . وقس على ذلك ما يقبل المبالغة أو التمويه من الأعمال التجارية أو الصناعية ، فإن أصحابها يعلنون عنها ويحسنوها وبالغون في اطرائهما ، لكن نجاحها أخيرا لا يكون إلا على قدر ما تحويه من الصحة . ويدخل فيه الإعلان عن بعض العقاقير الدوائية الخاصة ببعض الأمراض ، فإن أصحابها يجعلون أكثر تعوييلهم على الإعلان ونشر الشهادات ونحوها ، فإذا لم يكن الدواء مفيدا ذهب الإعلان عبثا . ولا خلاف في أن الإعلان يفيد صاحبه ، لكنه لا يخفى الحقيقة ، وإنما يعجل

ظهورها ٠ واعتبر ذلك في الإعلان عن الكتب وغيرها من ثمار القرائح ، فانها أكثر تعرضا للغorer من سائر « المعروضات » ، لأن الانسان مقوون ببنات أفكاره ، وكتابنا ما يزالون بعيدين عن النقد الصحيح في بيان حقيقة ما يعرض عليهم من المؤلفات ، ويندر فيهم من يخلص النية في نقد الكتاب وبيان حقيقته ٠

وقد يكون من أسباب التمويه في وصف ثمار القرائح ثروة المؤلف أو وجاهته في الهيئة الاجتماعية ، أو نفوذه في الدولة ٠ فينصرف هم الكاتب الى اطرائه تزلفا أو تهيبا ٠ وبالعكس اذا كان المؤلف متهمًا في دينه ، أو مخالفًا للمقرظ أو المؤرخ في المبدأ ، أو الرأي ، أو المذهب ، فإنه يبخسه حقه ، أو ينحي عليه بالطعن ٠ وهذه العلة قديمة في الشرق ، أصيب بها أكثر المؤرخين عند ذكر معاصرיהם من الأدباء والشعراء ٠

واعتبر ذلك في سائر العصور الى الآن ، ولا سيما في الشرق ، فإن أهله تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، حتى أصبح طلاب الأدب لا يعولون على ما يقوله الصحف في وصف الكتب ، ويندر لأحدهم أن يبعث في اقتاء كتاب لمجرد ما يرى من تقريره في الصحف ، خلافا لما يفعله قراء اللغات الأفرونجية ، فإنهم يتقوون بما يقوله أرباب النقد في الصحف الراقية ٠ وأما الانصاف الحقيقى فى تقدير الأعمال فإنه موكول للزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان

الحقيقة ، اذ تتوالى الأجيال ويمضي المعاصرون بما تضمه جوارحهم من تضاغن أو تحاسد ، ويبقى العمل ، فينظر اليه أهل الأجيال التالية بعين خالية من الفرض ، فيحلونه محله من الاجلال أو الاغفال ، عملاً بسنة البقاء للأصلح . وهي مبنية على القاعدة التي صدرنا بها هذه المقالة ، تعنى « لا يصح غير الصحيح » .

## موقف حائر

لقد تعرض حرجى زيدان بدراساته لتاريخ العرب والاسلام، وبرواياته التى تتناول التاريخ الاسلامى على مدار الطويل، لاتهادات كثيرة من الفرق الاسلامية المختلفة ، والطوائف المتعددة . والحق أنه فتح على نفسه بابا ما كان أغناه عنه ! ولكن الرجل كان باحثا ، وكان يفتش فى تاريخ واسع متشعب للعرب والمسلمين ، وما كان يدرى أنه لن يرضى أحدا مهما وقف موقف المحايدين حتى المسيحيون أنفسهم لم يسلم من انتقاداتهم .

والذى يكتب فى تاريخ العرب والحضارة العربية الاسلامية لا بد أن يصادفه كثير أو قليل من أصحاب الميل والتزاعات المختلفة الذين قد لا يرضون عن كلامه ، وقد يسيئون الظن به ويتهمنوه باللهوى أو الميل مع هذا أو ذاك .

وهناك من المسائل المذهبية الشائكة ما لا يسلم من يخوضها - ولو متحرزا - من اتهامه بالتعصب أو التحرب لفريق على فريق . ومهما بلغ الحذر والحرص بالباحث المؤلف في أمثال هذه الشئون فلن يسلم من التهمة . وقد تحمل الريبة على أن يساء فهم كل كلمة يقولها وأن تنزل في غير منزلتها التي أرادها كاتبها .

وقد يدعا اتهم ابن حزم الأندلسى وشنع عليه لأن له رأيا يخالف رأى الشيعة في عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على ابن أبي طالب . وما زلت أذكر الحملة الشديدة التي حملها عليه الأستاذ العلام عبد الحسين أحمد الأميني في كتابه « الغدير » (١) . وما زلت أذكر ما تعرضت له كتب « العقد الفريد » ، و « الملل والنحل » و « البداية والنهاية » لابن كثير المؤرخ ، و « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » للشيخ محمد الخضرى ، و « فجر الإسلام » و « ضحي الإسلام » لأحمد أمين ، و « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل وغيرها من نقد عنيف ، وهجوم شديد لأنها تناولت مسائل تمس بعض المذاهب الإسلامية ، أو تعرضها من وجهات نظر مغايرة ، أو تسكت عن ابداء الرأى فيها على حين يرى أتباع هذا المذهب أو ذاك وجوب تناولها .

ومن هنا كان موقف جرجى زيدان مؤرخ الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية حرجا كل الحرج . فهو لا يعدم ان أرضى هذا

(١) الغدير - ج ١ ص ٢٩٠ .

الفريق أن يسخط فريقا آخر ! وهو لا يعد ان ذكر رجالا من  
أهل السنة أن يتهم باغفال رجال من أهل الشيعة .

وعلى الرغم من الحيدة المطلقة ، ومن التجرد من التحرب  
الذين اتبعهما زيدان وهو يؤرخ للعرب والاسلام وتمدنهما ، فإنه  
لم يسلم من سهام الناقدين تهمه بما لا يكون قد خطر للرجل  
على بال .

وقد أخذت الاتهامات تتواли على الرجل من كل جانب منذ  
اللحظة التي امتشق فيها القلم ليؤلف . وقد تكاثرت عليه الاتهامات  
إلى حد لم يوجد معه بدا من الأشارة إليه في مقدمات بعض كتبه .  
ففي مقدمته لتأريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثالث - يقول ويقاد  
الأسي يعصره : ( تصدينا للكتابة في تاريخ الاسلام والقراء لم  
يتعودوه ، وال المسلمين معجبون بتاريخهم ، وغير المسلمين لا يعرفون  
عن الاسلام ألا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة ) ، فكان حظنا  
من المؤاخذة مضاعفا ؟ غضب بعض المسيحيين لأننا - على زعمهم -  
بالغنا في ذكر فضائل الاسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمرopic من  
النصرانية ، وقال بعض المسلمين انتا قصرنا في ذكر فضائل  
الاسلام ) .

فتصور الى أي حد بلغ موقف الرجل وحيرته بين أهل  
الأديان والمذاهب ، حتى لقد اتهمه بعض قومه من المسيحيين بأنه

فارق من دينه ، واتهمه بعض المسلمين بأنه لم يذكر فضائل الاسلام على أكمل وجهها ، فقصر في ذكرها .

ولقد كانت الحساسية التي تقابل بها مؤلفات زيدان في العرب والاسلام بالغة شديدة عند أهل كل فريق من تلك الفرق المتعددة في الاسلام . فهم يقرعون كل كلمة من كتبه . ولا يقفون عند ظاهر معناها ، بل كثيرون ما كانوا يقلبونها على معانٍ مختلفة ، وقد يحملونها أكثر مما تحتمل ، وقد ينسبون إلى الرجل ما لم يفرض به صريح عبارته .

وكان المتهمون لزيدان لا يكتفون بالاشارة العابرة ، واللمحة الحاطفة ، ولكنهم كانوا يطيلون القول في اتهامه ، حتى لقد نشرت مجلة « العرفان » في صيدا التي أنشأها المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين نقداً طويلاً لأحد كتب زيدان زادت صفحاته على الخمسين صفحة . وقد وقع المقال شيئاً نجفي من أسرة كاشف الغطاء (١) ، وفيه عتاب لزيدان لأنه أهمل أن يذكر في كتابه بعض علماء الشيعة الأمامية الذين ذكر أسماءهم كاتب المقال . وقد لاحظ زيدان أن أصحاب هذه الأسماء - التي زعم الكاتب اهتمالها واغفالها - ليسوا من علماء الأمة الشهورين ، ولم يختلفوا آنذاك تفيد المطالعين ، فهم محصورون في نطاق ضيق لم يمتد إلى سعة غيرهم من المذكورين .

---

(١) تاريخ أداب اللغة العربية . ج ٣ ص ٦ .

ولقد لاحظ بعض الذين ترجموا لزیدان او ألموا المما سريرا  
بسيرته ما تعرض له من سخط بعض المسلمين على آرائه التي لم  
يأت بها الرجل من عنده ، ولكنه كان ينقل عن مصادر متباعدة في  
الاعتقادات والمناهج والميول ، ولعلهم - وهم مسلمون محافظون -  
لم يرضوا أن يعمد زیدان - وهو الكاتب المسيحي - الى أن يخوض  
في موضوعات اسلامية بحثة كما يقول المستشرق كراتشيفسكي (١)

والحق أن الباحث في أمثل الموضوعات التي عالجها زیدان في  
تاریخ الأدب العربي وتاریخ التمدن الاسلامي معذور حين لا يتأنى  
له ارضاء الناس على اختلاف ميولهم . وكأنما أراد الرجل في مقدمة  
لأحد تصانيفه أن يتمس لنفسه العذر فيما وقع فيه من المحرج ،  
الذى هو ليس حرجا مختصا بزیدان وحده ، ولكنه حرج لمراكز  
الكاتب الشرقي عموما بين فرائنه حين يتحدث في مثل هذه المسائل ،  
فليس في الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء  
والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطننا ومشربنا ومذهبنا  
وتربية ، فلا يتأنى لكاتب ارضاؤهم جميعا ، ولو أتوه علم الأولين  
والآخرين (٢) .

ولقد بلغ من حيرة زیدان في هذه الاتهامات أن ميزان التهم  
لم يكن على سواء في أيدي المتهمنين المختلفين المشارب والأهواء ،

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) مقدمة الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية .

فإذا أطال في موضوع لم يعدم من يقول له إنك أطلت فيما لا تحمد  
 فيه الأطالة ، وإذا أوجز في موضوع لم يعدم من يتهمه بالتكليل من  
 شأن هذا الموضوع . وإذا سكت عن موضوع قيل له لم أغضيتك عن  
 تناوله . وقد استطاع الدكتور محمد حسين هيكل أن يقف موقف  
 الاتهام لزيidan بأنه في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » قد سكت  
 عن الكلام على القرآن الكريم والحديث النبوي سكتا مطلقا ، لأنهما  
 لا يدخلان في تاريخ أدب اللغة العربية ، بينما يدخل الطب والكهانة .  
 وأخذ الدكتور هيكل يوجه الاتهام إلى جرجي زيدان قائلا :  
 ( وأحسب أن لنا من الحق أن نسأل عن سبب هذا السكت ) . لم  
 لم يذكر المؤلف شيئا عن التاريخ الأدبي للقرآن ، وصلته بالأدب  
 الجاهلي والفرق بينهما ؟ القرآن كتاب كريم ، ذو شأن عظيم ، لا في  
 أمر الدين الإسلامي فقط ، بل كذلك في أمر آداب الأمة العربية  
 وسياستها وكل جهات حياتها . لذلك كما نود أن يوقفنا كاتب  
 « تاريخ آداب اللغة العربية » على الأصول الأدبية الذي استمد منها  
 هذا الكتاب وجوده (١) وأخذ الدكتور يتلمس الأسباب ويتصيد  
 الأعذار لزيidan في هذا الاغفال ، ثم خلص في النهاية إلى استنتاج  
 بأن زيدان لعله رأى أن في كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما  
 وقيمتها الأدبية ما يمس بعض العقائد . وهذا استظهار غريب من  
 الدكتور هيكل ، لأن الحرف من المساس ببعض العقائد لا يعالج

(١) في أوقات الفراغ - ص ٢٣٨ .

بالاهمال والاغفال ، ولكنه يعالج بالحيدة والحذر فيتناول الموضوع  
وليس التاريخ للقرآن والحديث موضوعياً مما يخشى منه المساس .

وبالغ بعض المتهمين لزیدان ، فاتهموه بالشuboية ، والتعصب  
لغير العرب على العرب ، ومحاولات التهوين من شأن العرب والاسلام .  
وكان قائداً هذه الحملة الشيخ شبل النعmani المصلح الهندي .  
ولكن من حسن حظ زیدان ان هذه التهم من جانب كان يقابلها من  
جانب آخر تقدير له وأشادة ب موقفه الكريمة من العرب والاسلام ؛  
فالمرحوم طاهر الطناحي يشيد بخدمات زیدان للعرب والاسلام (١) ،  
والأستاذ أنيس المقدسي يقرر أن روايات زیدان التي تدور على  
تاریخ العرب والاسلام قد أحدثت في نفوس الشء ، جيلاً بعد  
جيلاً ، وعیا قومیاً ، وحركت فيهم الميل إلى دراسة التاريخ  
العربي (٢) . وصاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب » يؤكّد  
أن جرجي زیدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب  
عربي يكتب للعرب (٣) . ومعنى هذا الكلام أنه ليس من العقول  
أن يحاول كاتب عربي فح - مثل زیدان - أن يجرد قومه العرب  
من فضائلهم أو يغمز بهم في تاريخهم .

وكيف يخطر على بال متهم أن يقول إن زیدان كان متعصباً

(١) عاصميون عظماء من الشرق والغرب ص ٧٦ - ٧٧

(٢) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١٧ .

(٣) من أعلام الفكر والأدب . للأستاذ أنور الجندي ص ٨٩ .

على العرب ، مع أنه في أكثر كتبه يعلى كثيرا من شأنهم ، حتى انتهى به ذلك إلى حدود المغالاة والمبالغات . فهو يضع العرب ، من حيث الثقافة والعقلية ، في مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفي عن العرب ما قد توهّمه البداؤة جهالة وتخلفا ، ويرفع حكماءهم في الجاهلية إلى مرتبة في الفكر والنظر لا تقل عن نظر أعظم الفلاسفة (١) .

وقد بلغ من غلو زيدان في تقديره للعرب من ناحية علومهم وحضارتهم أن الدكتور شوقي ضيف وهو يعلق تعليقاته ، ويضيف إضافاته التمهيدية في هامش الطبعة الأخيرة من تاريخ الأدب العربية لزيدان ، وجد نفسه مضطرا لأن يعلق على هذا الغلو قائلا : ( ينبغي ألا يبالغ في معرفة عرب الجاهلية بالطبع ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة ) (٢) كما لم يفت الدكتور محمد حسين هيكل أن يلاحظ هذا الغلو من زيدان في تقديره لعلوم العرب في الجاهلية ، فقال : ( نبدأ فنتقد الصورة التي وضع بها - زيدان - معارفه التمهيدية . فإن الذي يقرؤها يكاد يتصور أن عرب الجاهلية - على أنهم قوم بدوا رحل - قد بلغوا من العظمة في العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم في القرن العشرين ،

(١) انظر تاريخ أداب اللغة العربية ج ١ - ص ٣٤ .

(٢)تراث الإنسانية . المجلد الرابع . ص ٨١٩ من بحث محمد عبد الغنى

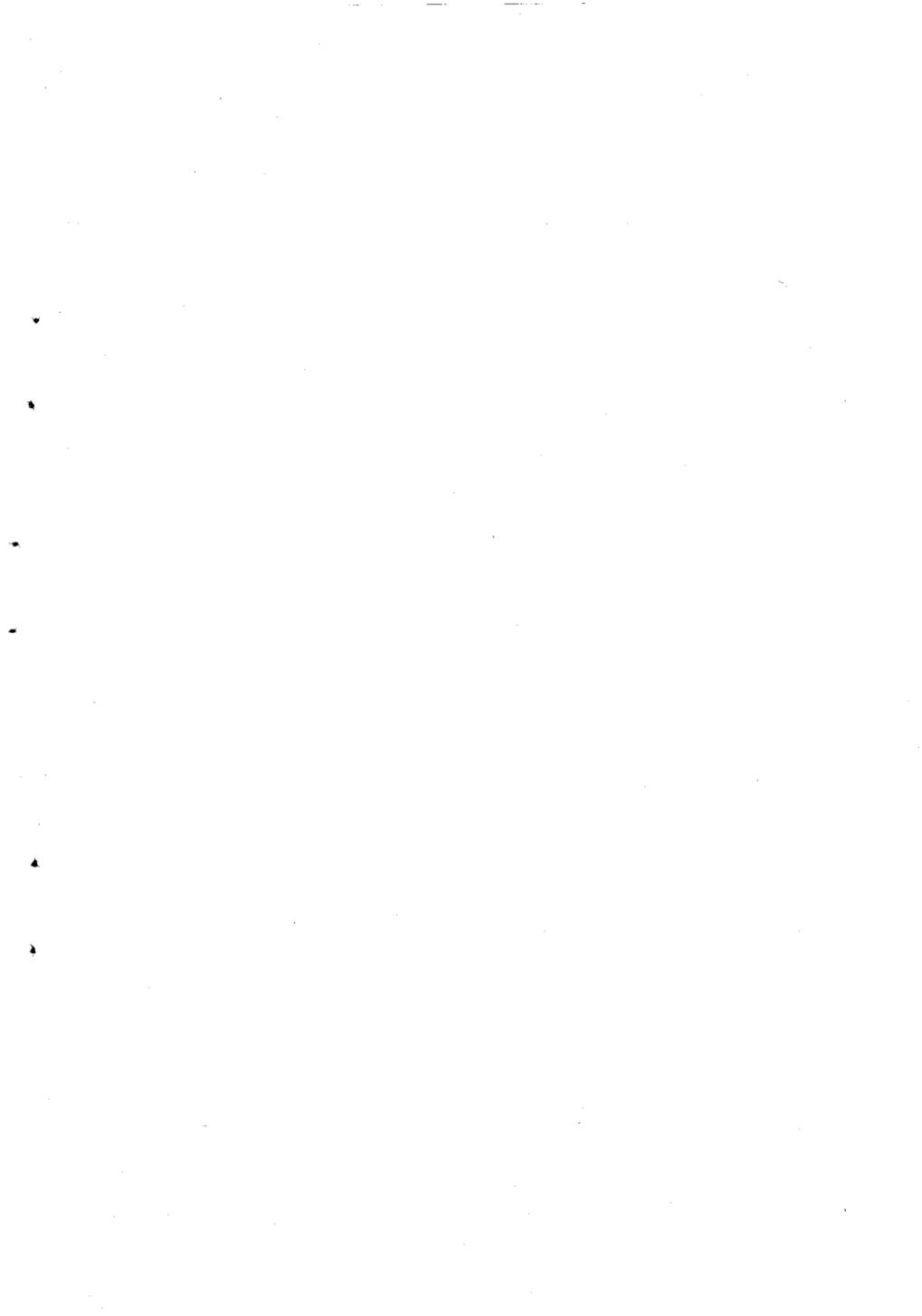
وذلك أمر لا يسهل تصديقه ) (١) . وممّن انتقد على زيدان مبالغته في بيان مآثر العرب والتتويه بفضلهم الأب لويس شيخو اليسوعي (٢) .

ويعجب جداً أن يتمّ زيدان في وقت واحد بالتعصب على العرب ، ثم يعبّر بأنه بالغ في التعصب لهم والتتويه بفضلهم ! وأن يتمّ بتقصيره في حق الإسلام ، ثم يمدح في الوقت نفسه بأنه خدم الإسلام ! وهذا التناقض هو الذي أوحى لنا بعنوان الفصل الذي نرجو أن يكون قد وضع الأمر في نصاشه .

---

(١) في أوقات الفراغ ٢٢٢ ص .

(٢) تاريخ أداب اللغة العربية . ج ٢ ص ٧ .



## بين العلم والسياسة

لقد كان جرجى زيدان من رهبان العلم الذين عكفوا على خدمته ، وترهبا فى محرابه ، ولم يمزجوها بين الاشتغال بالعلم والسياسة الا بذلك القدر الضرورى الذى لا يجعل من المرء انسانا متورطا ، أو منعزلا عن محیطه الذى يعيش فيه .

ولقد فرضت بعض ظروف معينة على طائفة من علمائنا وأدبائنا وشعرائنا أن يخوضوا معرك السياسة ، ويسيهموا فيها بالقدر الذى سمحت به ظروفهم وقدراتهم والجو المحيط بهم . كالبارودى الشاعر ، وعبد الله فخرى الكاتب المترسل ، وأحمد فارس الشدياق الأديب اللفوى ، وأديب اسحاق ، وابراهيم المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، والأمير شكيب أرسلان ، والدكتور فارس نمر وغيرهم . ولكن بعض علمائنا لم يحبوا السياسة ، ولم يتورطوا فى

الاشتغال بها ، كالدكتور يعقوب صروف محرر المقطف الذى ترك  
الاشتغال بالسياسة لزميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ، وتفرغ هو  
للعلم ومسائله فى المقطف .

وجرجى زيدان غالب عليه الاشتغال بالعلم والأدب والتاريخ ،  
ولكنه لم يجرد نفسه تجربا تماما من المشاركة فى أحداث عصره  
بالميل والرأى والمدافعة .

ولقد عاصر جرجى زيدان حوادث الانقلاب العثمانى ، وحركة  
الدستور ، وحركات الصراع العربى للتخلص من السيادة العثمانية .  
ولم يشأ الرجل أن يعيش على هامش الأحداث أو بمعزل منها ،  
فكأن له رأى واضح صريح في ذلك .

فحين أُعلن الدستور في تركيا تحت ضغط حزب الاتحاد  
والترقى في ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ سرت في البلاد فرحة ، كان لها  
دوى عظيم بين أبناء الشرق العربى الذين كانت لا تزال تربطهم  
بالدولة العثمانية روابط رسمية ، فوق روابط الأخوة الإسلامية  
التي كانت تجمع بين المسلمين في كل أرض . وما كاد الناس  
في تركيا والبلاد العربية المرتبطة بها سياسيا يفرحون بالدستور  
الجديد ، حتى خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وولى مكانه  
أخوه السلطان محمد رشاد . وكان فرح الناس بخلع عبد الحميد

لا يقل عن فرحةهم بالدستور (١) ، وفرح العرب بالعهد الجديد والتمسوا فيه سبيلاً إلى الاصلاح ، وشارك شعراء ذلك العهد في الفرح بالدستور وتعليق الآمال الكبيرة عليه . وما كاد الناس يفرحون باعلان الدستور حتى سادت موجة من التشاؤم وخيبة الأمل في نظامه . فقد كانوا يرجون منه أن يغير الأحوال ، ويصلح المائل من الأمور في يوم وليلة . ولكن الأتراك لم يكونوا على تمام الاستعداد للحياة الدستورية الجديدة التي فوجئوا بها ، وظهر من تطبيقات الدستور على الحياة أن هناك من وجوه النقص فيه ما يوجب اصلاحه اصلاً جذرياً .

وأنقسم الناس في ذلك إلى فرق ، فمنهم المتعجلون للإصلاح ، ومنهم الذين ينشدونه مع التريث ، وعدم الطفرة . ولم يجد زيدان من الحق أن يسكن ، وقد ازدحمت المعركة بالمتكلمين ثرا وشرا ، حتى لقد أخذ معروف الرصافي شاعر العراق ينظم قصائده متهمكاً يائساً ، وأخذ الشاعر القروي في البرازيل يرسل صوته من بعيد في المهر الجنوبي متحسراً على الآمال والأمانى التي ضاعت ، ولم يجد النساء ، ولم يلب غير تجاوب الأصداء ٠٠٠ . وإذا بنا نرى جرجى زيدان يدلّى بدلوه بين أصحاب الآراء ، فيكتب مقالاً في مجلة الهلال سنة ١٩١٠ عقب زيارة له إلى سوريا ولبنان ، فيلاحظ موجة التشاؤم واليأس التي سادت بعض الفوس ، ويحذر من

---

(١) الاتجاهات الأدبية في العام العربي الحديث . ص ٨٥ - ٨٦ .

التمادى فى ذلك ، ويتطرق فى مطالبة المصلحين العثمانين بالاصلاح السريع مع ما عانته الدولة العثمانية فى عهود الاستبداد الطويلة ، فيقول : ( وطائفة تعجلت استئمار الدستور ، فهى ت يريد أن تصير المملكة العثمانية التى قضت قرنين فى حال الاختصار ، وقد نضبت ماليتها ، وأجدبت أرضها ، وأظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها ، وفسد كل شىء حتى أخلاق أهلها ، واختل نظام اجتماعها ، وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها – ت يريد هذه الفئة من التقديرين أن تصير هذه المملكة فى سنتين مثل أرقى ممالك أوربا وهذا مستحيل ٠ ٠ ٠ )

والآن والتى يطالب به زيدان رجال السياسة فى ترکيا تنفيذا للدستور ، هما وسليته التى ينادى بها فى كل حركة دستورية أو نيابية . فهو يرى أن الدستور والحكم النيابي لا ينفع ما لم تكن الأمة مهيأة له ومستعدة لقبوله . ويبدى زيدان رأيه هذا عن الحكم النيابي فى مصر من مقال له فى مجلة الهلال سنة ١٩٠٧ عنوانه « الحكومة الدستورية » . فهو يستعرض الحركات السياسية والدستورية فى مصر فى القرن التاسع عشر الى أن قامت مصر تطلب إنشاء مجلس النواب ( ولم يكن ذلك الطلب عن أخلاص وروية ، فجاء مساعدنا على ما حدث فى مصر من الانقلاب السياسى المعلوم بعد الحوادث العرابية . والسبب الحقيقى فى ذلك أن الأمة لم تكن مستعدة لقبول هذا الأصلاح ، فتناولته كما يتناول الطفل الرضيع

قطع اللحم ، وهى مغذية ب نفسها ، ولكن معدته لا تقوى على هضمها ، فالجوع خير له منها ، والأمة اذا لم تكن تهيات للحكومة الدستورية فالدستور يضرها ، والأمور مرهونة بأوقاتها ) ٠

على أن هذه النظرة المستأنفة المترفة في الأمور ، تدل على اعتدال الرجل في رأيه وعدم تطرفه في أحکامه السياسية ، فهو لا يذهب إلى الأطراف المتناقضة ولكنه يقف موقف العتدل ، وقد أشار إلى هذا أحد المؤرخين له بقوله : ( ولقد كانت آراء جرجي زيدان وأفكاره ومناهيه في غاية الاعتدال ) (١) . واعتدال زيدان في السياسة هو قريين لاعتده الله في ميادين الفكر والعقل ، والى هذا الاعتدال الأخير يشير كراتشوفسكي بقوله : ( ولم يكن زيدان من أصحاب الأفكار الثورية في الميدان العقل ) ، أما اعتداله في السياسة فقد وصفه الأستاذ أنيس المقدسي بقوله : ( ومن العتديين الناظرين إلى الأمور بعين الروية جرجي زيدان ، منشىء الهلال ، فهو من طلاب الأصلاح السياسي ، ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذى يطالع أعداد مجلته ، ولا سيما في السنتين الأولى ، يراه عطوفاً على الدولة – يعنى الدولة العثمانية – ولعله كان يرى ، كما كان يرى أديب أسحاق وأصحاب المقطم وأمثالهم أن الرابطة العثمانية لازمة للشرقين ، وأن طلب الأصلاح لا يعنى القضاء عليها ، أو استبدال رابطة أخرى بها ) (٢) .

(١) من أعلام الفكر والادب . ص ٨٩ .

(٢) الاتجاهات الحديثة في العالم العربي . ص ٢٤ .

ولم تكن ميول زيدان السياسية ونزاعاته ليجلوها في مقالاته السياسية التي كان يكتبها في الهلال من حين الى حين ٠٠ ولكنها كان يبتهأ حتى في بعض مؤلفاته التي قد تكون ملائمة لآباء آرائه . ففي ترجمته التي جمعها في كتاب « ترجم مشاهير الشرق » كان ينتحز الفرصة ، فيعلن عن آرائه السياسية ويوضحها ، كما فعل في ترجمته للزعيم مصطفى كامل . وقد كان له في الثورة العربية رأى معروف صرح به في خلال سيرته لمصطفى كامل ، فهو يرى ( أن زعماء الجند كان أكثرهم من غير المتعلمين ) ، فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة ؟ وبعد أن كانت نهضة وطنية سياسية ، تحولت إلى ثورة عسكرية آلت إلى الاحتلال الأنجلزي وأمره معلوم . فلما ذهبت دهشة الحرب أتبه عقلاً الأمة فوجدوا أنفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شررين ، لاعتقادهم أنهم سفكوا دماءهم وبذلوا أموالهم للتخلص من شر الشراكسة – وهم يختلفون عنهم جنساً ويشتركون معهم في الدين – فإذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة أجنبية تختلف عنهم جنساً وديناً ) (١) .

وقد بلغ من اهتمام زيدان بالسياسة أنه ترجم بعض رجالها ترجم لا يأس بها في كتابه « ترجم مشاهير الشرق » ، وجعل في الكتاب باباً مطولاً خاصاً برجال الادارة والسياسة ، بجانب رجال الأصلاح ، والأدب ، والشعر في أبواب أخرى . ولم تخل بعض

---

(١) ترجم مشاهير الشرق ١٠ ج ١ ص ٣٤

الفصول التي كتبها في «الهلال» من معالجة بعض المسائل السياسية كما نجد في فصوله عن الحركة الدستورية ، وعن تاريخ الأحزاب السياسية ، وعن الحكومة الدستورية ، وعن الاشتراكية التي يعد من أوائل من كتبوا فيها في الشرق العربي .

وعلى الرغم من أن جرجي زيدان لم يكن متعاطفاً مع سياسة الحزب الوطني ، ولم يكن من أنصار مصطفى كامل ، فإنه قد رثاه مرثية جليلة مؤثرة بعنوان «مصطفي كامل رجل عظيم» . وبالطبع كانت المرثية في عدد من أعداد الهلال سنة ١٩٠٨ . وقد فاتت الكياسة والبلاقة جرجي زيدان في هذه المرثية - مع أن الرجل كان معروفاً بكيناسته - فانتقد زعيم البلاد وهو لا يزال مسجى في أكفانه . ولعل مجازاته هذا النقد ومجاوفاته للذوق والشعور العام ، والخطأ في توقيته في أعقاب الوفاة ، كان من المعايب التي لا ينساها الوطنيون لهذا العالم المؤرخ الجليل . . . .

على أن نقد جرجي زيدان لسياسة مصطفى كامل كان نقداً لتطرفه في آرائه ، لا نقداً لسلوكه في خدمة بلاده ، فإن الرعيم كان من هذه الناحية نقى الصفحة ، عفيف النفس ، فلم يتجر بالوطنية ولم يجعلها سبباً لكسب مغانم ، بل على الصدر من ذلك كانت تصحياته ومقارمه معروفة واضحة للعيان ، والى هذه التصحيات الغالية يشير المرحوم عبد الرحمن الرافعى في كتابه عن مصطفى كامل بقوله : (لقد ضحى أذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية

في سيل حياة الجماد التي اختارها لنفسه ، ولم يتحول عنها طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب الناس اليه ، وأعزهم عليه . ذلك أول مظهر للتضحية في تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التي تتضاءل بجانبها كل تضحية ، وهي بذلك حياته وشبابه في سيل مصر ) (١) .

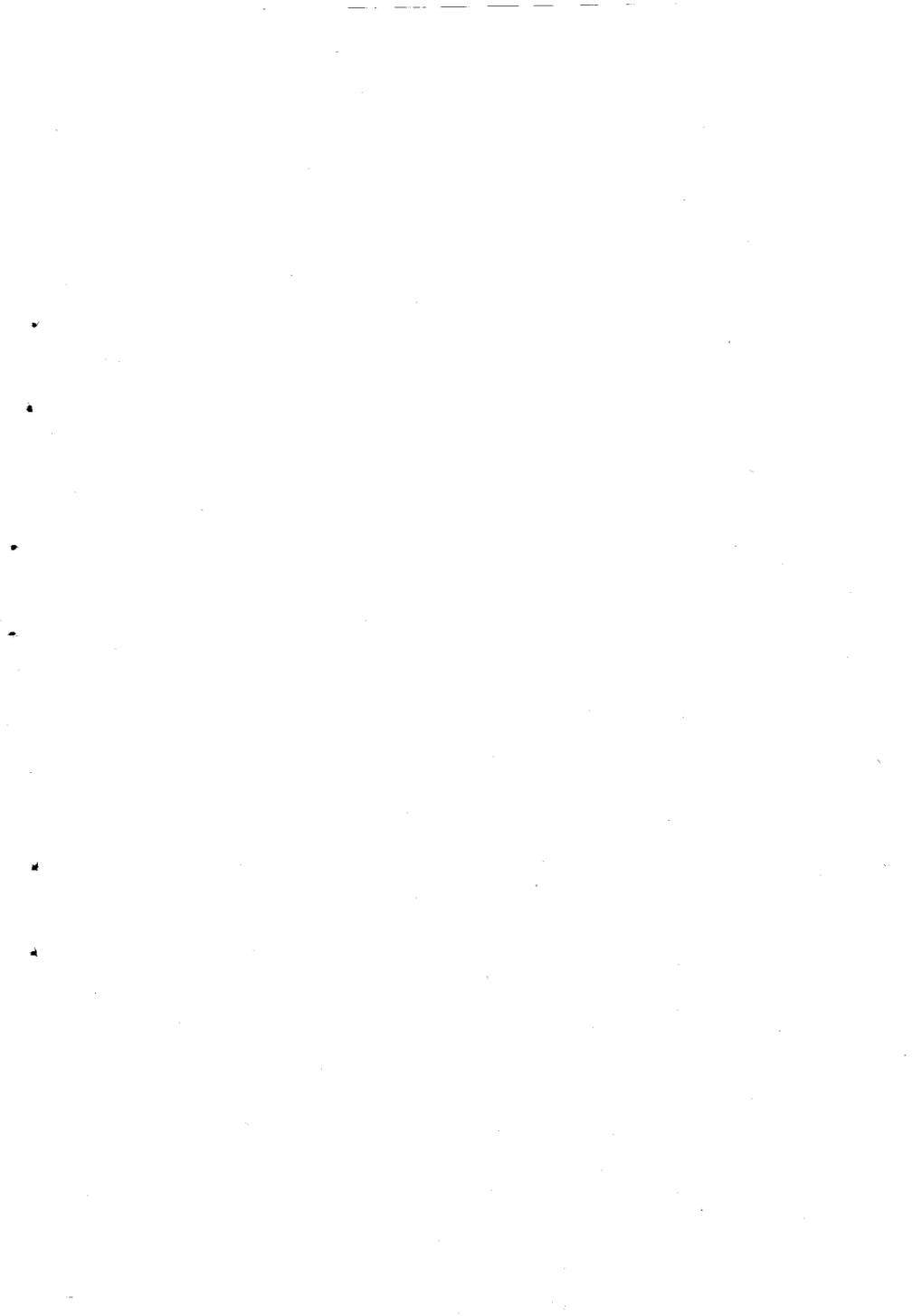
وعلى الجملة فقد خفف من آثر انتقادات زيدان للزعيم مصطفى كامل حسن نيته وصدق لهجته من ناحية ، وبعده بعده تماما عن المشاركة في الأحزاب السياسية المصرية المناوئة لسياسة الحزب الوطني من ناحية ثانية ، وانشادته بعظمة مصطفى كامل واحيائه للشعور الوطني من ناحية ثالثة . وندع هنا جرجي زيدان يتحدث عن مقاييس العظمة وتطبيقاتها على مصطفى كامل قائلا : ( وعندي أن الرجل العظيم إنما يكون عظيما بما يختلفه من الاعجاب والأثر الحسن في نفوس معاصريه . أذ قد يكون عظيما بنفسه ولا يوفق لاتمام عمله ، فيؤسس لمن يأتي بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده عظيمين ، لأن الأول من مؤسسى النهضة السياسية ، والثانى من مؤسسى النهضة الدينية الاصلاحية .

وعلى هذا القياس أيضا نعد مصطفى كامل عظيما ، لأنه أحيا في الأمة المصرية جامعة الوطن ، وهو القائل : لو لم أكن مصر يا

---

(١) مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية . ص ٤٢٢ .

لوددت أن أكون مصرياً . وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم ، وأسمع دول أوربا أصواتهم . فهو من أكبر مؤسسى النهضة السياسية المصرية ولم يأت جمال الدين الأفغاني عملاً لا يستطيع مصطفى كامل مثله وأعظم منه لو بلغ إلى مثل سنه . ألم يواقف أعظم دول الأرض حتى عرض نفسه للنفي أو الطرد ؟ وقد تفانى في خدمة مبدئه حتى مات شهيداً في ريعان شبابه ) .



## صلاته بالمستشرقين

قد يكون أول تاريخ اتصل فيه جرجى زيدان بوحد من رجال الاستشراق هو سنة ١٨٨١ حيث أدى زيدان امتحاناً في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة تألفت في بيروت ، وكان من أعضائها الدكتور كرييلوس فانديك الذي توفي سنة ١٨٩٥

وقد يكون زيدان لم يتلمند على هذا المستشرق الأمريكي في خلال السنة وبعض السنة التي قضتها طالباً في المدرسة الكلية الأمريكية بيروت . ولكن الذي لا شك فيه أن زيدان أدى امتحانه في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة بعد حادث « الاحتلال المشهور » الذي حدث في المدرسة الكلية بسبب الخلاف على تدريس المواد باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية . وكان فانديك واحداً من أعضاء

لجنة الامتحان التي كانت برئاسة الكولونيل مراد بك حكيم بشي  
العسكر .

وحين توفي فانديك نشر زيدان له ترجمة مطولة في مجلة «الهلال» ، ولكن ليس في هذه الترجمة ما يدل على أن زيدان كان على اتصال قريب بالرجل ، وإن كان يذكره في الترجمة بقوله عنه «أستاذنا» . وهو يذكر هذه الأستاذية في معرض الاشادة بفضل فانديك حينما أوعز إلى الدكتور يعقوب صروف محرر المقطف أن يترجم كتاب «سر النجاح» إلى العربية لما فيه من نماذج للعظاماء الذين كانوا أنفسهم ، وشقوا طريقهم ، رغبة في الاقداء بهم ، والنسيج على منوالهم .

ولا شك أن أبحاث زيدان ودراساته ومقالاته في «الهلال» كانت سبباً إلى عقد الصلات بينه وبين المستشرقين الذين كانوا يقبلون على قراءة مجلات ذلك العهد ، متابعة لسير النهضة العلمية في الشرق العربي ، فعلى الرغم من استغرافهم في الكتب والمراجع والدراسات المتخصصة التي كانوا عاكفين عليها ، فإنهم كانوا يتبعون المجالات الأدبية العلمية في ذلك العهد ، ومنها «المقطف» ليعقوب صروف ، و«الشرق» للأب لويس شيخو اليسوعي ، و«لغة العرب» للأب أنسناس ماري الكرملي ، و«الزهور» لأنطون الجميل ، و«الهلال» لجرجي زيدان .

وحيث نشر زيدان في مجلة الهلال عزمه على أنه بسبيل تأليف كتاب في تاريخ الحضارة الاسلامية او التمدن الاسلامي - وكان ذلك في سنة ١٩٠١ - كتب اليه جماعة من أفضلي المستشرقين ، لم يذكر لنا أسماءهم ، يستكثرون هذا العمل الضخم ، أو - كما يقول زيدان نفسه بنص عبارته : ( يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن ) (١) .

ولم يكن استكمال هذا العمل على زيدان تهويانا لأمر الرجل أو استصغرًا لهاته ، ولكن الموضوع في الحق صعب المسالك ، وعر الدروب ، متعدد المصادر ، بمعتر الماده في كتب ومحفوظات كثيرة متنوعة الموضوعات . فليس من السهل أن ينهض بذلك العباء الأشداء ، الذين تسعفهم ذهنيتهم ، وصبرهم ، ومتابرهم ، ووقتهم ، وصحتهم ، وقرب المرابع من أيديهم على المضي في العمل وانجازه

وقد خيب زيدان بعزيزته ومتابرته ودأبه الدائم ظن هؤلاء المستشرقين ، ولم تصده خشيتهم ومخاوفهم واستغرابهم عن الأقدم على التأليف وجمع الماده العلمية الضخمة لهذا الموضوع الضخم ، بل - على الصد من ذلك - حفزته إلى العمل ، ودفعته إلى ( بذل جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الأدب والتاريخ

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي بـ مقدمة جرجى زيدان . ص ١٣ من الطبعة الأخيرة .

والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة  
والمخطوطة ٠ ٠ ٠

وعلى الرغم من انقطاع زيدان الى البحث في صومعته بدار  
الهلال ، أو في بيته بالفجالة فأنه كان يتلقى رسائل من المستشرقين  
تائيه بانتظام ، وتأكد قيام التبادل العلمي بينه وبينهم ، كما كان  
يستقبل من وقت لآخر أفرادا من هؤلاء المستشرقين الذين كانوا  
يفدون الى مصر ، والى القاهرة بالذات ، لأغراض علمية أهمها  
البحث عن مخطوطات مخبأة في مكتبات القاهرة العامة أو الخاصة ،  
أو لنشر المخطوطات التي كانوا يقومون بتحقيقها على مناهجهم ،  
والتي فتحوا بها باباً جديداً للمحققين من العرب ليشرعوا التراث  
العربي على أحد الوسائل والمناهج المنظمة التي عنى بها هؤلاء  
المستشرقون ٠

ويروى لنا المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشковسكي  
في كتابه المفيد الممتع « مع المخطوطات العربية » الذي نشرته دار  
القدم بموسكو من عهد قريب ، كيف التقى بجرجي زيدان في  
القاهرة ، وكيف كان حينئذ الى وطنه لبنان حين سمع كراتشковسكي  
يتخاطب معه باللهجة السورية ، حتى أخذت الدموع تترافق من  
عييه ٠ وندع كراتشковسكي يروى لنا هذه الذكريات الجميلة  
بعبارته التي ترجمت الى العربية ترجمة لا بأس بها ٠ يقول الرجل:  
( وهذا هو زيدان الكاتب الروائي ، المؤرخ والصحفى ؟ كان في

ذلك الوقت قد وصل الى أوج شهرته ، لكنه مع هذا كان لا ينسى أنه قد أغلق في وجهه طريق العودة الى وطنه . وكانت الدموع تترقرق في عينيه عندما سمعنى أتحدث باللهجة السورية ، لهجة وطنه ) (١) .

وفي موضع آخر من كتاب كراتشوفسكي المتع يصف لنا تعریجه في القاهرة على مكتبة أحمد تيمور باشا التي كان لا يعرفها غير المحبين للكتب من أمثال جرجي زيدان الذي عرف عن طريقه هذه ) (٢) المكتبة .

ولعل الصلة الوثيقة بين كراتشوفسكي وجرجي زيدان هي التي دفعت هذا المستشرق الفحل الى كتابة فصل عن زيدان في المادة الخاصة به في دائرة المعارف الإسلامية ، وهو فصل يلحوظ فيه ذلك العمق ، وتلك الدقة، وذلك التحرى الذي عرفه به كراتشوفسكي في كل ما يتناوله من بحوث ودراسات .

ويقرر لنا الدكتور حسين مؤنس في المقدمة التي كتبها لتاريخ التمدن الإسلامي بجرجي زيدان في طبعته الأخيرة أن العلاقات اتصلت بين زيدان وبين طائفة من أعلام المستشرقين ، مثل نولدكه ، وفلهاوزن ، ومارجوليوث ، وجولدتساير ، وأمدروز ، وسخاو ،

---

(١) مع المخطوطات العربية - ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه . ٥٥ ..

وليلام رايت ، وماكدونالد . ولا ندرى لماذا أغفل العلاقة بينه وبين كراتشوفسكي ؟

وإذا كان زيدان قد اتصل ببعض رجال الاستشراف المعاصرين له اتصال مراسلة ، أو لقاء شخصى ، فإن صلاته الفكرية بالمتوفين من المستشرقين تؤكدها تلك المصادر الأوروبية التى أخذ عنها ، وانتى كان يشير اليها دائمًا ويدركها فى مؤلفاته ، حتى فى رواياته التاريخية .

ولقد كان المستشرقون الوافدون الى مصر يجعلون زيارة « مجلة الهلال » وزيارة صاحبها جرجى زيدان هدفًا من أهدافهم ، ويضعونها فى تخطيط برامجهم للمرحلة . ولقد روت مجلة الهلال فى عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من المجلة صدر عقب وفاة زيدان ، أن مستشرقا جاءه مرة لزيارته لأول مرة ، فلما رآه سأله : أنت زيدان ؟ قال : نعم ! فقال : ما أبعد صورة شخصك المرسومة فى مخيلتى عن شخصك资料ى ! فانى كنت أنتظر أن أرى رجلا شيخا ، ذا لحية بيضاء ! لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين عاما !

وهكذا تؤكد مؤلفات زيدان الصخمة أنها كانت تقتضى من العمر ضعف الذى عاشه ذلك العالم الداعوب ، بشهادة المستشرق  
اللبيب ٠٠٠

## نزعـة شعـبية غـير أـرستـقراـطـية

يلاحظ الذين يقرءون مؤلفات جرجى زيدان تلك الروح الشعية الظاهرة فيها على الرغم من كونها دراسات متخصصة في موضوعات لا تهم الجماهير مثل ما تهم أهل الاختصاص . وتبين هذه الروح الشعية واضحة متميزة فى رواياته التاريخية ، التى قصد من ورائها أن يوسع قاعدة القراءة بين الجماهير على أوسع نطاق . كما تظهر هذه النزعـة الشعـبية فى مجلـة الهـلالـ الذى أـنشأـها زـيدـانـ سـنةـ ١٨٩٢ـ لـلـعـلـهاـ تكونـ شـقـيقـةـ لـمـجـلـةـ المـقـطـفـ التـىـ كانـ عـلـيـهاـ طـابـعـ مـتـخـصـصـ أـعـقـبـ منـ طـابـعـ الهـلـالـ . وـمـنـ هـاـ جاءـتـ شـهـادـةـ الأـدـبـاءـ وـالـقـرـاءـ بـأـنـ الهـلـالـ كـانـ أـخـفـ المـجـلـاتـ العـرـبـيةـ ظـلاـ . وـخـفـةـ الـظـلـلـ هـنـاـ تـأـتـىـ مـنـ تـاحـيـةـ الصـبـغـةـ الشـعـبـيةـ التـعـلـيمـيـةـ التـىـ كـانـتـ تـجـعـلـ مـجـلـةـ المـقـطـفـ وـقـفـاـ عـلـىـ طـبـقـةـ مـعـيـنـةـ مـنـ الـقـرـاءـ هـمـ طـبـقـةـ المـتـقـفـينـ أـصـحـابـ

الثقافة الرصينة المتخصصة . أما الهلال فكانت مجلة سهلة التناول يقرؤها عدد أكبر من قراء غيرها ، وذلك لبساطتها وسهولة تناولها ، تلك البساطة التي كانت مزية الهلال من دون المجالات المعاصرة له جميعا ، والتي يقول عنها الدكتور محمد حسين هيكل : ( وكانت ميزة الهلال في عهد منشئه البساطة في عرض المسائل الأدبية والاجتماعية والتاريخية بساطة تقربها إلى الذهن ، أو تيجيدها إلى النفس ) (١)

ولم تفت هذه النزعة بعض الذين ترجموا لزيدان أو الموا بطرف من حياته ، فالمستشرق كراتشيفسكي يذكر أن زيدان كان يكتب في كل عام رواية جديدة ، ويصدر مجلداً ذا صبغة تعليمية شعبية .

وقد حرص جرجى زيدان دائماً على أن تكون كتبه وكتاباته فى متناول فهم العامة ، وأن يرضى عنها الخاصة ؟ فهو يؤلف في تأليفه بين هدفين قد يكونان متباينين . ومن هنا نزع إلى الكتابة بأسلوب لا يعز فهمه ولا مناله على العامة من القراء . ويبدى زيدان دائماً حرصه على هذه النزعة الشعبية في كتبه . ففى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » يقرر أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ المصرى من اعتبر بوضع تاريخ مستوف لمصر ( على أسلوب قريب من فهم العامة ، ورضي الخاصة ) .

(١) الكتاب الذهبي للهلال .

ولم يكن زيدان بحاجة الى أن يقرر في مقدمات كتبه أو في  
 أى موضع منها أنه يهدف الى تعميم تناول العلم وتسهيله بين طبقات  
 الناس . فأن تناوله للموضوعات وطرق معالجتها بهذه الوسيلة التي  
 اتخذها يكشف لنا عن غرضه دون حاجة الى أن يعلن هو عن هدفه .  
 وقد فطن الى هذا بعض ناقديه ومترجميه . فرى الدكتور محمد  
 حسين هيكل فى سنة ١٩١٢ قبل وفاة زيدان بعامين يكتب مقالاً فى  
 نقد كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » يكشف فيه عن هذه النزعة  
 الشعية لنشر المعرفة على أوسع نطاق عند جرجي زيدان ، فيقول :  
 ( كتب جرجي افندي زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتاباً فى  
 التاريخ كما قدمناه ، ويظهر حين قراءتها ان غرض المؤلف منها نشر  
 التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التي وقعت في الماضي ،  
 ولتكون عندهم فكرة عامة عن العالم بأسره ، أو عن أمّة بعينها .  
 أريد أن أقول ان جرجي افندي زيدان لا يقصد من مؤلفاته  
 التاريخية الى تأييد فكرة له في طريق سير العالم ، كما يفعل بعض  
 الفلاسفة من كتاب التاريخ ، ولكنه يريد نشر المعرفة ، وذلك  
 ما يسميه الأفرنج *Vulgarisation* ) (١)

ولا شك أن هذه النزعة التعليمية الشعية في تعميم المعارف  
 الأدبية والحضارية والتاريخية هي التي حدت زيدان الى أن ينهج  
 طريق التبسيط والوضوح في أسلوبه . فهو يكتب للناس بلغتهم

(١) في أوقات الفراغ . ص ٢١٦ .

التي يتبادلونها في صحافتهم ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المتحذقة  
المتأففة التي قد يغلفها الغموض طارئاً كان أم مقصوداً ٠

ومن هذا المطلق أخذ جرجى زيدان يصدر مؤلفاته ويهىء  
بها أذهان القراء ( على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت معارفهم ومداركهم  
لطالعة هذا التاريخ - يعني تاريخ الاسلام - بما نشره من الروايات  
التاريخية الاسلامية تباعاً في « الهلال » ) ٠

والذى يريد أن يتحدث عن النزعة التعليمية الشعية عند  
جرجى زيدان لا يجد مفرأ من الاستشهاد ، برواياته التاريخية ،  
فقد احتال بها على نشر التاريخ حتى يساغ مناله عن طريق القصة .  
ويعرف زيدان نفسه بهذا « الاحتياط » الذى جاؤه ليحقق هدفه  
التعليمي ، فيقول لنا في مقدمة « تاريخ التمدن الاسلامي » ان  
( مطالعة التاريخ الصرف تتقل على جمهور القراء ، وخصوصاً في  
بلادنا ، والعلم عندنا لا يزال في دور الطفولة ، فلا بد لنا من  
الاحتياط في نشر العلم بينما يرغب الناس في القراءة ، والرواية  
أفضل وسيلة لهذه الغاية ) ٠

ومع هذه النزعة التعليمية الشعية التي كانت هدف زيدان  
فيما يكتبه ، فإن المعرف والمادة العلمية التي كان يقدمها في مؤلفاته  
وكتاباته لم تبتذل ولم تتمهن بهذا التيسير والتقريب ، بل ظل لها  
مقامها المحمود . فاليسير والتقريب شيء ، والابتذال والامتهان شيء

آخر . وقد ظلت مادة زيدان العلمية محترمة موقفة على الرغم من تداولها بين أيدٍ كثيرة . وكذلك كان شأن صاحبنا في تحرير «الهلال» وتوجيه موضوعاته ، وجمع مادته الطريفة ، فإنه كان (يسير المعارف ولا يبتذلها) كما قال عنه الأستاذ عباس محمود العقاد \*

وحين رأى زيدان أن تقريب المادة العلمية إلى الأفهام لا تساعد عليه اللغة الجافية ، ولا الألفاظ الفريبة ، ولا التغافر والتوعر في الأساليب ، فإنه ارتضى لنفسه أسلوباً سهلاً بسيطاً ، وألفاظاً مألوفة ميسرة متداولة ، لتعيينه على تحقيق غرضه من شعبيّة العلم التي يريدها . وقد آمن زيدان بهذه النزعة ، وظل مخلصاً لها طول حياته \*

ولقد كان زيدان نزاعاً إلى فتح المدارس في مصر التي اتخذها له وطناً ثانياً ، وكثيراً ما اتتقد ضعف التعليم عندنا ، وقلة المدارس ، وتتقاعد الحكومة والأغنياء عن اتخاذ خطوة فعالة في هذا السبيل . وقد حز في نفسه - وهو في أثناء رحلته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ - أن يوازن بين حالة المدارس عندنا وعند القوم هناك . وقد أشعرته قراءاته ورحلاته ومعرفته المتتجددة عن الغربيين أننا متخلفون عنهم في التعليم والمدارس . ومن هنا أراد بإنشاء «الهلال» أن يجعل منه مدرسة تتقدّم وتتعلم ، لمن فاتتهم في المدارس التقييف والتعليم . فالهلال كان مدرسة واسعة الأبواب يدخل منها طلاب المادة العلمية الميسرة بلا عناء ، وهو تحقيق لفكرة «الشعبيّة» في العلم عند زيدان \*

وهذه النزعة الشعية عند زيدان يصفها الدكتور طه حسين بقوله : ( وجرجى زيدان لم يكن أرستقراطى الأدب ، وإنما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع : أحدهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الأدبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة ، والثانية النزعة الشعية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها ، وتظهر بنوع خاص فى قصصه وقصصه الثقافية العامة ) (١) .

بفى أن نقول ان هذه النزعة الشعية فى كتابات زيدان ومؤلفاته كانت انعكاسا للظروف الأولى التى أحاطت بالرجل فى شبابه وتعليمه الأول . فقد شاهد هو بنفسه وهو صبي طموح كيف تقف (المادة) فى سبيل حصوله على كتاب يقرؤه ، وكابد هو بنفسه مشقات التعليم فى مدارس متواضعة فى بيروت ، ورأى هو بعينه كيف كانت الظروف فى لبنان ومصر والشرق العربى تحول بين الجماهير وبين العلم الضرورى لهم ..

وحين قدم زيدان العلم لقراءه من العرب ميسرا مبسطا ، فإنه أعطاهم من سماحة نفسه ما يتلاءم مع نبل غرضه ، فلم يكن رجلا جافيا ولا متعاليا ولا أرستقراطيا ، ولكنه كان دائماً رجل الثقافة الجماهيرية المتواضع .

---

(١) من أعلام الفكر والادب ص ٨٧ .

## باقية من الأخلاق

حينما رثى خليل مطران صديقه جرجي زيدان بمرثيته الرصينة التي ألقاها في حفل تأبينه ، رسم له صورة شعرية صادقة للأخلاق ، كأنما أراد أن يصنع لهذه الباقة الكريمة من الأخلاق لوحة زاهية من أصدق الشعر الوصفى وأعذبه . وفي هذه اللوحة نلمح مجموعة من أخلاق زيدان جلاها خليل مطران في أبيهى معارضها . ولا بأس هنا من ايراد أبيات هذه اللوحة فهي أكثر ملاءمة للذكر في هذا المكان . يقول خليل مطران :

ألا في سبيل الله حمكتك التي  
جلاها « هلال » مالىء الكون مقمر

وجد به رضت الصعاب فما كبا  
إلى أن دهاء جدك المتعثر

وآداب نفس لو توزع حسنها  
عراء لأضحى وهو كالروض مزهر  
وأخلاق احسان وغفو ورقه  
روائع يخففها اتضاع وتظاهر

و قبل هذه اللوحة الملموسة في مكان واحد من قصيدة خليل  
مطران ، نرى في متصرف المرنية لوحة أو لمحه أخرى في وصف  
أخلاق زيدان يقول فيها مطران :

وكان أبرا الناس بالأهل والحمى  
وبالقسم لا يجفو ولا يتغير  
ونعم الأخ الوفي اذا ما تنكرت  
لصاحب الأيام لا يتذكر

وفي هاتين اللوحتين المطرانيتين جماع من الأخلاق التي عرفت  
عن جرجي زيدان ، وانتشر بها بين الناس في عصره . على أن  
خليل مطران لم يحط بأخلاق صاحبنا من جميع أطراافها ، ولم يذكر  
له ألا ما بدا له منه من خبرة وقرب . فان هناك أخلاقاً أخرى تضاف  
إلى لوحة خليل مطران فتكمم الصورة العامة التي نريد أن نرسمها  
في هذا الفصل .

ولكن لوحة مطران الشعرية في وصف أخلاق جرجي زيدان  
لم شهد لها مثيلاً في بقية المراثي الشعرية التي نظمها أحمد شوقي ،

وحافظ ابراهيم ، وولى الدين يكن ، ومحقق ناصف . فهى لوحة متكاملة على حين لم تنصب اهتمامات شوقي في مرثيته الا على دولة البيان ، والهلال ، وتاريخ الإسلام ، وروايات زيدان التاريخية ، كما أن مرثية ولى الدين تناولت مآثر الرجل في ميدان العلم والأدب والتاريخ والرواية ولم تتعرض لناحية واحدة من أخلاقه . أما حافظ ابراهيم فقد جعل بين الفجيعة في الشيخ ابراهيم اليازجي وجرجي زيدان مجالا للاعتذار من عدم مشاركته في رثاء اليازجي يوم وفاته سنة ١٩٠٨ ؟ فجدد الحزن عليه في وفاة زيدان سنة ١٩١٤ !

وتبدو لنا أخلاق زيدان من خلال مرأتين : مرأة الذين كتبوا عنه وعايشوه وعرفوه ووصفوه عن تجربة قربة ، ومرأة سلوكه هو وتصرفاته القولية وردوده التي كانت تم على أخلاقه بصورة واضحة .

لقد كان زيدان كثير الأنصاف للناس عامة ، وأهل الفضل خاصة . وقد سرت في أيامه موجة من التهويين من أعمال المستشرين والتضيير من شأنهم ومن الدور الذي يقومون به لخدمة الشرق وتاريخ العرب وحضارتهم وأدابهم . وقد يكون عند المستشرين نوع من التعصب أو الغمز على العرب والإسلام ، ولكن مناهجهم في خدمة الفكر العربي ، والتراث العربي ، وتنظيم الأبحاث الخاصة بالعرب والإسلام لا ينكرها منصف . وحين أحسن جرجي، زيدان من الأستاذ الشيخ أحمد الأسكندرى أنه يقلل من شأن

المستشرقين رد عليه زيدان يؤكّد أنّهم أصحاب الفضل الأول على الآداب العربية في العصر الحديث ( لأنّهم أول من وجه الانظار إلى الاهتمام بها ، وقد حفظوا آثارها في خزائنهما ، أو نشروها في مطابعهم ، قبل أن تظهر المطبع في الشرق ٠٠ وهم قدوتنا في البحث والتقيّب . وهذا لا يمنع أنّهم يخطئون مثل سائر البشر ٠٠ ) (١)

وكان زيدان يحترم المحدثين من رجال الأدب والعلم ، ويرى أن التقدير لهؤلاء المحدثين لا يجوز بحال أن يقل عن التقدير للقدماء . والعبرة هنا بصواب الحكم ، لا بقدم العهد وحداثته . وهذه ناحية من الأنصاف تضاف إلى سابقتها .

ولقد لقى زيدان ولقى « هلاله » ولقيت مؤلفاته ودراساته من النجاح والقبول ما لم يحظ به إلا قلة قليلة من الناس في عصره ، ولكنه مع هذا ظل متواضعا بعيدا عن الزهو والتفاخر ، وتوهم أنه صنع شيئاً لم يصنعه غيره . وحين اضطر في أحد ردوده على ناقديه إلى ذكر الطبعات التي حظيت بها بعض كتبه واللغات التي ترجمت إليها وأشار إلى أنه كان مكرها على ذلك ( فاتنا من أبعد الناس عن التوبيه بأعمالنا ) (٢)

وقد جمع صاحب « مرآة العصر » مجموعة من أخلاق جرجي زيدان في سطرين اثنين يقول فيهما : ( أما أخلاق صاحب الترجمة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر نفسه ص ٦ .

سلامة الذوق ، وصدق اللهجة ، وهو مشهور بدماثة الأخلاق ، ولطف المحاضرة ، معروف بالثبات والمواظبة على العمل ) (١) .

والثبات والصبر على العمل من أهم ما يلفت النظر في أخلاق زيدان ، وهل كانت مجلة الهلال ، وكتبه العظيمة في الأدب العربي والتمدن الإسلامي إلا ثمرة من ثمار الصبر والمواظبة على العمل بلا توقف أو ملل ؟ وهل كان النجاح الذي لقيه زيدان بعد الظروف الصعبة التي مرت به في طفولته وشبابه إلا نتيجة حتمية لهذا الصبر الطويل على الأعمال ؟ وبلغ من حرص زيدان على العمل وعدم تضييع لحظة من الوقت سدى أنه كان يشاغل في خلال مطالعاته وهو شاب مقبل على الحياة بالرسم والتصوير على بعض صفحات ما يقرؤه . فلم يرض أن يضيع ساعة الراحة من تعب المطالعة بلا عمل ينجزه ) (٢) .

والعمل الدائم بلا ضجر ولا ملل هو نتيجة لذلك الصبر الجميل الذي تذرع به منذ أن واجه شظف العيش ومشقات الحياة وهو صبي ( فلم يكن أمامه في ظلام الحياة ، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل ) (٣) .

وقد شهد له المستشرق كراتشيفسكي بأنه « كان ذا خلق

---

(١) مرآة العصر . ص ٤٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٨ .

(٣) عظاميون عظاماء من الشرق والغرب . ص ٦٥ .

نبيل رفيع » . وقد تكون شهادة كراتشوفسكي له مستبطة من موقف زيدان الهدىء الرزين العفيف من حساده وناديه ، فقد كانت ردوده عليهم وعلى مهاجمتهم - وأحياناً مهاراتهم - متسمة بالأدب وسعة الصدر وعفة اللسان والحلم الجميل . ولكن كراتشوفسكي اتصل بالرجل عن قرب ، ودامت المراسلات بينهما زمناً طويلاً ، وكان زيدان أحد الأدلة الأولية الذين صجروا كراتشوفسكي في خلال زيارته للقاهرة .

وعلى كثرة ما قرأ جرجي زيدان من الكتب الأجنبية في وقته في مسائل الفلسفة والأديان فإنه ظل محافظاً على روح التدين والاعتصام بالدين ، ومحابية الآراء المتطرفة التي كان يجاهر بها واحد من المفكرين المسيحيين العرب مثل الدكتور شibli شمیل ، كانكار الحكمة من العالم المادى ، والشك في وجود حياة أخرى بعد أن تخلص الروح من الجسد بالموت . ولعل مناقشة دارت في مجلة الهلال في سنتها السابعة عشرة تكشف لنا عن تدين هذا الرجل وبعده عن القضايا الشائكة التي لا يرجع الباحث فيها باطمئنان ولا عرفان . فقد وجه أحد القراء في مجلة الهلال سؤالاً إلى جرجي زيدان يقول فيه : هل في الوجود عالم آخر؟ فرد عليه زيدان رداً علمياً مقنعاً ختمه بقوله : (فوجود العالم الآخر لا ينافي نظام هذا العالم - يعني عالمنا المادى الذى نعيش فيه - بل هو متضم له كما تقدم ) . مما كان من الدكتور شibli شمیل إلا أن تدخل فى

الموضع فأنكر الحكمة في العالم المادي بحججة وجود زوائد فيه خالية من المعنى والغرض ، كالبرغش الذي أرقه وكالأعضاء الأخرى في الحيوانات التي لم يكن لها معنى ، لو لا أنها كانت من قبل ذات نفع ، ولكنها ضمرت بالأهمال وعدم الاستعمال . وقد نظم شميم في « البرغش » الذي أرقه أبياتاً ينكر فيها الحكمة في وجود هذا المخلوق الحقير المزعج ، وقد انتشرت الأبيات – على الرغم مما فيها من التعرف في الاعتقاد – وتدأولها الرواة في ذلك الزمان !

ولعل أخلاق زيدان مع أصحابه ، من الوفاء لهم ، وكثرة تحمله لما قد يbedo من هفوات فيهم ، والاتهام الجانب لهم هو الذي أراد أن يسجله « سليم سركيس » من كلمته في تأبين جرجي زيدان ، فقد ذكر البيت الذي غناه « مخارق » لهرون الرشيد ، وهو :

وأنى لحتاج الى ظل صاحب

يرق ويصفو ان كدرت عليه

فقال الرشيد لطربه ومنشده : يا مخارق ! جئني بهذا الصاحب ولك نصف الخليفة ! وبالطبع لم يجئه مخارق بمثل هذا الصاحب النادر ندرة الكبريت الأحمر فضاعت منه العطية التي وعد بها الرشيد ؟ ولكن سليم سركيس كان ضامناً أنه لو كان معاصرًا للرشيد لكان ضامناً لنصف الخليفة إذ يقدم إليه جرجي زيدان ، لأنّه كان ضالة أمير المؤمنين ! ٠٠٠ (١)

---

(١) الكتاب الذهبي . ومجلة الهلال . عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ .

وقد أكمل لنا خليل مطران الصورة الشعرية لأخلاق جرجى زيدان في مرثيته الرائية له ، بصورة أخرى شريرة بلية على ايجازها، يصف فيها جمع الرجل بين التواضع والكبر ، وهو كبر يبلغ أقصى غاية المحامد والفضائل ، لأنه كبر وترفع عما في أيدي الناس ، وكثير واستعلاء عن أن يرخص كرامته ويذل رجولته بالشکوى لأنسان . وترك خليل مطران لعباته التي يقول فيها عن زيدان : ( لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكا دنياه بمحضر من أحد ، ولا أنه تمنى على أحد شيئاً بأشاره أو مصارحة ) . كما أتني لم أجده مرة مستفزاً للأخذ بثاره من متهمج عليه في الصناعة التي هي مدار رزقه ، ومحور شهرته ، لاعتقاده شرف غايته ) .

## زيدان الأب

ان علاقة جرجي زيدان الطيبة مع كل من اتصل بهم واتصلوا  
به تؤكد لنا جوانب خلقية كريمة من هذا الرجل الذى لا نذكر  
أتنا عشرنا له على كلمة جارحة ، أو عبارة نابية مع أشد ناقديه  
والمتهججين عليه فى معارض النقد الطويلة التى واجهها بشجاعة  
وسماحة نفس ، وسعة صدر الى ما قبل وفاته بقليل ٠

وإذا كان زيدان في أخلاقه وصلاته مع الأصدقاء مثل  
الصديق المخلص ، والأنسان المتسامح الذى كان يفتش عن الخليفة  
العباسى هارون الرشيد ، و وهب نصف ملکه لمن يجده حين سمع  
قول المنشد :

وأنى لمحتاج الى ظل صاحب  
يرق ويصفو ان كدرت عليه !

اذا كان زيدان هكذا مع أصحابه ومع الأجانب ، فأنه أولى أن يكون مع أبنائه مثال الأب الرحيم الكريم الذى تتجلى الأبوة الحانية فى سلوكه مع أبنائه ، وفى مخاطبتهما وفى مراسلاتهما اليهم حين تفرق الأيام بينهم قليلاً أو كثيراً ◦

وجريدة زيدان واحد من الآباء فى الأدب العربى الذين بعنوا الى أبنائهم برسائل تفيض بالحب والنصح والتوجيه حين قبضت ظروف معينة أن تبعد الأبناء عن الآباء ، كظروف الاشتغال بالعلم ، والاضطرار الى مفارقة الأهل ◦

ولم يخل الأدب العربى فى تاريخه الطويل قديماً وحديثاً من أمثل هذه الرسائل الأبوية التى حفظها لنا التاريخ ، وروتها كتب الأخبار والأدب والسير وما إليها ، كرسائل الخليفة عمر بن الخطاب الى ابنه عبد الله الذى خرج فى غربة قصيرة ، ورسائل المهلب بن أبي صفرة الى أبنائه ينصحهم ويوصيهم ، ورسائل عبد الملك بن صالح ابن على العباس الى ولده ◦ ورسائل موسى بن سعيد المغربي الى ولده على صاحب كتاب «المغرب في حل المغرب» ينصحه بالسلوك في الغربة ، وقد اشتملت رسائل ابن سعيد هذا على القصيدة الكافية الشهورة التي يقول فيها الأب مخاطباً ابنه :

أودعك الرحمن في غربتك  
مرقباً رحماه في أوبرتك

وما اختيارى كان طوع النوى  
 لكتى أجرى على بيتك  
 فلا تطل جبل النوى انتى  
 والله أشتق الى طلعتك  
 واختصر التوديع أخذنا فما  
 لي ناظر يقوى على فرقك  
 واجعل وصاتى نصب عين ، ولا  
 تبرح مدى الأيام من فكرتك

على أن الأدب الحديث والمعاصر قد حفل بطائفة من الرسائل  
 بعضها بعض الآباء إلى أبنائهم النازحين في طلب العلم ، يدبرون لهم  
 بالنصائح طرق السلوك في مفتربهم ، ويرسمون لهم على بعد خطط  
 التكيف مع وسطهم الجديد . ومن هذه الرسائل ما كتبه أحمد حافظ  
 عوض إلى ولده « جلال » في كتاب عنوانه « من والد إلى ولد » ،  
 وما كتبه المرحوم أحمد أمين إلى ولده ، وقد نشرت في كتاب عنوانه  
 « إلى ولدي » ، وما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل إلى ولده ،  
 وما كتبه خليل السكاكيني الأديب الفلسطيني الأنسان إلى ولده  
 « سرى » ، وما بعث به أسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور إلى  
 ولده جلال ، وما بعث به بولس سلامة الباحث الشاعر اللبناني إلى  
 حفيده فادي ، وما أرسله فاضل الجمالي السياسي العراقي المعروف  
 إلى ولده عباس ، وما بعث به شكري شعشاعة الأديب الأردني إلى

ولده نزار الذى كان يطلب العلم فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٢ ، وما أرسله الأستاذ يعقوب العودات « البدوى المثلث » الأديب الباحث الأردنى الى ولده خالد حين بعث به الى بيروت سنة ١٩٦٨ يطلب العلم فى الجامعة الأمريكية ، وقد نشرت نماذج من هذه الرسائل الأبوبية فى مجلة « الأديب » .

ومن حسن الحظ أن جرجى زيدان قد انضم الى هذا السلك « الكريم من الآباء الذين بعنوا برسائل الى أبنائهم » ففى سنة ١٩٠٨ أرسل الرجل ولده « اميل » الى بيروت ليتعلم فى الجامعة الأمريكية ، وكان الاتفاق أن يبعث ابن الى أبيه كل أسبوع رسالتين حتى يطمئن قلب الأسرة على ولدهما ، ويظهر أن ابن استكثر أن يكتب الى أبيه مرتين كل أسبوع ، وقد تكون مشاغل الدرس والتحصيل قد عاشه من أن يجري فى تنظيم مواعيد الرسائل على رغبة أبيه ، فبعث اليه أبوه بر رسالة تفيض بالحب ، وتمتنع بالنصائح والتوجيهات التى لم يوجد الأب بدا من توجيهها الى ابن له حديث عهد بالغرابة والبعد عن أحضان الأسرة ، يستقبل أصدقاء وزملاء جددا ، ويستقبل حياة جامعية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل . وقد حرص الوالد فى رسالته على أن تكون العلاقة بينه وبين ولده علاقة صديق يفضى الى صديقه بذاته نفسه ، ودخلية أمره ، لا علاقة ابن يخشى أباه ويهاب أن يبوح له بعض خصوصيات أمره . كما حرص أن يوصيه بسعة صدره للحياة ، فلا يضيق صدرا بما قد

يصادفه من أمور لم يألفها في ذلك الجو الجديد ، وأرشده إلى أن التكيف بالوسط دليل على حيوية الإنسان ومرورته وعقله ، وكأنه كان بهذا يشير - مسبقاً - إلى قول شوقي بعد ذلك ببضعة عشر عاماً في رثاء مصطفى لطفي المنفلوطى :

من ضاق بالدنيا فليس حكيمها  
ان الحكيم بها رحيب الباع

وتلمح في رسائل زيدان إلى ولده أنه يحاول أن يعيش أبناءه ما فاته هو شخصياً من النصح والتوجيه في شبابه ، فلقد أتيحت لولده « أميل » من فرص المعاونة والتشجيع والتوجيه وميسرة الحياة لا معاشرتها ما لم يتح للأب الذي عرفنا طرفاً من مكابداته في الحياة في مطعم أخيه . ويظهر أن هذه المكابدات والحياة القاسية الشديدة التي عاشها جرجي زيدان أيام طفولته وصباه وفتائه في بيروت لم تبرح ذاكرته ، فهو لا يزال يذكرها جيداً ، وهو لا يزال يشير إليها في كياسة إلى أبناءه حتى يتخذ لهم منها سبيلاً إلى العمل وعدم الكسل في ظل ميسرات الحياة التي هيئت لهم بعد كفاح والدهم الطويل .

وكتيراً ما كان يسمع أبناء جرجي زيدان الثناء على والدهم ، والأشادة بذكره في مجالسهم مع أصدقائهم وزملائهم ، وكان الأبناء - بالطبع - يسرون لهذا المديح الذي يسمعونه بأذانهم في والدهم ، وقد سمع ولده « أميل » شيئاً من هذا في مجلس له في بيروت فبعث

إلى والده يخبره بما سمعه من ثناء عليه . وبالطبع لم يسكت الأب على هذا الخبر السار يسوقه له ولده ، ولكنه يرد عليه بما يؤكّد له أنه لم يستحق مثل هذا المدح إلا بعد أن أضناه العمل والتعب والكافح ؟ فإن الثناء لا يأتي للناس ألا بعد أن يبذلوا له ما يليق به من الأثمان .

ولعل رسالة واحدة في هذا المقام نعرضها هنا تصور لنا فا كاملاً من أدب الرسائل الأبوية عند جرجي زيدان ، و تعرض لنا نفسية الرجل وعلاقته ببنائه . ولن نجد أصدق من رسالة زيدان إلى ابنه « أميل » حين كان يتلقى العلم في جامعة بيروت الأمريكية سنة ١٩٠٨ . قال الأب المثالى في رسالته : ( ٠٠٠ ) كتب اليك أول أمس ، وأثبت لك ما كان لكتابك الأول من التأثير في . وقد كنت أنتظرك ذلك ، قياساً على ما شعرت به أنا من الوحشة حين فارقت أهلي منذ خمسة وعشرين عاماً . وأرجو أن يأتيك كتابك الثاني وفيه ما يطمئن القلب . وهذا عهدي بك ، وأنت عاقل ، أن توفق بين نفسك وبين ما يحيط بك من الأحوال . فلا تطلب أن تتغير تلك الأحوال حتى توافق مرادك ، فإذا لم يتم لك ذلك شقيت . ذلك هو الفرق بين واسع الصدر وضيقى الحلق . فواسع الصدر يطبق نفسه وأحواله على البيئة والظروف التي تحيط به ، وهذا يدل على عقل كبير . وأما الذي يستقد كل ما يحيط به ، فلا يعجبه شيء من الأمور التي تتعلق به ، ولا يعجبه ما يقول الناس عنه ، ولا ما يرددونه منه ، ولا يعجبه معاملة الناس له إلا كما يريد ، فهذا أتعس شقي .

٠٠٠ لا تزال - على ما يظهر - تستعصم الكتابة الى مرتين في  
الأسبوع ، وأنا لو وجدت كل يوم بريدا لكتبت كل يوم ؟ فافعل  
أنت كذلك ، وأطل كتبك ما استطعت ، واشرح لي ما تراه أو  
ما يخطر لك ، من أى وجه ، وفي كل حال . واعلم أنك تكتب الى  
صديق يحبك ، ويغار على مصلحتك ، لا الى والد يلتمس أن تهابه  
وتحفى عنه شيئا من أمورك . ولا أظنك تجهل أنى منذ سنتين أو  
أكثر صرت أعاملك معاملة الصديق لصديقه ٠٠٠ وفي سنك كنت  
جبانا ، ولكنى لم أكن أجد من يشجعني ، ولا من يشير على ، أو  
يتبهنى الى نقص فى . ولو وجد فوق رأسي - وأنا في مثل عمرك -  
من يتبهنى الى نعائصى ، لوفرت على نفسى تعب سنتين ، وتعجلت  
النجاح أعواما . فاستعد أنت من هذه الفرصة .

ان العمل في هذه الدنيا يحتاج الى جرأة واقدام ، كما يحتاج  
 الى الثبات والصبر ، وكما يحتاج الى التعلم والصدق .

٠٠٠ لا ينبغي أن يطول الوقت قبل أن تتعود المدرسة ، وأكلها ،  
وتلامذتها ؛ فان الرجل الحقيقي قوى الأرادة من يطبق نفسه على  
الوسط الذى يوجد فيه . ان ذلك دليل على القوة والحيوية فى  
الإنسان ، وأشبه شئ بالمرونة فى الجماماد *Elasticity* فالمرونة  
هي الأجسام الحية تقوى فى الشبان ومن فى معناهم من الأقوباء .  
وأريد بالمرونة مرؤنة البدن والعقل . فالشاب اذا قرسته فى عضده  
حنلا ، فحالنا ترك العضد يعود اللحم الى ما كان عليه ، وأما الشيخ

فإذا فرسته يطول زمن عوده إلى أصله • واللحم الميت لا يعود أذ لا مرونة فيه • واعتبر ذلك في العقول ؟ فصاحب العقل الكبير يهون عليه تطبيق تصوراته وأحكامه على جليسه أو عنصريه ، ولو كان في الحقيقة بعيداً عن طبعه أو عاداته • وهذا هو الفرق بين الناس في ارضاء الناس أو عدم ارضائهم • فالذين يرضونهم هم أصحاب المرونة العقلية ، الذين يستطيعون تكيف تصوراتهم وأحكامهم ، حتى يفهموا جليسهم ويفهموه ، وهو ما يعبر عنه بقولهم *Commonsense* فكن أنت كذلك تكسب ثناء القوم وقلوب عشرائك • وكن - مع ذلك - محافظاً على مبادئك ، فإن المروءة حسنة وممدودة في التصورات والأحكام ، ولكنها مكرورة وسيئة في الآداب والأخلاق ، فهذه لا بد من المحافظة عليها ، والثبوت فيها ثبات الجمال •

يسرنى سرورك لسماع اسم والدك في معرض المدح ، وهذا طبيعى ٠٠٠ ونحن يا حبيبي لم نستحق مثل هذه الكلمة فقال على هذه الصورة ، الا بعد أن أذينا الدماغ ، وأنهكتنا القوى ، في السهر والاجهاد • لأن العصر الذي شأنا فيه غير الذي أنت فيه • فانه أمهل عليك كثيراً أن تناهى مثل هذا المقام وأرفع منه ، بتبغ أقل وقت أقصر ٠٠٠

وأما أقصى مرادى ومتمناى فهو أن تبقى متعملاً بالصححة والعافية ، وأن يكون اسمك مصوناً ، وسمعتك شريفة ، وأن تكون

قريبا من قلوب الناس بحسن أخلاقك ) (١) . ولقد استجاب ابن «أميل زيدان» إلى نصائح أبيه ، وفتح لها سمعه وقلبه . ويحدثنا هذا ابن عن أبيه عقب وفاته سنة ١٩١٤ قائلا : ( لم أستحب أن أفتح له صدرى في ساعة الضيق ، وأشكو له متابعي ) (٢) . وهذا الانفتاح من جانب ابن هو نتيجة لمناشدة الأب لابنه أن تكون العلاقة بينهما علاقة صديق يفضي ، لا علاقة ابن يخشى ويكتم ٠٠٠

وإذا كان الأب جرجي زيدان يعامل ابنه معاملة الصديق ويشجعه على ذلك ، فإنه في الوقت نفسه كان يعامله معاملة الرجال ، وهي نتيجة حتمية لمعاملة الصدقة . ومعنى هذا أنه كان يربى فيه الاعتماد على النفس ، والشعور بالذات ، لا تربية والد يريد أن يجعل من ولده دائمًا طفلاً يعتمد عليه . وكما كان جرجي زيدان حسن الأصدقاء ، حسن التقبل لحديث الناس وأرائهم - ولو كانت ضده وفي غير مصلحته - فإنه كان كذلك حسن الأصدقاء لحديث أولاده ، حتى ولو لم يكن فيه من المعنى كثير أو قليل . وكان غرضه من ذلك أن يشعرهم بكيانهم وشخصياتهم ، ويزيد

(١) عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٥ « ومحترفات دار الهلال سنة ١٩٤٦ ص ١٢٣ .

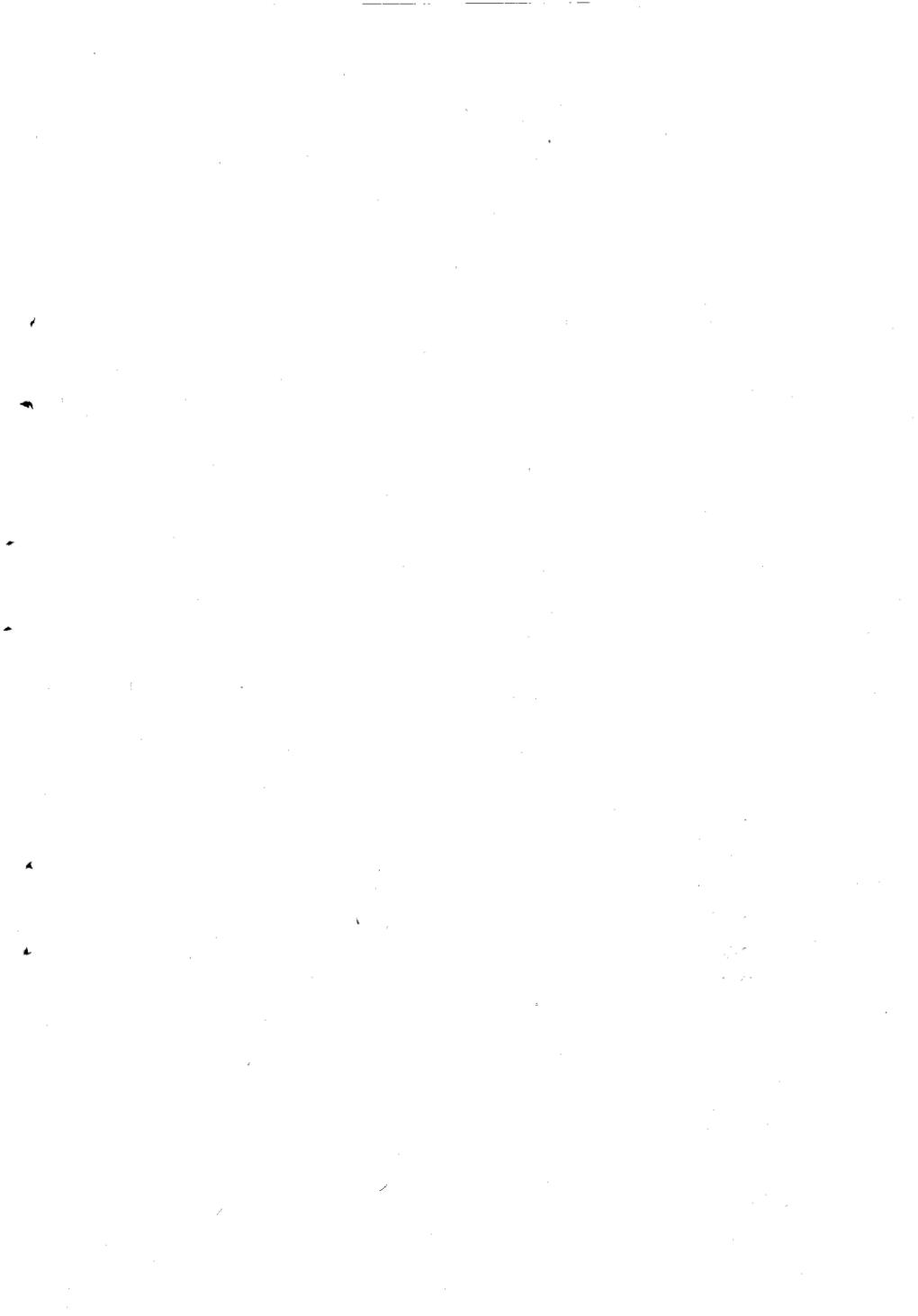
(٢) الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ .

نقتهم بأنفسهم ، حتى تنمو شخصياتهم متكاملة على سواء ٠ وبلغ من معاملة صاحبنا لأبنائه معاملة الرجال أنه كان يناقشهم مناقشة الند ٠ ويباحثهم مباحثة النظرير ؟ فلا يفرض عليهم رأياً أو حكماً ، ولا يستعلى عليهم بالنصح وابداء الأوامر والتواهـى التي كثيراً ما تذهب بهـاء ، ويكتفى من ذلك كلـه بالمثال الطيب الذي يجده الآباء في أبـيهم ٠

ولقد ترك لنا أمـيل زـيدان صورة جميلة من جـرجـي زـيدـان الأـب ، نـشرـتـ فيـ أـعـقـابـ وـفـاتـهـ بـقـلـيلـ ، وـلاـ بـأـسـ أـنـ نـورـدـ هـنـاـ شـيـئـاـ مـنـهـ تـكـمـلـ بـهـ الصـورـةـ العـامـةـ ، وـالـلامـاحـ التـىـ أـرـدـنـاـ أـنـ تـبـثـهاـ لـجـرجـيـ زـيدـانـ الأـبـ ، فـلـمـ نـجـدـ أـقـدرـ عـلـىـ اـبـراـزـهـ مـنـ الـابـنـ الـذـىـ لـاـ نـجـدـ مـثـلـهـ فـىـ الصـدـقـ وـالـعـرـفـ وـالـتـجـربـةـ التـىـ لـسـهـاـ عـنـ قـرـبـ مـنـ أـبـيهـ ٠ يـقـولـ الـابـنـ مـنـ مـقـالـ عـنـوـانـهـ «ـ الفـقـيدـ أـبـاـ »ـ فـىـ عـدـدـ نـوفـمبرـ مـنـ الـهـلـالـ سـنـةـ ١٩١٤ـ :ـ قـيلـ :ـ كـلـ فـتـاةـ بـأـبـيهـ مـعـجـبـةـ ٠ـ فـإـنـاـ لـاـ أـنـكـرـ اـعـجـابـيـ بـوـالـىـ رـحـمـهـ اللهـ ٠ـ وـلـكـنـ ذـلـكـ الـأـعـجـابـ لـيـسـ صـادـرـاـ فـقـطـ عـمـاـ يـرـبـطـنـ بـهـ مـنـ الـعـوـاطـفـ الـبـنـوـيـةـ ،ـ بـلـ هـوـ اـعـجـابـ رـجـلـ عـرـفـ الـفـقـيدـ كـاتـبـاـ حـقـ الـمـرـفـقـ ،ـ وـدـرـسـ أـخـلـاقـهـ أـدـقـ دـرـسـ ٠ـ يـعـرـفـ النـاسـ الـفـقـيدـ كـاتـبـاـ وـمـؤـرـخـاـ وـرـوـائـيـاـ ،ـ لـكـنـ كـانـ قـبـلـ ذـلـكـ أـبـاـ بـتـمـامـ مـعـنـيـ الـكـلـمـةـ ٠ـ وـقـلـيـلـونـ هـمـ الـآـبـاءـ الـذـينـ يـسـتـحقـونـ هـذـاـ الـاسـمـ ٠ـ لـاـ تـسـتـظـرـ مـنـ أـيـهـاـ الـقـارـىـءـ أـنـ أـسـرـدـ عـلـيـكـ نـعـوتـاـ مـبـتـذـلـهـ وـصـفـاـ لـأـبـوـ الـفـقـيدـ ٠ـ فـلـسـتـ بـقـائـلـ مـثـلاـ :ـ اـنـهـ كـانـ مـيـجـاـ حـنـوـنـاـ شـفـقـاـ مـضـحـيـاـ بـنـسـهـ ،ـ وـنـحـوـ ذـلـكـ مـنـ الصـفـاتـ الـتـىـ لـعـلـكـ قـرـأـتـهـ مـنـ الـعـنـوانـ وـحـدـهـ ٠ـ كـلـاـ !ـ فـانـيـ أـغـيـكـ

عن سماع المبتذل بذكر بعض أطواره ، ولعلها أبلغ من كل ما يقال  
في هذا المعنى .

كلما فكرت في أخلاق والدى - رحمة الله - تمثلت سعة  
صدره قبلسائر صفاتة ، فقد كان صبورا لا يفوته شيء  
من واجباته صغيرا كان أو كبيرا . وطالما سمعته يردد القول المعروف  
أعقل الناس أغذرهم للناس . وكانت تربيته لأولاده تربية استقلالية  
فاني ما زلت منذ الثانية عشرةأشعر أنه يعاملنى معاملة الرجال ،  
فكان لي صديقا وأبا في آن واحد . لم أستحبى قط أن أفتح له  
صدرى فى ساعة الضيق ، وأشكو له متاعبى . وكان يصفع لأولاده  
بكل لذة ، وينظر الاهتمام لآرائهم ، وان كان ما يقولونه خاليا من  
المعنى أحيانا ، ولكن ذلك يزيد ثقتهم بأنفسهم . وقلما اعتبرضهم  
فى سلوكهم ومعتقداتهم وآرائهم . وكان يباحثهم كأنهم زملاء له ،  
ويناقشهم فى سلوكهم ، وينظر لهم الطريق الصحيح . ولا أذكر  
أنه لجأ مرة الى الكلام الحسن ٠٠٠ وكان يقلل من النصائح  
والارشادات ، مفضلا أن يجعل سلوكه الشخصى مثلا لأولاده ،  
ونعم المثال ) .



## نهاية الحياة ودموع الوفاء

من عجيب ما لاحظناه في أخطاء الوفيات في عصرنا الحديث  
هذا الخطأ الذي دار في المراجع والمصادر حول تاريخ وفاة جرجى  
زيدان .

ففي الترجمة المنشورة في آخر الجزء الرابع من « تاريخ  
آداب اللغة العربية » يقول كاتب السيرة - ولم يذكر لنا من هو -  
أن زيدان توفي في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ . ولا شك أن أبناء الفقيد  
قد اطلعوا على هذه الترجمة ، وعلى هذا التاريخ وأقوره ، أو لم  
يعرضوا عليه ، بدليل نشره في الطبعات التالية من الكتاب حتى  
الطبعة الأخيرة التي ظهرت سنة ١٩٥٨ .

وفي النعى الذي نشرته مجلة المقطوف في عدد شهر أغسطس

سنة ١٩١٤ بقلم الدكتور يعقوب صروف (أن صاحب الهلال توفاه الله بقته في يوم الثلاثاء مساء، في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤) .

وفي مادة « زيدان » من دائرة المعارف الإسلامية ، وهي المادة التي حررها المستشرق كراتشيفسكي جاء أن الرجل ( توفي بالقاهرة في ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ ) وبعد شهراً كاملاً من تاريخ الوفاة في المصادرين السابقين .

وفي « معجم المؤلفين » لعم رضا كحالة أن زيدان ( توفي فجأة بالقاهرة في ٢١ أيلول - أي سبتمبر - سنة ١٩١٤ ) . وبهذا بعد تاريخ وفاته شهرين كاملين !

وقد تابع شارحو ديوان محمد حافظ ابراهيم ومحققوه في طبعة دار الكتب المصرية التي أصدرتها وزارة المعارف يومئذ - تابعوا القول أو التاريخ الذي أخذ به المستشرق كراتشيفسكي ونشره في دائرة المعارف الإسلامية .

والذي اتضح لنا بعد التحقيق والمراجعة لصحافة ذلك العهد ومجلاته الأدبية أن كراتشيفسكي قد جاء الخطأ في التاريخ مما نقله عن مجلة الهلال عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من الهلال يصدر بعد وفاة صاحبه ، وقد نشر النفي فيه مطولاً مفصلاً(١) .

---

(١) الحق أن هذا النفي كان سيرة مفصلة لحياة جرجي زيدان ، وهي من المصادر الجيدة .

ولكن حدث خطأً مطبعيًّا في شهر وفاة زيدان ، لم يفطن إليه كاتب  
النعي ، ولا أدارة الهلال ذاتها ، ولا أحد من أبناء الفقيد وأسرته  
وظل هذا التاريخ مرجع المترجمين لسيرة زيدان وعلى رأسهم  
المستشرق كراتشوفسكي ، فلم يفطن إليه ، ودونه في دائرة  
ال المعارف ، وأخذه شارحو ديوان حافظ ابراهيم – وهم الأساتذة  
أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وابراهيم الأبياري – فذكروا هذا  
التاريخ بدون تحقيق ولا تصحيح ٠

وعلى الرغم من أن تاريخ وفاة زيدان الذي نشر في آخر  
أجزاء « تاريخ آداب اللغة العربية » – وهو ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ –  
هو أقرب التوارييخ مظنة للصحة ، فإننا لا نميل إليه ، فقد يكون  
خطأً مطبعياً صارخاً كالذي صدر في عدد أكتوبر من الهلال سنة  
١٩١٤ وهو التاريخ الذي خدع المستشرق كراتشوفسكي فأوقعه  
في وهم كبير ٠ ونميل إلى التاريخ الذي ذكره الدكتور صروف في  
مقططف أغسطس سنة ١٩١٤ ، وهو يوم الثلاثاء مساءً ، في ٢١ يوليو  
سنة ١٩١٤ ٠

ولعل السر في فرق يوم واحد بين التاريخ الذي ذكره  
صروف ، والتاريخ الذي جاء في سيرة زيدان بآخر الجزء الرابع  
من تاريخ آداب اللغة العربية ، يكمن في أن أهل زيدان شكوا  
ساعة الوفاة في وفاة الرجل ، فقد كانت دلائل الصحة بادية عليه  
قييل وفاته بلحظات ، وقد مات بين كتبه وأوراقه ، وكانت ملامح

الموت لا تبدو على وجهه ، فحسبها الأهل اغفاءة أو أغماءة . ويفوّك  
لنا هذا ما جاء في الترجمة المطولة لحياة زيدان التي نشرت في جزء  
أكتوبر من الهلال سنة ١٩١٤ ، فقد جاء فيها : ( وبعد أن أقيمت  
صلوة الجنازة في الكنيسة لحظ أهله أن هيئة الموت لم تبد على وجه  
القديد ، بل صارت علامات الحياة ظهر فيه مما كانت في الصباح ،  
ففحصه الأطباء فقالوا : إن كل الدلائل تدل على حدوث الموت  
لكن أهله ظلوا مرتابين ، فعدلوا عن دفنه ، وأقرروا على إبقاءه إلى  
الصباح . ولما كان الصباح خاب أملهم الضعيف ، فدفعوا فقيدهم  
بوجه يتنمون لو يفدونه بأرواحهم ) .

من هنا جاء الخلاف في يوم واحد بين ٢١ يوليو ، ٢٢ يوليو  
سنة ١٩١٤ . أما الخلاف في شهر وشهرين فهو من الأوهام التي  
ترجو أن يصححها هذا التحقيق .

ولم يكن جرجي زيدان وحيدا في موته وهو محاط بالكتب  
والوراق بلا سابق انذار ، ولا متقدم اخطار . . . فكثيرون في  
القديم والحديث ماتوا هذه الموتة . وهي ميتة شريفة على كل حال ،  
ويليست موته على الفراش كما يموت العبر . . . كما قال خالد بن  
الوليد ، ولكنها أشبه بميتة الجندي في ساحة الجهاد ؟ أليس طلب  
العلم جهادا من أشرف المجاهدات ؟ وتذكر موته زيدان هذه بموته  
محمود باشا الفلكي فجأة وهو محاط بالكتب والأوراق كما ذكر  
زيدان في سيرته التي كتبها له في « تراجم مشاهير الشرق » . كما

تذكّرنا بعوته أخرى لصديقنا شيخ المترجمين في العصر الحديث  
عادل زعير ، الذي مات في بيته بنابلس والقلم بين يديه في تشرين  
الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٥٧ لأنهما آخر سنة من الهلال •

وقد توقف الهلال عن الصدور بعد وفاة صاحبه شهرین اثنين  
لأنهما آخر سنة من الهلال ، ثم صدر عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ،  
وفي فاتحته مقدمة بقلم ابنه « أميل » يقول فيها : ( ما أصعب موقف  
الابن يرثى آباء ! وليس كل الآباء كمن فقدت • وما أعجز الكلام  
البشرى عن تأدية ما يجيش في القلب ! لم تكن تستهى السنة الثانية  
والعشرون حتى أصيب الهلال بفقد مؤسسه ومشيئه ، فانهدم بموته  
ركن عظيم من أركان الآداب العربية ، وخسر به العالم رجالاً كثیراً  
يعواطفه ، كثیراً بعقله ، كثیراً بأعماله • وكأنّي بموته قد سقط بناء  
شامخ من العلوم والأداب والأخلاق الراقية • أن ذلك الصدر  
الواسع الذي ضم العالم وأضطراباته بين جناحيه يضنه اليوم قيد باع  
من الأرض • لكن لا ! لم يعم جرجي زيدان • ولشن جهلنا خلوده  
في العالم الآخر ومقره فيه ، فلا ريب في أنه خالد في هذا العالم ،  
خالد في أئمدة أهله ومحبّيه ، خالد بأعماله وأثاره العظيمة ) •

ولقد رثى زيدان في الهلال عقب وفاته كثير من العلماء والأدباء  
والمفكرين ، منهم أخوه متري زيدان ، وشبل شمیل ، ورفيق  
النظم ، وخليل مطران ، وأحمد حافظ عوض الصحافي الأديب ،

ومصطفى لطفي المنفلوطى ، وجبران خليل جبران ، وداود بر كات ،  
وأنطون الجميل ، والدكتور شدودى وغيرهم ٠

وخرجت جنازة زيدان ، وفيها كثيرون من العلماء والأدباء  
والشعراء وأصدقاء الرجل وتلاميذه ، وعلى رأسهم أحمد حشمت  
باشا الذى كان وزيراً للمعارف فى تلك الأيام ، والذى كان صاحب  
فضل على الشاعر محمد حافظ ابراهيم ، فأنفقه من مخالب بؤسه  
ويأسه وتعطله من العمل ، وعيته رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب  
المصرية سنة ١٩١١ ٠٠

واشتراك لفييف من شعراء مصر في ذلك المعهد في تأبين جرجي  
زيدان في الحفل الذي أقيم له ٠ وقد ازدحمت قائمة الشعراء  
والخطباء يومئذ بأسماء كثيرة ، أما الذين لم يتسع حفل التأبين لهم ،  
فكان في الأعداد التالية من مجلة الهلال مجال فسيح لهم ٠

ولم يختلف أحمد شوقي ، ومحمد حافظ ابراهيم ، وخليل  
مطران - وهم الذين كانوا يسمون بالشعراء الثلاثة - عن المشاركة  
في تأبين رجل أحسن الجميع بعظام المصيبة فيه ، وكذلك لم يختلف  
من بقية الشعراء حفني ناصف ، وولى الدين يكن ، فقد كانت  
تربيتهمما ب Georges Zidan أحکم الصلات ٠

وقد ألم أحمد شوقي في مرثيته اللامية وفي مطالع أبياتها  
بحالة البلاد الشرقية ، وسأل نوابع الرجال في الشرق أن يهزوه

لعله يصحو من غفوته ، وناشدهم أن ينفحوا فيه من روح البيان  
 وحقيقة العلم لعله ينهض بعد عترته ، وسألهم أن لا يجعلوا الدين  
 ببابا للشر ، ولا محل مباهاة طائفية على طائفه ، فليس الدين إلا تراثا  
 يتبع فيه الابن أباه ، ولا يد له في اختياره ، ومضي شوقي في نصائحه  
 لأبناء الشرق ، ثم عرج على العلم وقيمه ، وأن الأمة التي تمشي في  
 الدنيا بالعلم يأبى الله لها أن تكون مقيدة تمشي بالأغلال . ثم انتقل  
 شوقي إلى المفاخرة بنفسه – كعهده في بعض قصائده مثل قصيدة  
 في رئاء مصطفى كامل ، ونفذ من ذلك إلى كثرة فجائعه بفرقة أحبائه  
 وكثرة مرايه لهم ، حتى بات هو من فرقه الأحباب أهلا لأن يرثني .  
 وطرق إلى الموت والى الدنيا الخوون التي لا أمان عندها ، ولا خلق  
 لها ، ووجد في الموت أقصى ما يرام من راحة البال . وانتقل بعد  
 هذا إلى « الهلال » وما يحتويه من روائع العلم والأدب ، والى  
 مؤلفات زيدان ورواياته ، وكان المقطع الخاص بروايات زيدان  
 بالتاريخية هو معقد الموازنة بين روايات الحياة ورواية الموت ، وبه  
 ختم مرثيته قائلا :

وضعت خير روايات الحياة ، فضم  
 رواية الموت في أسلوبها العالى

وصف لنا كيف تجفو الروح هيكلها  
 ويستبد البلى بالهيكل الحالى

وهل تحن اليه بعد فرقه  
 كما يحن الى اوطانه الحالى ؟  
 هضاب لبنان من منعاتك اضطربت  
 كأن لبنان مرمى بزلزال  
 كذلك الأرض تبكي فقد عالمها  
 كالم تبكي ذهاب النافع الحالى

ومرثية شوقى على فحولتها واحكم نسجها لم تعطنا صورة  
 لزيدان الا حين عرج الشاعر على «الهلال» والعلم والأدب ، وهى  
 صورة لم يبلغ بها شوقى مبلغ خليل مطران الذى أجاد عرض صورة  
 زيدان وملامحها الى حد كبير . وقد بدا الحزن والتراجع فى قصيدة  
 مطران ، وخاصة فى أبيات من مطالعها حيث يقول :

برغم المنى ذاك الختام المحير  
 كتابك تطويه ، ومنعك ينشر  
 دهاك الردى فى الرايحين فراعنا  
 كأنك غاد فى الصبي فمبكر  
 يراعلك فى اليمنى ، وذهنك حاضر  
 وعزتك ذاك العزم والمود انضر

أما مرثية الشاعر محمد حافظ ابراهيم فقد استهلها بأن الخطوب  
 عقدت لسانه ، وأنه سئ الوقوف على المنابر متلهفا يرىنى الراحلين

من أصحابه ، وأنه لا يزال من مصابه في فقد الأئمّا مُحَمَّد عبده  
سنة ١٩٠٥ في أى يكفيه ، فلا موضع عنده لتحمل أحزان جديدة ،  
وأنه بات بعد موت أصحابه ولداته مفرداً وحيداً يتظر ساعة موته :

دعاني رفافي والقوافي مريضه  
وقد عقدت هوج الخطوب لسانى  
فجئت وبى ما يعلم الله من أى  
ومن كمد قد شفى وبرانى  
مللت وقوفى بينكم متلهفا  
على راحل فارقته فشجانى  
أهى كل يوم ببعض الحزن بضعة  
من القلب ؟ انى قد فقدت جنانى  
كفانى ما لقيت من لوعة الأسى  
وما نابنى يوم الامام كفانى  
تفرق أحبابى ، وأهلى ، وأخرت  
يد الله يومى ، فانتظرنى أواني ٠٠٠

بقى من المرانى الشعرية التي اخترناها من قصائد الشعراء  
في جرجى زيدان قصيدةان : أولاهما لحفنی ناصف بك ، والثانية  
لولى الدين يكن . أما قصيدة حفنی ناصف ، ففي مجموعة « شعر  
حفنی ناصف » التي جمعها وأرخ لصاحبه ولده الأستاذ مجذ الدين

ناصف ، وقد نهج فيها الشاعر رحمة الله نهجاً غريباً لم تألفه في  
 قصائد النساء ، إلى حد أن ولده وناشر ديوانه أضطر إلى التعليق  
 على المرثية بقوله في الهاشم : ( وقد نحا الشاعر في رثائه نحو  
 جديداً ، بأن أغفل المعانى المطروفة في العلم والأدب ، ووصف  
 الحرب وأدواتها الحديثة وأهوالها وصفاً واقعياً قوياً ) (١) . ولعل  
 عذر حفني ناصف بك في سلوك هذا المسلك لأن الحرب ، العالمية  
 الأولى سنة ١٩١٤ كانت قد اندلعت زارها قيل وفاة زيدان بأسباب عديدة ،  
 وكانت أخبارها تهز العالم هزاً عنيفاً ، وقد امتلأت أعمدة الصحف  
 بوصف أهوالها ومدافعاً ورصاصها وغواصاتها ؟ فنقل الشاعر  
 جو القصيدة من النساء الموضوعى الحمض إلى الأسى والتراجع على  
 العالم الذي يهدده الدمار والخراب . ولعل نشر أبيات هنا من مرثية  
 حفني ناصف يوضح لنا ذلك المنحى الجديد الذي أشار إليه ولده  
 يقول الشاعر :

بربك يا زيدان هل كنت تعلم ؟  
 بان أديم الأرض يصبغه الدم ؟  
 وأن صنوف الموت تملأ وجهها  
 فلا موضع إلا به النار تضرم  
 فأبْنَقْتَ ظهر الأرض ، واعتضت بطئها  
 إلا ان بطن الأرض أنجى وأسلم

(١) شعر حفني ناصف . ص ٥٣ .

وَعْتَ قَصُورَا بِالْمَاصِبَحِ زَيْنَتْ  
وَرَاقَ قَبْرَ فِي الْبَلَاقِعِ مَظْلَمْ  
وَمَا حَسَنَ قَصْرَ كُلِّ مَنْ فِيهِ خَائِفْ  
بِجَانِبِ قَبْرِ فِيهِ بَيْتُ مَحْرَمْ؟  
أَنْسَتْ بَمْنَ تَحْتِ الثَّرَى حَامِدَ السَّرَّى  
وَأَلْهَاكَ عَنَا عَبْدَ ضَحْمَ وَجْرَهُمْ  
نَمْ تَطْرُقُ الشَّاعِرَ إِلَى الْحَرْبِ وَأَهْوَالِهَا، وَهُوَ يَدْعُو جَرْجَى  
زَيْدَانَ إِلَى أَنْ يَؤْرُخَ لِلْأَنَامِ حَوَادِثَ تَشِيبِ لَهَا الْوَلَدَانِ هُولًا وَتَهْرَمَ،  
فَيَقُولُ :

مَدَافِعٌ تَسْتَكِ المَسَامِعُ دُونَهَا  
وَتَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ جَهَنْمَ

إِذَا فَرَّتْ أَفْوَاهِهَا لَكَرِيمَةَ  
تَدْكِ الرَّوَاسِيِّ وَالْمَحْصُونَ تَحْطِمَ  
وَسْفَنَ تِبَارَتْ فِي الْمَسِيرِ أَرَاقِمَا  
إِذَا زَالَ مِنْهَا أَرْقَمَ صَالَ أَرْقَمَ

وَيَلْاحِظُ غَرَامَ حَفْنِي نَاصِفَ حَتَّى سَنَةِ ١٩١٤ بِالْمُحْسَنَاتِ  
الْبَدِيعِيَّةِ فِي شِعْرِهِ، كَالْجَنَّاسِ بَيْنَ الثَّرَى، وَالسَّرَّى، وَبَيْنَ زَالَ وَصَالَ  
فِي الْبَيْتِ الْآخِيرِ ٠

أَمَا مَرْئِيَّةُ الشَّاعِرِ وَلِي الدِّينِ يَكْنَى فَلَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، فَلَمْ تَجْاوزْ

أبياتها العشرين بيتاً ، وقد جلأ في ثانٍ أبياتها إلى مناجاة زيدان الذي  
 كان يقضى ليه ساهراً ، ثم هجع وما كان العهد به أن يهجع . ولم  
 يكن سهر زيدان بين الغوانى والملاهى ، ولكنه سهر بين المحابر  
 والدفاتر . وأشار إلى خسوف (الهلال) ليلة تمامه ، وهى ضجعة  
 ليس من بعدها قيام ، وتمنى على الموت لو أمهله حتى يودع أصحابه  
 ويودعوه . وخلص من ذلك في سرعة إلى فضل زيدان الذي  
 لا تحجبه صخور القبور ولا جنادلها . فهو مثل « الراديوم » النفاذ  
 الذى تخترق أشعته أكف الأجسام . ولا بأس من ايراد بضعة  
 أبيات من هذه المريمية :

نادوا بالسنة الرثاء فأسمعوا  
 جهد الحزين تذكر وتوجع  
 يا ساهراً والليل يغتر بالكري  
 عجباً هجعت وما عهدتك تهجه  
 بين المحابر والدفاتر مجلس  
 هو للمعارف والمعالى موضع  
 خسف الهلال به عشية تمه  
 من بعد ما قد كان منه يطلع  
 هي ضجعة ما أعقبتها نهضة  
 فقضى الضجيع كما أفضى المضجع

لو أمهلتك لكي تودع معشرا  
سبقت قلوبهم اليك تودع

\* \* \*

زيدان فضلك ليس يحببه الشري  
الفضل من تحت الجنادل يسطع  
كارديوم الوهاج الا أنه  
أمضى شعاعا في العيون وأبدع ٠٠

بقى أن نقول ان هناك كثرين من الأدباء الشعراء في الوقت  
الذى مات فيه زيدان لم يتخللوا عن المشاركة فيما رأوه واجبا عليهم  
نحو رجل خدم اللغة والأدب والتاريخ أكثر من ثلاثة عاماً وظل  
«هالله» يتقلل في سماء الأدب والعلم اثنين وعشرين عاماً، فنظموا من  
القصائد ما يعبر عن شعورهم بالفجيعة، ومن هؤلاء الطيب السورى  
المتصدر الدكتور ابراهيم شدودى (١)، الذى كان يقول الشعر من

(١) ليس للدكتور ابراهيم شدودى ديوان مطبوع، وكان شعره - وخاصة  
زجلاته الفكاهية - ينشر في الصحف والمجلات في ذلك العهد؛ ولم نعثر له على  
ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر، وتحدث عنه الاب لويس شيخو السيوسي  
بسطر واحد في كتابه «الأداب العربية في الرابع الأول من القرن العشرين ص  
١٦٤ قائلاً: ( وعني الدكتور شدودى ابراهيم - يزيد ابراهيم شدودى -  
بالزجليات ، فأخرجها على صورة لطيفة انتشرت بعدة جرائد ) .

حين الى حين ٠ وقد قرأنا له في رثاء زيدان قصيدة جيدة نشرت  
في هلال سنة ١٩١٤ وفيها يقول :

مقامك فوق العلا صاعد

وجسمك تحت الثرى راقد

وصيتك يجتاز عرض البحار

وأنت طويل الگرى مامد

وجيل يسد ، وجيل يجيء

وذكرك ما بينهم خالد

وفضلك بين بنى الشرق رغم

تباسين أديانهم واحد ٠٠٠

ولست بمفتر للشهود

ففى كل مكتبة شاهد

ولقد رأينا دموع أهل زيدان تنهمر مع دموع الماكين عليه ،  
فإذا ولده اميل ينعاه ويرثيه في كلمة باكية مبكية تذيب القلوب ،  
نشرها في أول عدد من الهلال صدر بعد وفاة القيد ، ورأينا شقيقه  
متى يرثيه أيضا بكلمة في العدد نفسه ، وقرأنا بعضة أبيات لشقيقه  
«ابراهيم زيدان» - صاحب مكتبة الهلال بالفجالة - يرثي بها أخيه

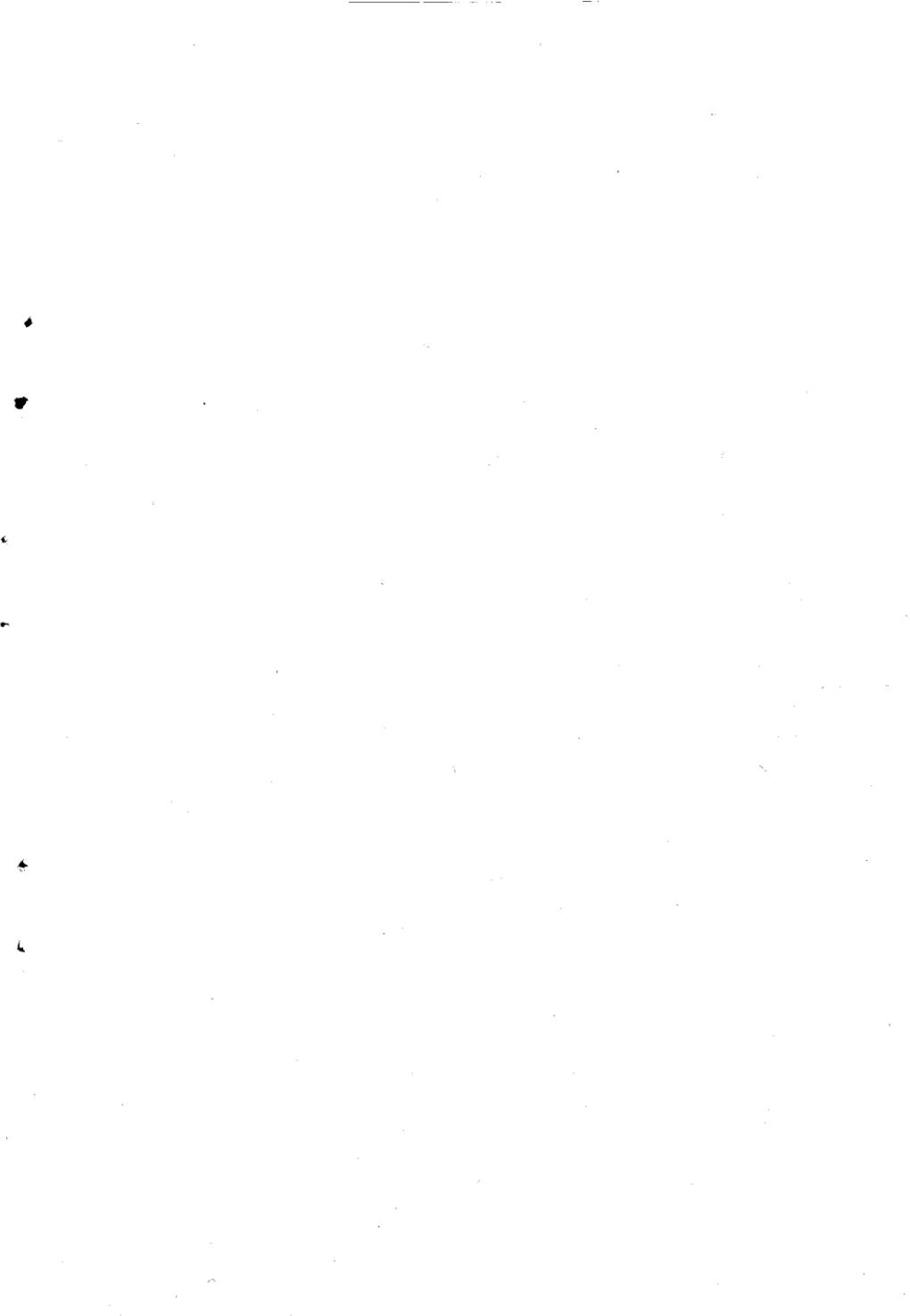
وقد أودعها ديوانه الذى نشره بعنوان « ذكريات » – وصدر عن  
مكتبة الهلال بدون تاريخ – وفيها يقول :  
قضى دون أن يقضى منه ، ومن يذب  
قريحته فى العلم من قبره يدنو

ذوى غصنه رطبا ، وقلبي حائى  
عليه فذاق القلب ما ذاقه الغصن

اذا حال داعى البين بينى وبينه  
فروحى ما زالت الى روحه ترنو

يقولون لي صبرا فما الدمع فى الأسى  
بمسجد ، فقلت الصبر أن تصبر العين

عليك سلام الله ما فاض مدمى  
وما هاج من ذكرراك فى كبدى حزن



## السنة الخلق أقلام الحق

سنجعل هذا الفصل معرضاً لآراء الباحثين والمفكرين والعلماء والأدباء في تقدير جرجي زيدان وزنه بموازين العدل من وجهات نظر مختلفة لأصحاب هذه الموازين . ولعل هذا المعرض - بما احتشد فيه من آراء الرجال - يصور لنا جرجي زيدان على أتم صورة وأقربها إلى الحقيقة .

وكل رأى هنا هو خلاصة مرکزة لفكرة صاحبه عن الترجم له ، وقد تلتقي بعض هذه الخلاصات فيتكرر الرأى عند اثنين أو أكثر ، وقد يكون الرأى فريداً لم يستدرك معه غيره من الآراء ، والنتيجة سواء في التفرد والالتقاء ، وهي أن جرجي زيدان شغل من تفكير المفكرين ما يستأهله من التقدير والحمد الثناء .

فالدكتور محمد حسين هيكل يقول عن زيدان : ( جرجي

أفندي زيدان من أكبر كتاب التاريخ في مصر ، بل لا يبالغ اذا قلت انه هو الرجل الوحيد المترغ في الوقت الحاضر لكتابه التاريخ ) . « في أوقات الفراغ » ص ٢١٥

• والدكتور طه حسين يقول : ( ان جرجي زيدان هو الذي نقل الى الأدب العربي مذهبها من مذاهب الأدب الأوروبي : هو القصص التاريخي ) . « من أعلام الفكر والأدب » ص ٨٧ .

• والمرحوم عباس محمود العقاد يقول : ( ان جرجي زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ، وسميته نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . تقرأ جرجي زيدان في جميع موضوعاته فإذا هو مطبوع بطابع السداد والاستقامة والسواء . هي جدول وليس بشلال ، وهي بنت الدوام وليس بنت الفلتان واللمحات ) « المصدر السابق » .

• والدكتور يعقوب صروف يقول عن مؤلفات زيدان : ( ٠٠٠ واستخلص من ذلك كتاباً ممتعة في آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة في التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وببحث في تواریخ دول الإسلام وألف فيها كتاباً جليلاً ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروایات التاريخية الفکاهية ، جمع فيها زبدة تواریخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ ) « مجلة المقتطف » . عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ .

• والشيخ أحمد الاسكندرى وزملاؤه أحمد أمين ، وعلى الجارم ، وعبد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف يقولون : ( من هذا القدر الموجز من تاريخ جرجى زيدان تدرك مبلغ همته ، وصدق عزمه ، وشدة بلائه فى سبيل العلم والأدب . وخاصة اذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل ، مبتور الذرائع ٠٠ )

• الفصل ج ٢ ص ٤٠٢ •

• والشيخ مصطفى لطفى المفلوطى يقول فيه : ( تطلع الشمس فى كل صباح من شرقها على هذه الكائنات ، ناطقها وصامتها ، حيماً ومتتها ، جامدها وسائلها ، فستتمد منها كل مادة حياتها التى تقومها ، أو صورتها التى تتشكل بها . وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء هذا البلد . لقد كان زيدان روحًا عالية تميّنناها ، فلما وجدناها نعمنا بها قليلاً ، ثم فقدناها أحوج ما نكون اليها ) « مجلة الهلال » سنة ١٩١٤ .

• والصحافى الأديب أحمد حافظ عوض يقول : ( لا أظن أنه وجد فى العالم العربى ، فى العصر الأخير ، من ترك كمية كبيرة من العمل العلمى والأدبى الجدى مثل منشى الهلال . فإن رواياته ومجلدات الهلال ، ومؤلفاته التاريخية واللغوية والأدبية تكون فى مجموعها موسوعات كبيرة . ولو لا أنها ونحن المعاصرین « كذا » له نعلم علما لا مسرب للظن فيه أن الفقيد هو الذى كتب بقلمه كل هاتيك المنشآت ، ورتب أبوابها ، وابتكر موضوعاتها ، وراقب بنفسه

طبعها ووضعها ، منفردا لا يمل على متحررين مأجورين ، ولا يشتراك مع طائفه من الأدباء الكاتبين ، لو لا ما نعلمه عن يقين صحيح لداخلنا الشك أو تسربت إلينا بعض الطعون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظام على كاتب واحد ) « الكتاب الذهبي للهلال

سنة ١٩٤٢ »

• والصحافى الأديب أنطون الجميل يقول : ( في هذا الجمع الموقر الذى التف حول الهلال كثيرون هم زملاء الفقيد ورصفاؤه فى معاناة صنعة القلم ؛ فهم أدرى من سواهم بما يكابده المؤلف فى الشرق من العناء فى جمع مواده وتأليفها فى أى فن من فنون الكتابة . لذلك يدرؤون كم كانت لفتنا مدينة لجامع أشئرات تاريخها وتاريخها آدابها ، وتاريخ شعوبها ) « مجلة الهلال » . عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ »

• ومؤرخ الإسلام رفيق العظم يقول : ( انى عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عاني ما عانيت من المشقة فى اتقاء الحوادث والأخبار . فلم أر أحسن من الأسلوب الذى اتبعه فى كتبه المرحوم جرجى زيدان ، ولا أدق ترتيبا للمواضيع ، و اختيارا للحوادث ، خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الإسلامية . فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجى زيدان

على التاريخ العربي ، بيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية  
و تاريخها ) « الكتاب الذهبي للهلال »

• والمحامي الأديب سامي الجريديني يقول : ( ابتدأ زيدان  
يحرر الهلال منذ عشرين سنة و نيف ، فكان في أول سنة من سنى  
الهلال يقف الى مكتبه وقوفا ، يحرر فصلاً أدبياً أو اجتماعياً ،  
ويترجم رجلاً مشهوراً ، ويؤلف رواية تاريخية ، ثم يرافق الطبع  
والتصحيح ، دائباً على العمل نهاراً وليلًا . ثم توفي ، وكان قبل  
الوفاة ببعض دقائق وافقاً وفته ، لم يقلل ساعات العمل ، ولم يتضجر  
أو يتأنف يوماً من كثرته ) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ .

• ويقول الأب لويس شيخو اليسوعي : ( ٠٠٠ على أنسنا  
لا تذكر أنه كان أحد أركان النهضة الأدبية الجديدة في الشرق  
الأدنى ) « الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين »  
ص ٧١ .

• ويقول الأستاذ أنيس المقدسي : ( ٠٠٠ هذا من حيث  
القصة ، أما من حيث مؤلفات زيدان التاريخية والأدبية فإنه يحتل  
الصدارة بين كتاب العصر . وهو ركن كبير من أركان النهضة  
الأخيرة ) « الفنون الأدبية وأعلامها » ص ٥١٧ .

• ويقول الأستاذ يوسف أسعد داغر : ( خصص حياته جلو  
و تطهير التاريخ العربي والاسلامي ، فكان بذلك من أكبر خدام

القضية العربية ، والعامل الأكبر في البعث القومي ) : « مصادر  
الدراسة الأدبية » ح ٢ ص ٤٤٣

♦ ويقول الأستاذ مارون عبود : ( ان لزيدان فضلا جزيلا  
على النهضة الحديثة ، فهو من أركانها الكبار . قد علم الناس  
تاريχهم ، وسلامهم معا ) « رواد النهضة الحديثة » ص ١٧٢

♦ ويقول المرحوم طاهر الطناحي : ( اذا ذكر العصاميون الذين  
بنوا أنفسهم ، وشادوا للإنسانية صروحًا عالية في مختلف اليادين  
بأعمالهم المديدة ، وجهودهم المتازة ، فإن جرجي زيدان في المقدمة  
بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ ) « عصاميون عظاماء من الشرق والغرب »  
ص ٦١

♦ ويقول الدكتور حسين مؤنس : ( ٠٠٠ وأنا أشير إلى ذلك  
هنا لأن قصة كفاحه تلك هي أحسن تفسير لما نجد في مؤلفاته من  
التبحر والاحاطة وصدق الملاحظة وعمق النظرات . فيما كان هذا  
كله يتأنى لرجل ، الا اذا كانت حياته قد أذكت في كيانه فحولة  
كفيلة بالوصول بصاحبها الى ما لا يصل اليه من لم يعرف مغالبة  
الظروف ، ومطاولة الأيام ) « تاريخ التمدن الإسلامي » المقدمة  
ص ٦

♦ ويقول المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال : ( وكثير  
المؤرخين السوريين في مصر في أواخر القرن التاسع عشر هو

جرجي زيدان ) ( وجرجي زيدان يعتبر الرائد الأول في كتابة القصة التاريخية ) . « التاريخ والمؤرخون في مصر » ص ١٨٥ -

١٨٦

• ويقول الدكتور محمد يوسف نجم : ( ٠٠٠ واستطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضي الطبقات المختلفة . ألف كتابا علمية وتاريخية ترضي الخاصة ، وألف هذه القصص ، التي اعتمد فيها على تاريخ العرب والمسلمين ، لكي يلفت اليه أنظار العامة التي كانت تتلهى بالقصص الشعبي وأكثره تافه . واستطاع زيدان أن يرضي هذه الطبقة أيضا وأن يستميلها إلى قصصه ، كما أرضى بآثاره الأخرى سواها من الطبقات . وهكذا كان زيدان معلما للشعب بعامتها ، على اختلاف طبقاته وثقافاته . ) « القصة في الأدب العربي الحديث » ص ١٨٨ .

• ويقول الدكتور عبد المحسن طه بدر : ( وقد حاول جرجي زيدان في ميدان الرواية ما حاوله مطران في ميدان الشعر ، فحاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية ، وبين تأثيره بالشكل الروائي الغربي من ناحية أخرى . وكان له أكبر الأثر في ظهور التيار الثاني من الرواية التعليمية ) « تطور الرواية العربية الحديثة » ص ١٠٦ .

• ويقول المستشرق الروسي كراتشيفسكي : ( وقد أبرز

الربع الأول من القرن العشرين ما كان لزيدان من شأن كبير .  
وسيظل اسمه مذكورا على الدوام في تاريخ الأدب العربي الحديث،  
وفي المجتمع العربي الحديث ) « دائرة المعارف الإسلامية » .

### مادة زيدان المجلد ١١

• ويقول الدكتور محمود حامد شوكت : ( فلا ينكر أن  
الكاتب - بيريد زيدان - ببذل جهده في توسيع أفق الثقافة التاريخية،  
لا سيما نواحي الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية في التاريخ  
الإسلامي الوسيط ، وحاول أن يتتفع بمطالعاته في الثقافة الغربية ،  
متأثراً بمحاولات علم النفس ، للعواطف والتزعمات ، والحب  
والبغض ، وفتح بذلك باب الاجتهاد والأرتياح لمن يواصل الكتابة  
في هذا الباب ، فهو رائد له فضل التضحية والجهاد ، وقد ترك لمن  
بعده مواصلة الاجتهاد في تمثل التاريخ والتعبير عنه في فن ذي  
وحدة أعمق ، وذى معنى أكثر انسانية ٠٠٠ ) « الفن القصصي في  
الأدب المصرى الحديث » ص ١٥١ - ١٥٢ .

• ويقول أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود : ( وأخيراً  
جاء جورجي زيدان ، فتحا بالتاريخ نحواً جديداً اتبع فيه أسلوب  
الفرنج في جمع النصوص وبحثها ، والاستنتاج منها ، ودراسة  
الأسباب والنتائج ) - « قصة الأدب في العالم » ح ٣ ص ٣٤١ .

## مؤلفاته

لقد أشار المرحوم أحمد حافظ عوض إلى ضخامة الاتساع الذي أخرجه جرجي زيدان ، وقال بأنه لو لا يقيننا وعلمنا الذي لا مسرب للظن فيه بأن الرجل هو الذي كتب بقلمه كل هذا الاتساع منفردا ، لم يشركه فيه واحد ، لداخلنا الشك أو تسربت اليانا الطعون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظام على كاتب واحد .

والذين يعنون بتقسيم الموضوعات التي ألف فيها زيدان لا يجدون صعوبة في ملاحظة أنها تتراوح التاريخ ، والترجم والسير ، والجغرافية ، وتاريخ الآداب العربية ، والمجتمع ، والقصة التاريخية الطويلة . وستتناولها كتابا كتابا ، مع الاهتمام بايضاح موضوع كل كتاب وتاريخ صدوره ، وما أثير حوله من نقد .

## أولاً : كتب التاريخ

١ - تاريخ التمدن الإسلامي . وكانت أولى طبعاته سنة ١٩٠٢ ،  
لـ سنة ١٩١٠ كما ذكر الدكتور حسين مؤنس - وهمـا - في مقدمته  
للطبعة الأخيرة من هذا الكتاب ، وجاء الوهم الى الدكتور مؤنس  
من قول زيدان نفسه في مقدمة الطبعة الأولى بأنه رأى أن يجعل  
تتمة السنة « العاشرة » من الهلال كتاباً في هذا الموضوع ، ففهمها  
الدكتور حسين مؤنس بأنها سنة ١٩١٠ ، والحق أنها السنة العاشرة  
من انشاء الهلال ، أي سنة ١٩٠٢ وقد صدر الكتاب في خمسة  
أجزاء تقرب من ألف ومائتين صفحة . وهو مزین بالصور والرسوم  
الكثيرة ، والخرائط ، والأسκال التوضيحية . وقد تناوله بالقدر  
جماعـة منهم الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة الشرق ،  
والدكتور يعقوب صروف في المقتطف ، ومصطفى جواد في السنة  
النـاسـعـة عـشـرـة من مجلـة العـرـفـانـ التي أـشـأـهـاـ أـحـمـدـ عـارـفـ الزـينـ في  
صيداـ بـلـبـانـ .

٢ - تاريخ مصر الحديث مع فذلـكةـ في تاريخ مصر القديم .  
وقد ظهرت طبعتـهـ الأولىـ بمـصرـ سـنةـ ١٨٨٩ـ ،ـ أيـ قـبـلـ صـدـورـ مجلـةـ  
الـهـلـالـ بـعـامـيـنـ .ـ وـنـشـرـتـ المـقـتـطـفـ تـقـدـاـ لـهـ فـيـ العـاـمـ نـفـسـهـ .ـ وـقـدـ  
أـوـدـعـهـ الـؤـلـفـ مشـاهـدـاتـهـ لأـحـدـاثـ مـصـرـ فـيـ عـصـرـهـ ،ـ كـمـاـ أـوـدـعـهـ  
أـخـبـارـ عـهـدـ الـاحـتـلـالـ الـبـرـيطـانـيـ ،ـ وـمـاـ رـآـهـ بـعـينـهـ فـيـ الـحـمـلـةـ الـنـيلـيـةـ  
الـأـنـجـليـزـيةـ عـلـىـ السـوـدـانـ لـاـنـقـاذـ غـورـدونـ باـشاـ .ـ

٣ - العرب قبل الإسلام • وقد صدر منه جزء واحد فقط سنة ١٩٠٨ ، ولم تصدر بعد ذلك بقية أجزائه • وتولت مجلتا المقطف ، والشرق نقده ، وقد ظهرت له أخيرا طبعة محققة ومعلق عليها بقلم الدكتور حسين مؤنس •

٤ - التاريخ العام ، منذ الخليقة إلى الآن • وقد صدر منه جزءه الأول سنة ١٨٩٠ بيروت ، ولم يكمله بعد ذلك • وقد نقه المقطف فور صدوره في المجلد الرابع عشر •

٥ - تاريخ إنكلترا إلى الدولة الიوركية • وقد صدر عن مطبعة الهلال بمصر سنة ١٨٩٩ • وهو تاريخ وجيز لا تزيد صفحاته على الثمانين إلا قليلا • وقد شر نقد له في المقطف بالمجلد ٢٣ ، وفي مجلة الشرق بالسنة الثالثة •

٦ - تاريخ الماسونية العام • وقد صدر بمصر سنة ١٨٨٩ • وفي السنة الرابعة عشرة من مجلة المقطف نقد له • ووصفه الأب شيخو بأن مؤلفه « ذهب فيه إلى مذاهب صبيانية خرافية ، اعتبرها كحقائق راهنة » •

٧ - تاريخ اليونان والرومان • وقد صدر عن مصر بدون تاريخ •

٨ - طبقات الأمم ، أو السلالات البشرية • ظهرت أولى طبعاته بالقاهرة عن مطبعة الهلال • وانتقده الدكتور يعقوب صروف في

المقتطف ، والأب أنسناس ماري الكرملي في لغة العرب ، والأب لويس شيخو في المشرق ٠

٩ - أنساب العرب القدماء ٠ ويدرك يوسف أسعد داغر أنه طبع في مطبعة الهلال سنة ١٩٢١ ، أي بعد وفاة زيدان ببضعة أعوام ٠ ولا أدرى إذا كانت صدرت له طبعة قبل هذه ٠ وقد أغفل كراتشيفسكي ذكر تاريخ طبعه ، وأضافه إلى بعض كتاب جرجي زيدان التي « لم تلق نجاحاً كبيراً » ٠

#### ثانياً : كتب التراجم والسير

١٠ - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ٠ وقد صدرت أولى طباعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠٢ ، لا سنة ١٩٠٧ ، كما وهم الأستاذ يوسف أسعد داغر ٠ وظهرت طبعته الثانية سنة ١٩١٠ لا سنة ١٩١١ ، كما جاء عند داغر أيضاً ٠ وقد تناول نقاده المقتطف في المجلد ٢٨ سنة ١٩٠٣ ، كما انتقده الأب لويس شيخو اليسوعي في المشرق بالسنة السادسة ٠

#### ثالثاً : كتب الجغرافية

١١ - عجائب الخلق ، ونستطيع أن نعدد من كتب التاريخ الطبيعي فيه أمثلة كثيرة من عجائب المخلوقات ٠ وقد طبع سنة ١٩١٢ في أولى طباعاته عن دار الهلال ٠

١٢ - مختصر جغرافية مصر . وقد طبع لأول مرة في مطبعة التأليف سنة ١٨٩١ ، وهي المطبعة التي أنشأها زيدان ونجيب مترى مشتركين كما في الفصل الخاص بموجز سيرة الرجل ، وهو صغير الحجم يبلغ حوالي سبعين صفحة .

رابعا : مؤلفات في اللغة العربية وتاريخ أدابها

١٣ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . واسمها في سيرة زيدان الملقة بالجزء الرابع من تاريخ أداب اللغة العربية : « الفلسفة اللغوية » ، واسمها عند المستشرق كراتشيفسكي « فلسفة اللغة العربية » . وقد أسماه يوسف أسعد داغر « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » ، على أن زيدان نفسه يذكره في مقدمة كتابه « اللغة العربية كائن حي » باسم « الفلسفة اللغوية » . وكانت أولى طبعات الكتاب سنة ١٨٨٦ بيروت ، وهو الكتاب الذي استحق من أجله عضوية المجمع الآسيوي الملكي في إيطاليا . وقد انتقده المقططف في السنة العاشرة ، لا في السنة الثامنة كما ذكر خطأ يوسف أسعد داغر .

١٤ - تاريخ اللغة العربية : باعتبار أنها كائن حي نام ، خاضع لناموس الارتقاء وقد ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٤ عن مطبعة الهلال بمصر . ونشرت المقططف نقادا له في ستة حلقات

والعشرين . وصدرت طبعة أخيرة جديدة لهذا الكتاب بمراجعة  
الدكتور مراد كامل وتحقيقه .

١٥ - البلقة في أصول اللغة . ولم نهد اليه ولا الى تاريخ  
طبعه . وقد كاد ينفرد بذلك كتاب « مصادر الدراسة الأدبية »  
لـ يوسف أسعد داغر . أما ترجمة زيدان في آخر الأجزاء من تاريخ  
آداب اللغة العربية فلم تذكره ولم تشر اليه في ثبت مؤلفاته ، كما  
لم يذكره كراتشيفسكي . أما يوسف أليان سيركيس فقد ذكره  
معجمه بدون تاريخ ولعله هو الذي نقل عنه يوسف أسعد داغر .

١٦ - تاريخ آداب اللغة العربية . في أربعة أجزاء ضخام .  
ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩١١ ، ولها دراسة مفصلة عنه في الجزء  
العاشر من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » . وصدرت له طبعة  
أخيرة جديدة بتعليقات واضافات كثيرة في الهوامش بقلم الدكتور  
شوقي ضيف . ولا ننيل الى رأي الدكتور أنطون كرم الذي  
لا يرى (أن شوقي ضيف الذي تولى الاشراف على الطبعة الأخيرة،  
قد أضاف كبير شيء الى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية ) فان تبعه  
ما استحدث من كتب ودراسات بعد الطبعات الماضية من هذا الكتاب  
كان عملا يستحق التوبيه به . وقد انتقده الأب الكرملي في مجلة  
لغة العرب ، والأب لويس شيخو في المشرق سنة ١٤ ، جزء ٨ ،  
ونجفي من آل كاشف الغطاء في مجلة العرفان بصيدا ، والشيخ

أحمد الاسكندرى في مجلة النار للسيد رشيد رضا ١٥ سنة  
وسنة ١٦

### خامساً : مؤلفات في الاجتماع

١٧ - علم الفراسة الحديث . و موضوعه الاستدلال على  
أخلاق الناس و قواهم و مواجههم من النظر الى أشكال أعضائهم .  
و قد ظهرت أولى طبعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠١ . و قد قال عنه  
الأب شيخو : ( وما لم نستحبه له كتاب علم الفراسة الحديث ،  
مع ما فيه من الأوهام والخيالات ) . وفي المجلد السادس والعشرين  
من المقططف نقد له ، كما أن في مجلة النار سنة ١٩٠١ نقداً  
آخر له .

١٨ - مختارات جرجي زيدان . وهو مجموع مقالات نشرت  
في أعداد متفرقة من الهلال في فلسفة الاجتماع وال عمران ، و جمعت  
في كتاب واحد يشتمل على ثلاثة أجزاء ، ظهر بعد وفاة زيدان  
بستة أعوام سنة ١٩٢٠ . وقد نشرت مجلة الشرق نقداً له في  
المجلد ٣٠ .

١٩ - رد رنان على نيشن الهذيان . وقد ظهرت طبعته الأولى  
سنة ١٨٩١ وهو رد على الكتاب الذي ألفه أمين المدنى في نقد

زيدان ، وهو أصغر كتب زيدان حجما ، ويقع في اثنين وثلاثين  
صفحة .

### سادسا : الروايات التاريخية

تبليغ روايات جرجى زيدان التاريخية ثلاثة وعشرين رواية .  
وقد سبق لنا حصرها والحديث عنها فى فصل خاص صفحه ٩٥ -

٩٨

### سابعا المخطوطات :

• مصر العثمانية : ويشمل تاريخ مصر من الفتح العثماني  
إلى الحملة الفرنسية ، ويقع في أربعة أجزاء . وكان هذا الكتاب  
معدا ليكون محاضرات تلقى في الجامعة المصرية القديمة . ومنه  
نسخة بخط جرجى زيدان نفسه مودعة بجامعة فؤاد الأول - ٧٥  
م ، ف ٣٠٠٢ .

## المراجع والمصادر

### مرتبة وفق حروف الهجاء

- ١ - الآداب العربية في القرن التاسع : الأب لويس شيخو  
اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٤
- ٢ - الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين :  
الأب لويس شيخو اليسوعي ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٦
- ٣ - الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث : أنيس  
المقدسى ، بيروت سنة ١٩٦٠
- ٤ - الأدب العربي في آثار الدارسين : لجنة من الأساتذة ،  
بيروت سنة ١٩٦١

- ٥ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، الطبعة ٣  
 دار الهلال ، مصر سنة ١٩٣١ والطبعة الأخيرة ، القاهرة  
 سنة ١٩٥٩ ٠
- ٦ - تاريخ التمدن الإسلامي : جرجي زيدان ، الطبعة  
 الأخيرة ، مطبعة الهلال سنة ١٩٥٩ ٠
- ٧ - تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر : الدكتورة  
 نفوسة ذكري يا سعيد ، القاهرة سنة ١٩٦٤ ٠
- ٨ - تاريخ الصحافة العربية : الفيكونت فيليب دي طرازي  
 المطبعة الأمريكية ، بيروت سنة ١٩٣٣ ٠
- ٩ - تاريخ الطباعة في الشرق العربي : خليل صابات ، دار  
 المعارف ، مصر سنة ١٩٥٨ ٠
- ١٠ - تاريخ مصر الحديث : جرجي زيدان ، مطبعة الهلال ،  
 القاهرة سنة ١٩٢٥ ٠
- ١١ - التاريخ والمؤرخون في مصر : جمال الدين الشيبالي ،  
 القاهرة سنة ١٩٥٨ ٠
- ١٢ - تراث الإنسانية ، المجلد الرابع ، العدد العاشر ، القاهرة  
 سنة ١٩٦٦ ٠
- ١٣ - تراث مشاهير الشرق : جرجي زيدان ، مطبعة الهلال  
 القاهرة سنة ١٩١٠ ٠

- ١٤ - التراث والسير : محمد عبدالغنى حسن ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٩
- ١٥ - تطور الرواية العربية الحديثة : عبد المحسن طه بدر ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٣
- ١٦ - دائرة المعارف الإسلامية : مادة زيدان ، المجلد الحادى عشر
- ١٧ - ديوان الخليل : خليل مطران ، مطبعة دار الهلال ، القاهرة سنة ١٩٤٩
- ١٨ - ديوان ذكريات : ابراهيم زيدان ، مكتبة الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ
- ١٩ - ديوان شعر حفى ناصف : جمع ولده مجد الدين ناصف ، دار المعارف سنة ١٩٥٧
- ٢٠ - ديوان الشوقيات : أحمد شوقي ، ح ٣ ، القاهرة سنة ١٩٣٦
- ٢١ - ديوان محمد حافظ ابراهيم : شرح لجنة من الأساتذة ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧
- ٢٢ - ديوان ولی الدين يكن ، مطبعة المقطم والمقطف ، مصر سنة ١٩٢٤

- ٢٣ - رواد النهضة الحديثة : مارون عبود ، بيروت سنة ١٩٥٢
- ٢٤ - شكري شعشاوة الانسان الأديب : البدوى المتن ، عمان ، الأردن سنة ١٩٦٤
- ٢٥ - العرب قبل الاسلام : جرجى زيدان ، دار الهلال ، مصر سنة ١٩٥٩
- ٢٦ - عظاميون عظماء من الشرق والغرب : بأقلام نخبة من الكتاب . دار الهلال . القاهرة .
- ٢٧ - الفن القصصى في الأدب المصرى الحديث : محمود حامد شوكت ، القاهرة بدون تاريخ .
- ٢٨ - الفنون الأدبية وأعلامها : أئيس المقدسى ، بيروت سنة ١٩٦٣
- ٢٩ - فى أوقات الفراغ : محمد حسين هيكيل ، ط ٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٨
- ٣٠ - القصة في الأدب العربي الحديث : محمد يوسف نجم ، القاهرة سنة ١٩٥٢
- ٣١ - الكتاب الذهبي للهلال ، القاهرة سنة ١٩٤٢
- ٣٢ - اللغة العربية كائن حى : جرجى زيدان ، دار الهلال . مصر .

٣٣ - مختارات دار الهلال ، مطبعة دار الهلال ، مصر سنة

١٩٤٦

٣٤ - مرآة العصر ، في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بصر :  
ألياس زخورة ، مصر سنة ١٨٩٧

٣٥ - مصادر الدراسة الأدبية : يوسف أسعد داغر ، بيروت  
سنة ١٩٥٥

٣٦ - مصطفى كامل : عبد الرحمن الرافعى ، مطبعة الشرق ،  
القاهرة ١٩٣٩

٣٧ - مع المخطوطات العربية : أغناطيوس كراشكونوفسكي ،  
مطبعة التقدم ، موسكو ، بدون تاريخ

٣٨ - معالم الفكر العربي المعاصر : أنور الجندى ، القاهرة  
سنة ١٩٦٦

٣٩ - معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف آيان  
سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨

٤٠ - معجم (الأعلام) : خير الدين الزركلى ، القاهرة

٤١ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ،  
دمشق ١٩٦٠

٤٢ - المفصل في تاريخ الأدب العربي : أحمد الأسكندرى  
و زملاؤه ، مصر سنة ١٩٣٦ ٠

٤٣ - من أعلام الفكر والأدب : أنور الجندي ، القاهرة سنة  
١٩٦٤ ٠

٤٤ - الموسوعة العربية الميسرة : اشراف محمد شفيق غربال ،  
القاهرة سنة ١٩٦٥ ٠

٤٥ - التر العربى المعاصر فى مائة عام : أنور الجندي ،  
القاهرة « بدون تاريخ » ٠

٤٦ - الهلال الماسى ٧٥ عاما ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

### المجلات

مجلدات الهلال ، والمقطف ، والمنار ، والشرق ٠

# فهرس

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٧      | الحياة في سطور .. . . . .                         |
| ١٥     | صور من الطفولة والمدرسة .. . . . .                |
| ٢٥     | العصامية وسر النجاح .. . . . .                    |
| ٣٥     | رحلات ومشاهدات .. . . . .                         |
| ٤٥     | زيدان المعلم والأستاذ .. . . . .                  |
| ٥٥     | مناهج التأليف عند زيدان .. . . . .                |
| ٦٧     | المؤرخ ومنهجه التاريخي .. . . . .                 |
| ٧٧     | كاتب الترجم .. . . . .                            |
| ٨٧     | رائد في تاريخ الأدب .. . . . .                    |
| ٩٥     | ١ زيدان والروايات التاريخية .. . . . .            |
| ١٠٧    | ٢ بين الصحافة والصحافة الأدبية .. . . . .         |
| ١١٩    | ٣ الت نقيف الذاتي والتعويل على المصادر .. . . . . |
| ١٢٧    | ٤ كتب زيدان بين النقد والرواج .. . . . .          |
| ١٣٩    | ٥ أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى .. . . . .        |
| ١٥٣    | ٦ موقف حائز .. . . . .                            |

| الصفحة | الموضوع                              |
|--------|--------------------------------------|
| ١٦٣    | بين العلم والسياسة .. . . . .        |
| ١٧٣    | صلاته بالمستشرقين .. . . . .         |
| ١٧٩    | نزعه شعبية غير أرستقراطية .. . . . . |
| ١٨٥    | باقة من الأخلاق .. . . . .           |
| ١٩٣    | زيدان الأب .. . . . .                |
| ٢٠٥    | نهاية الحياة ودموع الوفاء .. . . . . |
| ٢٢١    | السنة الخلق أقلام الحق .. . . . .    |
| ٢٢٩    | مؤلفاته .. . . . .                   |
| ٢٣٧    | المراجع والمصادر .. . . . .          |



المطبعة الثقافية  
 رقم الاريداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥١٢٥